

# خير الله الجبل

رواية

علاء فرغلي

دار العين للنشر



# خير الله.. الجبل

## خير الله. الجيل

رواية

علاء فرغلي

الطبعة الأولى / ١٤٣٧هـ، ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل بونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

الغلاف: عبد الحكيم صالح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٥/٢٣٨٣٥

I. S. B. N 978 - 977 - 490 - 353 - 3

# خير الله.. الجبل

رواية

علاء فرغلي

---

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

فرغلي، علاء

خير الله .. الجبل: رواية/ علاء فرغلي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٦

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٣٥٣ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

١- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٣٨٣٥ / ٢٠١٥

## الإهداء

إلى أمل مسعد أبو العينين نشرييني..  
ثالثة آداب إنجليزى. القاهرة.  
ليتهم ما أضاءوا مصابيح العواميد!

علاء





حياة خير الله كحياة البحر، واحدة ومتلازمة، متتابعة، ذات أنواء.  
والخارج منها ليس مولودا، بل ميت، تماما كأسماك المياه الحلوة  
حين يصبُّ بها النهر في البحر المالح، تتنفس قليلا حتى ينتهي  
هواء خياشيمها فتذبل شيئا فشيئا... وتموت.

٤

# القسم الأول



1

يا قلة الصبر!

تقولها ولا تصطبر حتى يهده التعب فيعود



ولود الكلب ضحكوا عليه وتركوه للجناجم وحده في طاحونة  
المفارق وطاروا!!

وبعد أن استقرّ طرف عصاه المدبّب ينخر في عيونها وأنوفها  
وما شاف من فتحاتها محاولا اكتشاف ما بداخلها بجرأة وجسارة،  
أفلتت كفه الصغيرة العصا، وتسحب فوق أطراف أصابعه كاتما  
أنفاسه حتى تجاوز مدخل الطاحونة، ولم تمنحه شجاعته قدرةً  
للانحناء والتقاط العصا الملعونة التي انحسرت في فم إحدى  
الجماجم المبعثرة فوق التراب.

بالكاد قفز كالملدوغ بعيدا بعيدا ليقطع، كامل المسافة من طاحونة  
المفارق إلى الشارع البحري في نفس واحد، مقاوما رغبته في إلقاء  
نظرة خاطفة للوراء ليتأكد له ما إذا كان ثمة ما يطارده أم لا.

هكذا حكى "علي" لصالحين، أخته، وهي تُحمّمه وتدعك بين  
فخذيهِ بليفة النخيل وصابونة البوتاس كما أوصتها أمها قبل أن ينخ  
بيت المعصرة فوقها كالجمل.. وتموت.

واعتادت صالحين معه، دون بقية إخوته، أن تمرّر حكاياته عبر أذنيها كما تمرّر رغاوي الصابون الساخنة بين أصابعها بعد أن تمتص شيئا من لذتها يمحو شيئا من تعب يومها الطويل. الوحيد "علي" الذي يقبل بها تحمّيه بلبوصا عاريا. عيّل قليل الأدب. حتى مصطفى الذي يصغره بأربع سنوات كاملة لا يقبل.

قبلها بساعات كان "علي" يطنّ كمنحلة بين أزهار يابسة في أذان الولدين ياسين وحسين، ليجرّهما خلفه باتجاه طاحونة المجدوب كجحشين ربطهما عربجي غشيم بمؤخرة كارو، بعد أن رفض إخوته الصبيان الثلاثة الذهاب معه خوفا من الكلاب المسعورة والصخور الوعرة وأمين المجدوب، ساكن الطاحونة، الذي أقسم جارهم الشيخ يونس أنه لا يظهر خارج طاحونته إلا في الخلاء والزراعات والمصارف وقهوة مجاهد، وخوفا من لدغات أختهم صالحين التي تركت فوق أفخاذهم علامات حمراء كطوايع بريديّة قديمة ذات صمغ سوداني عتيد.

ولكي يحفزهما عليّ على خوض المغامرة حكى لهما عن كنز اليهودي خير الله الذي دفسه في الطاحونة قبل هجرته لإسرائيل أيام عبد الناصر وسميت باسمه العزبة تاليا، وكانت تلك الرواية التي دأب حسن الكُتبي، على ترديدها دون دليل علمي أو سند تاريخي، لكنها وجدت أذانا التقطتها وأضاف أصحابها إليها.



أخبرهما أن الكنز يحرسه عفريت أزرق يخدمه أمين المجدوب وأن لديه تعويذة تُفكّه، وعندما سأله حسين عن التعويذة، أخرج عليّ صفحةً نزعها من كتاب "الكبريت الأحمر والسر الأخضر" وجده بين كتب أخرى يحفظها عمهم حسن الكُتبي في خزانة سريره. كانت جلدة الكتاب حمراء قانية والحروف باهتة بارزة مكتوبة يدويا بخط النسخ، استرعت الصفحة المطوية انتباهه، حاول فتحها فخرجت مهترنة بين أصابعه فدسها في جيبه، مخمنا أن السرّ الأخضر هو سر كنز اليهودي خير الله، وأن الصفحة المطوية هي فك الطلسم، صدّقه حسين وباسين، وكان دافع حسين ابن متولي الخرار لتصديقه أكبر، فقد أراد بنصيبه من الكنز أن يثني أباه عن نزح طرنشات العزبة بالعربة الطنبور التي تجرها حمارة وابنتها، تسبقه رائحة تزكم الأنوف وتعمي الأبصار.

لكن الحلم تبخر، كما تبخرت أحلام هامشية أخرى بمجرد دخولهم الطاحونة ورؤيتهم "الجنّاجم" - هكذا أسموها - وعظام آدمية وملابس بالية وسط صناديق خشبية كبيرة قديمة مغلقة بإحكام.

وبعد أن تجاسر "عليّ" وسار أمتارا داخل الطاحونة، وشرع يعبث بمحتواها، طارا ولود الكلب مذعورين في فضاء العزبة كعمسوسين، تركاه وحيدا لا يتذكر حرفا من آية الكرسي أو سورة

الفاحة تعينه على فتح واحد من هذه الصناديق التي هي بلا شك  
كرّازات ذهب اليهودي خير الله!

وقالت صالحين أنها "ستعملها على روحها إن لم يسكت"  
فسكت، وفي رأسه صورة متخيلة لأخته مبتلة بقطرات بول ظاهرة  
كالتّي تفلت منه، عادة، عندما يحصره الضحك أو الخوف.

طست صالحين قفاه بكوز ماء التقطه من خيالاته العجيبة. ولولا  
حبة الضحك الذي أجاد استفزازه داخلها لفركت قطعة لحم صغيرة  
من فخذة بين إبهامها وسبابتها بقرصة محترفة من موروثات  
المرحومة.

وبعدما فرغت من نصف جسده العلوي لتصل إلى كعبي قدميه  
بليفتها النخيل التي صنعت بنصفها الآخر "مقشة" لكنس التراب  
وحبات الرمل المتساقطة من تفاريح السقف سألته عن "الجنّاجم  
وشكلها"، فأخبرها أنها تلك التي يراها كل صباح فوق اللافتات  
المثبتة بعواميد الكهرباء بمحطتي دار السلام والمعصرة لعظام  
رأس رجل ميت وتحتها عبارة "خطرموت" وأيضاً لم تفهم.  
بينما ظلّ نحو فصل دراسي كامل لا يلمس عواميد الكهرباء. حتى  
جاء يوم قرّر فيه أن يعود إلى طاحونة المجذوب وحده بعد أن  
رفض مرافقته الجميع. وعاد منها حاملاً في قلبه سرّاً وعلى كتفه  
جوالاً متسخاً منتفخاً بالجمّاجم والعظام. خبأه بين كراكيب أخرى

فوق سطح غرفة منزلهم الوحيدة، دون أن يفكر في أي غرض سيستخدمها. الجوال الذي سيسقط بما فيه وبعد سنوات فوق رأسي حنفي وأبوتلاتة في محاولتهما تذوق لحم البننت صالحين!

\*\*\*

باستثناء تلك النهارات التي اصطحبه فيها أخوه ناجي عند تكسير صخرة في بيت أحد سكان خير الله، انفك سيرجُه وانطلق يجوس كالتيس المفطوم في كل شبر من العزبة وما حولها، ودارت خلفه صالحين طوافة تطاردُ ظلا طائرا. تسلل عليّ إلى الطواحين واحدة بعد أخرى.

قضى يوما كاملا لدى حواف مطلع الزهراء، ويوما آخر لدى مطلع عزبة أبوقرن والساحل وأثر النبي، وقاد باحتراف هيكل سيارة محترقة قرب معسكر الخيالة. ونام في مسجد الدندراوي قريبا من السبع بنات واستيقظ ليجد حجره ممتلئا بار غفة محشوة باللحم والأرز الأبيض، أكلها مع محمد ومصطفى خفية من صالحين حتى لا يناله عقابها. كلها مناطق بعيدة لم يصل إليها جارهم الشيخ يونس بجلال قدره أيام كان غفيا لا يكَلّ من السير بردا أو قيظا.

ذات مرة عاد متسللا إلى البيت، جلده مصبوغ بلون أبيض جيرى، يحكّ ظهره في جدار الغرفة كحمار العرجي سيد عضمة

الذي يتمرّغ كل مساء في تراب الشارع كأنه يتيم. وبعد استجواب قسري، استخدمت به صالحين كاوتش دراجة داخلي أسود قديم، اعترف بذهابه مع اثنين من سرّيحة المعلم نظرة صاحب شونة الروبايكيّا إلى البئر في عين الصيرة ليعلماه الغطس. لكن المياه كانت لزجة مالحة علقماً، فخرج، وجلس على التراب يراقب عيال العزبة والمناطق المجاورة وهم يقفزون داخل المياه عرايا بلابيص، يطرطرون على بعضهم في سعادة.

أمسكت صالحين هذه المرة ضحكتها. قيدت قدميه ويديه من خلاف، وألقت به خارج الغرفة وتركته في الظلام كسلحفاة انقلبت على ظهرها فاستسلمت للمصير.

أغلقت باب الغرفة ولم تستجب لتوسلات إخوتها أو شفاعات جاراتها مؤكدة:

**"ياكش تلدعه أعربة وتجبب أجله".**

وجاء جارهم الشيخ يونس ومعه خليل وسيد العسكري وفكّوا قيوده واستسمحوها. قال لها العسكري إنها "صعبة قوي" وهكذا لن يستطيع إخوتها العيش في خيرالله. واعتبروا أن لديها دقة عبط.

الشيخ يونس أخبر عليّ محذراً أن ذلك البئر ينتج من الجثث

أكثر مما ينتج من ملح و عفاريت، وأنه مثل مبنى إسطنبول عنتر لا يمرّ يومان ثلاثة إلا وتأتي الحكومة لرفع جثة ألقيت داخله والفاعل مجهول، الفارق الوحيد أنّ الجثث التي يعثر عليها طافية فوق سطح المياه يأكلها الملح، ويحيلها إلى عظام مفككة لا يستدل على صاحبها، وفي الليل لا يجرؤ صريخ ابن يومين على المرور هناك حتى لا تلبسه روح والعياذ بالله.

أنصتت صالحين للشيخ يونس الذي تتخلل عباراته ضحكة عجيبة تشبه كركرة الجوزة السوهاجي في جلساتهم المسائية، وفي يقينها أنها لو كانت تعرف ما أخبر به الشيخ لما استجابت لشفاعاتهم، ولتركت عليّ بيت ليلته في قيوده مثل الكلب الجربان. فقد كان عقابها فقط من أجل خلعه ملابسه أمام عيال الشوارع المشردين، وخوفها أن يعمل له أحدهم حاجة!

أمّا عليّ نفسه فلم يلتقط مما قيل سوى أن البئر كالإسطنبول، وومضت في رأسه فكرة أنه لم يدخل الإسطنبول رغم قربه، وأنه بلا شك يحوي ما لا يحويه سواه، وبات يخطط لتعويض ما فات.

بعد يومين كان خلالهما ملاكا مطيعا ينزل من سحابته البيضاء ليغسل الأواني ويكنس الغرفة ويرتب سريرها الصاج بمرتبته المحشوة بالملابس البالية، ويساعد أخته بتفان وإخلاص ويصطحب الصغير مصطفى عندما يقضي حاجته في الظلام. ذهب إلى

الإسطنبول وحده دون أن يسحب خلفه أيا من عيال الشارع حتى لا يصل الخبر إلى صالحين. دلف عبر بوابته الخشبية، لكنه لم يفصح عما رأى داخله لأحد. ظل لأيام متواصلة مشدوها يشعر برغبة في البكاء، لا يعلم أحدٌ بما أصابه.

وشعرت صالحين بالذنب ودعت صادقة: "تنشك ايديا اللي ضربته".

اشترت له برتقالا كانت تجلبه عندما يصيب أحدهم عارضٌ مرضي. فصصت له حبتين لكنه تقيأهما، وظل يتعرق محموما، يرتجف جسده بعنف. أقرأت الشيخ يونس عليه قرآنا ودعكت صدره وظهره بقطرات من زيت طعام، وغلفته بورق جرائد تحت ملابس ثقيلة. خفنت الحمى، لكنه لم يعد لطبيعته إلا بعد أن بدأت الدراسة، ليجد لنفسه عالما جديدا استغرقه حتى النخاع.

\*\*\*

ارتدى مريلة كوتها صالحين بقالب حديد زهر أعارها إياه الشيخ يونس، وحمل حقيبة ظهر جلدية كبيرة أهداها له عمهم حسن الكتبي، بدا تحتها كجمل صغير يحمل هودج عروس ابنة شيخ قبيلة، ذهب بصحبة صالحين التي أخذت في يدها أيضا مصطفى ومحمد

وانتظرتة خارج المدرسة بين أمهات أخريات أدخلن صغارهن الفصول وانتظرن خروجهم بشهادات جامعية. لم تَبْدُ بلامحها الغصّة وقامتها القصيرة في أنوثة منحولة أماً لتلميذ التحق، توا بالابتدائية. فضلا عن طفلين أحدهما فوق كتفها والآخر يتعلق بطرف جلابيتها. بادلتهن أحاديث قصيرة أعلنت خلالها أن الثلاثة إخوتها بخلاف رابع يصغرها بأربع سنوات كاملة.

استمع عليّ إلى اسمه عبر ميكروفون الإذاعة. اصطف مع زملاء أولى رابع في طابور طويل من الذكور يوازيه طابور إناث سيتحركان معا إلى الطابق الثالث. كل منهم يمسك بيد زميلته المجاورة في الصف الموازي. وسيحرص خلال سنواته الدراسية الأولى أن يوازي ألفت إحسان عبد المسيح، حتى يوقف الأستاذ خيرى ناظر المدرسة الجديد هذا التقليد عند بداية صفه الرابع.

بعد أسابيع يشتري كراسة رسم كبيرة طلبتها أبله "قشطة" مدرسته البضة البيضاء ذات أصابع المارشيللو الدافنة التي تركت رائحة عطرها احتياجا في جيوبه الأنفية لم يسكن إلا بعد سنوات، برائحة تشانس شانيل لزميلته في إعلام القاهرة رباب عبيد إبراهيم.

رسم قطارا يقف قرب عامود معدني يحمل لافتة عليها علامة "خطر الموت". أعجبت أبله قشطة التي دارت على زميلاتها باللوحة الصغيرة مبتهجة بتلميذها بعد أن طبعت قبلة دافنة ظلت

أثارها فوق خده الأيسر حتى الجامعة، كانت "قطشته" تتحين الفرص لمنحه - دون غيره - جائزتها الساخنة كل يوم، وكان يعرف موعدها وينتظره، الحصاة الأخيرة أو التي قبلها، إلى أن جاءت يوماً أقصر قامته من المعتاد، بعد أن تخلّت عن حذاءها ذي الكعب الرفيع المديب العال، ترتدي حجاباً لم يعرف لونه جيداً، تخبرهم أنها ستزوج وتنتقل إلى إدارة شرق التعليمية. كان يوماً حزينا، رغم نبيله حصاة يومه من القبلات. وأخرى إضافية كادت تلمس شفاهه. عاد إلى البيت واجماً، حكى لصالحين وبكى في حجرها، فاحتضنت دموعه بينما تنفرج شفاتها بضحكة خبيثة حاولت إخفائها.

ذهبت "قشطة" بعد أن تعلم القراءة في شهور قليلة وأصبح أول صفه في اللغة العربية، وقبل نهاية سنة أولى نال جائزة عن مسابقة رسم نظمتها إدارة حلوان التعليمية مستخدماً فرخ شفاف لنقل بعض الحيوانات من كتاب القراءة إلى الكراسي وحصل على علبة ألوان فلوماستر أربعة وعشرين لونا وخمسة كشاكيل ما بين ستين ومائة صفحة، استغل أكبرها في كتابة واجب إجازة نصف العام، وكان تدوين كتاب القراءة كاملاً مرتين، فيما احتفظ بكشكولين آخرين للفصل الثاني.

\*\*\*



ثم مشّت صالحين في موضوع نقل ملفه من مدرسة المعصرة إلى مدرسة الفيروز القريبة من خيرالله. لكن الفيروز اشترطت جلب ما يثبت عنوان السكن رسمياً، أو دفع قيمة خمس تحت خشبية جديدة كتبرع، أو جلب واسطة محترمة، على الأقل مدير بالإدارة التعليمية أو عسكري بقسم شرطة البساتين.

اضطرت لتوصيله المعصرة وانتظاره خارج المدرسة مع الصغيرين محمد ومصطفى لعدة أيام كانت خلالها تحمل محمدا على كتفها وتجر مصطفى في كنفها، تقطع الطريق القبلي وتنزل عبر مطلع الملاء ومنه إلى محطة قطار دار السلام، وبعد سبع محطات متتالية تنزل المعصرة التي تسبقها طرة الأسمنت وكوتسيكا دون أن تستجيب لنداء الكومساري لشراء تذكرة ورقية بخمسة قروش، والتي سرعان ما تحولت بعد عام واحد فقط إلى مغناطيسية صفراء يقطعها خط أسود تمر عبر ماكينة كهربية لقاء ربع جنيه دفعة واحدة، ستكون سببا إضافيا لنلا تفكر صالحين في ركوب المترو إلا مرورا من تحت عوارض الماكينات الدوارة.

أخبرها علي، مغامرا، بعد عدة أيام أنه يعرف الطريق جيدا، ملخا في الذهاب وحده كرجل. استخارت ربنا والشيخ يونس وجيرانها بطرسة وأم ياسين والعسكري وخليل وطوب الأرض، فلم يشأ أي منهم أن يتورط في نصيحة تعجل بأجل أخيها الصغير، فقط حسن

الكتبي دعا أن يباركها الله ومحمد وعلي. تركته. وقضت ساعات طويلة مع نسوان الشارع بانتظاره عند ناصية الشارع البحري.

في الموعد المقرّر ظهر في فوهة الشارع يتأرجح تحت حقيبته الكبيرة. اقترب بوجه باسم مستدير يشع نورا وحياء كقائد عاد منتصرا من فتح مبين. زغردت صالحين وأعلن الحاضر الغائب أنّ عليّ أخ صالحين يذهب إلى مدرسته في معصرة حلوان بالقطار وحده، واعتبرها الشيخ يونس كرامة أخرى من كرامات إخوة صالحين. سبقتها كرامة ناجي الذي صار حجارا قبل أن يتم عامه الحادى عشر، ويقطع الصخور بشاقوف مدبب، وتخرج الحجارة من تحت يديه مصبوبة بلا نتوءات أو اعوجاج كأنها قطعت بسكين!

وبعد عدة أشهر يقرّر "الشيخ يونس" ذبح جدي هزيل من عدة أغنام يرببها شراكة مع خليل. سيعمل "ليلة" لله مثل الليلة التي عملها أبو ياسين عمّنوّل عندما أنجب ولدا، وليلة خليل عندما فتح الدكانة، ومتولي الخزار عندما أدخل ابنه حسين المدرسة، وأصرّ أن يذبح الجدي على عتبة باب صالحين وأن يملأ جنبات الباب وحيطان الغرفة بالخمسة وخمسة الحمراء لكسر العين عن إختوها.

كانت ليلة ذكّر معتبرة. جلب جارهم أحمد الفران تسجيل

توشيبا أربع سماعات وبابين، يضع في أحدهما شريطا للشيخ أحمد التوني أو ياسين التهامي أو أمير المداحين محمد العجوز، الله يرحمه، ويختم بمكرم المنياوي. وُضِعَتْ صواني الأرز بالمرق وعلى سطحها مكعبات اللحم الصغيرة فوق الحصير المغزول، تخطفها عيال الشارع قبل أن تلمس الأرض، وبعد أن أكل الجميع ما صادفته الأيادي الطائرة، اصطف الرجال على أنغام ابتهالات صادرة عن سماعات التسجيل.

بدأت الأجساد تسافر يمينا ويسارا في رحلة طويلة إلى عالم أخروي، يغيب الشيخ يونس وجيران الشارع البحري في قاع بنر جافة، ويصل صدى أصواتهم، تردد: الله الله الله، من مكان ما لا يستطيع عليّ أو أي من عيال الشارع الذين يراقبونهم عن كثب تبيانه. خليل يتطوح برفق وعينه مفتوحتان تراقبان نافذة دكانته والأغراض المعلقة على جانبيها، واقفا على حافة البنر يقارم السقوط. يكتفي حسن الكتبي بقذف حجارة صغيرة إلى قاع البنر ولا يحاول الاقتراب. بينما ينصرف نظرة وسريحتة والعرجي عضمة وأولاده فور الانتهاء من وجبة العشاء الدسمة. أما ناجي فيحاول دخول الحلقة بإصرار، يتطوح بعنف، بتركيز، بتذلل، ولا يشعر سوى بدوار ورغبة في قيء نصيبه من جدي الشيخ يونس البلدي.

يسقط الشيخ يونس فجأة على الأرض متشنجا، يثير الرعب في نفوس النساء اللاتي يراقبن رجالهن وأبنائهن باهتمام كأنهم في فرز طبي سيحدد دخولهم الخدمة العسكرية من عدمه. بعض التوتر يصيب حلقة الذكر التي لم تكن سوى قوسين متقابلين منغلقتين على نفسيهما.

بطرسة تقول إن الشيخ يونس ملبوس والذي يلبسه لم يتحمل الذكر فتشنج محاولا الهرب من إصبع قدمه الكبير، وخلييل يقول إن الشيخ يونس وصل إلى الطبقة الأعلى وأصبح الآن على البوابة. بينما يقول حسن الكتبي إن ترك الجسد يتطوح يمينا ويسارا على وتيرة واحدة مع صوت المنشد يساعد على تفريغ الذهن من مشاغل الحياة حتى يصل الإنسان إلى التوحد مع نفسه دون الآخرين ولا يشعر بمن حوله.

في اليوم التالي يستيقظ الشارع على صوت الشيخ يونس يمسك بتلابيب أحمد الفران صاحب التسجيل الأربع سماعات وبابين، محاولا الفتك به لأنه - كما قال - أضع عليه ثواب الليلة والنذر والجدي البلدي. قال الشيخ يونس إن بطرسة، أخبرته أن مكرم المنياوي الذي ظلّ يصدح بمدح سيدنا المصطفى ليلة أمس واضطر لشراء أربعة حجارة "طرش" لسماعه حتى نهاية الشريط، هو مسيحي اسمه مكرم جبرائيل غالي. أقسم أحمد الفران أنه يسمعه

منذ سنين وأنها ربما كانت إشاعة. تدخلت بطرسية وأقسمت بالمسيح إنه بلدياتها وأن له شريطا في مدح العدرا. ظهر التأثير في وجوه أغلبهم. وسأل خليل بنية صادقة عن حكم سماع مدّاح مسيحي في ليلة الذكر الطاهرة فلم يجبه أحد. الشيخ يونس - الذي اعتاد دوما ترديد الأقوال الماثورة والأمثال القديمة والعبارات المتداولة، كأنها أحاديث شريفة من قبيل: اللّي يعوزه البيت يحرم على الجامع، حاول استنباط رأي فقهي سريع، فقال إنها ليلة طاهرة ولا يصح أن يستمعوا فيها لقبطي لا يستحم بعد الجماع. التفتوا إلى بطرسية مستفسرين، فقالت إنهم يستحمون أكثر منهم، لكنها استدركت أن هناك مذاهب مثلهم مثل المسلمين وربما كان مكرم المنيأوي من طائفة لا تستحم، الله أعلم، ولم يترك الشيخ يونس تلابيب أحمد الفران إلا بعد أن أعدت له صالحين كوب ماء بالسكر وانتحت به جانبا.

\*\*\*

\*

2

"الموت بيوجع الحي، ما بيوجعش الميت".

قالها ومات مكهربا في الفرن الأفرنجي





عندما نَحَّ بيت المعصرة كناقاة مسنمة أجهدها المسير بلا زاد،  
وراحت تحت أنقاضه الغرفة والدكانة والأم، جاءت "أم ياسين"  
الجاراة القديمة التي انتقل بها زوجها إلى عزبة خيرالله، لتقول  
لصالحين إن الأعمار بيد الله، ولو كانت أمها المرحومة استمعت  
إلى النصيحة وجمعت أغراضها ورافقتها إلى خيرالله لما ماتت  
تحت جدران بيت مهكج. لكنها آجال.

وقالت أيضا إن أمة لا إله إلا الله تزحف إلى هناك، خيرالله  
أرض رخيصة بلا صاحب، وعالية تشوف القلعة والبرج والهرم  
والمقطم، وأنت يا صالحين إن استنصحتِ فستكون حياتك حياة،  
على الأقل لن تتمعري لصاحبة بيت بدينة تقف على بابك أول  
كل شهر تطلب إيجار غرفة ذات دورة مياه مشتركة، يترك عيال  
الجيران نصف برازهم على حواف فتحة صرفها كتذكارات معنقة  
من أكالات فاسدة هصرتها الأمعاء وألقت ببقاياها روائح كريهة  
تعبق غرفتك، سيكون بيتك يا صالحين بدورة مياه مسموح لك  
ولإخوتك بالاستحمام داخلها دون أن يطفح "الطرش" بالمياه

وتضطرين للمشاركة في جلب عربة نزع بالشيء الفلاني.

وردت أم ياسين ما اعتاد زوجها ترديده على مسامعها منذ انتقل بها إلى خيرالله: ألا تنظر للعزبة الآن. تنظر بعد سنوات. ساعتها لن تتسع لموطئ قدم، ومن لم يبادر بركوب "حثة" قبل الهوجة سيندم.

ولم ترد صالحين أن تتدم. أخبرت ناجي وعلي ومصطفى ففرحوا، وكانت أربع سنوات تفصل كل منهم عن أخيه، عدا محمد ذي العامين، كان يصغر مصطفى بعام فقط، ذلك أن مازورة الخلفة عند المرحومة خربت بعد ولادة مصطفى، كما اعتادت صالحين أن تؤكد.

نبشت أنقاض البيت المهذوم على أدمغة أصحابه وأخرجت ملابس لها وإخوتها وبعض الأواني والصناديق وبطارية بمية النار "حامض الكبريتيك" وكلوب براتينة بيضاء وحصيرة وبر بلاستيك، وأشياء أخرى تخص جيران تركوها تحت الأنقاض وهجّوا بدونها حتى لا تصحبهم رائحة الميتين.

أهدتها جارة طيبة ملاءة سرير زرقاء عليها نقشة زهور لا تعرف اسمها، اشترت وابور جاز بشرائط، كان أمنية قديمة حققتها، استأجرت سيارة ربح نقل لتوصيل عزلها وقضت نهارا كاملا في ترتيبات "العزال" دون شعور بالتعب، شعرت به عندما جاهدت

لاعتصار مآقيها لتقطر بعض الدموع على روح أمها المرحومة  
استقبالا وتوديعا لبعضهن ممن جنن للعزاء يجاملنها بالصويت  
الفاجر ولطم الخدود.

\*\*\*

سألت صالحين طوب الأرض: "تعرف خير الله؟"

لكن أحدا لم يبيل ريقها، قيل بلاد الله خلق الله، استخيري!  
استخارت، ونامت ولم تحلم بشيء. استيقظت ولم تر علامة.  
اعتبرت ذلك بشارة! جارها السائق، بائع الدجاج الفيومي، نرّ  
ما يعرفه بعد أن نشفَ البحر، وبينما يقود سيارة عزاهم من  
المعصرة في طريقهم إلى هناك. خير الله.

قال: "خير الله جبل، جبل، تطلعي فوق تلاقي أرض ماتجيبيش  
آخرها"

"يمين بالله مابضحك عليك يا صالحين، هاتشوفي بعينك  
وتقولي عم جمال قاللي!".

ثلاثة مطالع تربط خير الله بالعمار. مدق جبلي يربطها بجبانات  
البساتين والتونسي وأم نادية. مدق آخر يصلها بالسبع بنات  
والحلايف. أكبر مطالعها الثلاثة يصلها بمصر القديمة والجيارة،

كتلة حجرية صارت مع الزمن جسرا صاعدا يرتفع خمسين سنتين مترا فيما لا يتجاوز طوله ثلاثمائة متر، تسير فوقه سيارة الأنفار كذبابة خرجت من كوب ماء لتصعد جدارا أملس. يبدأ من نهايته شارع اسمه "الصيانة" يشق العزبة حتى آخرها، وفي أسفله موقف أجرة لصناديق معدنية مهترنة تشبه سيارات نقل الأنفار بالأقاليم من حيث العجلات الأربع والموتور الموصول بمحلول له رائحة بنزين يضعونه في جراكن فوق "الكبوت" يتدلى منها أنابيب بلاستيكية من بقايا أنابيب المحاليل الطبية المستهلكة.

"قريب هايعملو قطر يمشي تحت الأرض ويعدي البحر للجيزة، هايصرفو عليه مال قارون، بس هاخلي البلد زي اليابان، اللي بيعملو فيها البيوت بسُست، تميل في الزلازل وتقف على حيلها ثاني".

قريبا أيضا سيشقون طريقا دائريا يمر وسط خير الله وساعتها "يا بخته يا هناه اللي لحق وركب قيراط"، قال السائق.

وحلف يمينا غليظا وهو يحرك فتيس السيارة كمن يزيح همّا عن كاهله أنه لا يضحك عليها، ستتأكد بناظرها عندما يمرون فوق المطع وترى بقايا السيارات التي هوت أسفله وقد ظلت تذكارا حيا لمن يريد الاعتبار. تصعبت بممصصة شفاه مفتعلة، وتمتمت في سرّها أن ليتّه ما ينطق، رغاء لا يحتسب لموضع الكلمة قبل قذفها.

وتذكرت الأب الذي مات مكهربا يقول:

"الموت ما بيوجعش الميت.. يوجع الحي وحده".

كيف عرفت، وهل انوجعتَ عندما نشفت الكهرباء دَمَك قبل أن تتحوّل إلى قطعة فحم مشتعلة؟

لم يفكر أذ في بناء سور على جانبي المطلاع، مستقبلا قد يفعلون. قال السائق إن أخطر ما فعلوه أن جاءوا ليلا، ولولا اضطرابه للسفر صباحا وجه بحري لتوزيع برنيكة فراخ فيومي ما فعل. تمنّنت لو صفعته أو صرخت في وجهه، قالت: معلشي، وقالت: ربنا يستر طريقك.

لا تتذكّر أن ركبت سيارة. تتذكر فقط حين جاءوا بـ"ميكروباظ" أزرق كبير ذي باب جرار، انحسر داخله جيران الشارع، وأخذوها بينهم مع أمها لاستلام جثة أبيها من مستشفى مبرة المعادي بعد موته مصعوقا بالكهرباء في الفرن الآلي حيث يعمل لقاء يومية ثلاثة جنيهات و"جراية" خمسة أرغفة بيضاء يختارها بعناية ويخفيها تحت "النصبة" حتى انتهاء وريدته، أرغفة خبز افتقدت مذاقها منذ جاءهم خبره.

في المستشفى أرادت لو بكت وعنفتها أمها كي تحاول، "عشان الناس"، لم تفعل، ظنّوا أن الصدمة عملت لها لطفًا، وبعضهم قالوا صغيرة لا تعي بعد، أما هي فقد أقسمت لـ"الله يرحمه" ألا تبكي

حين يقع المكروه. وكان ذلك بعدما أجلسها أحد معارف المرحوم بين فخذيه يوما وشعرت بشيئه يتحرك تحت ملبسه وأنه لم يكن طبيبا. هرعت بعيدا وظلت أياما تبكي حتى قالوا ممسوسة، وعندما اكتشف "الله يرحمه" الأمر قال إنّ عليها أن تتعلم تعيش رجلا لتحمي ثلاثة يصغرنها. قال أيضا إن الواحد يخرج لا يعلم هل سيعود أم سيقضي تحت سيارة أو عجلات قطار أو بطاعون أزرق.

لكنه لم ينتبأ بموتة كهربائية نشفت دماؤه كما تنشف طاقة الفرن قطعة عجيب ليخرج رغيفا ملدنا. أمرها ألا تبكي حتى لا يطعم أحد في ضعفها وأقسمت له أن تفعل. وبعد سنوات قليلة نسيت أجفانها ملمس الدمع وحرارته. وصارت تواجه صعوبة في البكاء. فقط اضطرت أن تشارك، النسوان بعض اللطم والصراخ دون دمعة صادقة تغسل احمرار مآقيها.

\*\*\*

عبر زجاج شباك سيارة العزال النظيف شاهدت المحال وأضواءها النيون الملونة، الكورنيش ومراكبه النيلية ذات الأشرعة، عمارات المعادي التي تصيب من ينظر لآخرها بالدوخان، تابلوه السيارة المزدان بمفرش قطيفة صنعته زوجة السواق من جلابية قطيفة قديمة حرقتها المكواة تذكرتها صالحين وهي تختبر نعومتها

بأطراف أناملها، علبة مصحف صغيرة مزخرفة بداخلها سجاجيره البلومنت وولاعة غاز تمنّت لو جرّبت إشعالها، المؤشرات المضيفة التي لا تفهم منها شيئا، الفتيس الذي يتحرك في كل اتجاه بمناسبة وبدون.

ولم يمنعها نوم الصغير "محمد" في حجرها من لف البكرة الجانبية الثقيلة لإنزال الزجاج حتى آخره والسماح لتيارات الهواء الباردة بإزاحة طرحتها السوداء إلى الربع الأخير من رأسها. رحلة قصيرة تمت ألا تنتهي. رحلة الجندي في الطريق إلى الالتحام بعدو لا يعرف عنه الكثير ولم يستعد له كما ينبغي، دون مؤونة أو خط إمداد أو خطة انسحاب احتياطية، بعد دقائق ستنتهي الرحلة وتبدأ حياة جديدة.

أخبرها السائق أنهم على وشك. فقط سينعطف بالربع نقل من الكورنيش يمينا بعد مستشفى السلام ليعبر قضبان المترو قرب محطة الزهراء ومنها إلى مطلع العزبة، أخبرها أنهم لن يروا شيئا حولهم وهم يسيرون في قلب الظلام. الكهرباء، بعد، لم تصل خيرالله.

"امسكي نفسك يا بنت الحلال وقولي للعيال فوق العريشة  
يمسكو كويس محدش ضامن الطريق" خاصة عندما تظهر ربع  
نقل في الاتجاه المقابل فجأة بدون كشافات ضوء، ويضطر السائقان

المتقابلان لملاصقة حافتي المطلع ويصبح جانب سيارتهم الأيمن بعجلتيه الأمامية والخلفية معلقا في الهواء. سمعتُ عليَّ ومصطفى يصيحان في الصندوق الخلفي أعلى قطع العزال وناجي يعنفهما كاخ أكبر ألا يأتيا بحركات بهلوانية. اطمأنت أن أحدا لم يسقط. ولم تطمأن إذا ما كان الوابور أبو شرائط قطنية بحالته أم أتلفه هَبْدُ المطبات وأرجحة السيارة يمينا ويسارا كعجوز بدينة أكل الروماتيزم عظامها، كم مرّة حلمتُ بشعلته الزرقاء الهادئة، لا تضطر إلى ضَغْطِ كباسه وتسلّيك فونيته بإبرة ينكسر سنّها عند التسليك فينحرف مسار الكيروسين ليكرّف ما حوله من طعام.

\*\*\*



3

يا منجّي داوود من جالوت  
ويونس من بطن الحوت

يقولونها ويتركون للأيام قيادهم



تقطع السيارة رحلة صعودها مطلع الزهراء، وتقول صالحين إنها لو أخرجت كفاً عبر النافذة لأمسكت بقدمي ملاك يجلس على حافة السماء الأولى. بينما لم تُخَفِ سحب دخان سجاير السائق الكثيفة وترديده ما تيسّر من أدعية السفر، فزعه من مفاجآت الطريق وكاننات ليل الجبل. تشبّث بمقود السيارة وتقدّم بجسده حتى كاد يلتصق بزجاجها الأمامي، قال دون مناسبة:

"بيقولك بسم الله الرحمن الرحيم ما يطلعوش لحد لو عددهم يتقسم على اثنين، واحنا الحمد لله ست انفار"

تفرّست وجهه وأدركت أنه يرتعد قالت: "احنا خمسة محمد ما يتحسبش واحد"، وربّنت على صدر النائم في حجرها!

وصلت السيارة إلى المفارق ولم يظهر بصيص جلاباب أبيض يشقُّ ظلام الشارع. بعد ساعات يستيقظ الجميع على صوت حنجرة طلّتها أنفاس معسل الزغلول بطبقات من الجلسرين فخرج أذان الفجر عبر أحبالها الصوتية كأنه مشدود بالصمغ، يرفع السائق

رأسه عن المقود ويفرك عينيه، ليتحرك عدة أمتار مستضيئاً بأول خيط من خيوط النهار. بعد لحظات يظهر أبو ياسين ومعه جراه سيد العسكري و خليل يحيطون بالسيارة، يؤكدون أنهم قضوا الليلة بحثاً عنها، ولم تكن حين عثروا عليها تبعد عن البيت أكثر من حارتين.

تعلقوا على الجانبين، يمين طوالي في شمال في يمين. توقفوا لدى قطعة أرض مربعة غير مستوية بها غرفة مكتملة البناء تحيطها مساحة خالية تتناثر بها أكوام من الحصى والتراب، يمتد إلى منتصفها لسان صخري بارتفاع من متر إلى مترين.

يخبر أبو ياسين صالحين، وفي يده ألواح "مولة" السرير العريض، ألا تفزع من الصخرة التي تاكل نصف مساحة بيتها، فلن تحتاج -على الأقل- إلى شراء طوبة عندما يفتح عليها ربناً وتشرع في بناء غرف جديدة توجر الواحدة منها بثلاثة جنيهات شهريا وتصبح صاحبة ملك. فقط أن تستأجر حجارا ليقطع الصخور وبناءً ليستخدمها. وانتشت للفكرة وكم هو رجل طيب!

أنزلوا قطع الأثاث المتواضعة سريعا، أدخلوه الغرفة وغادروا مجهدين بعد ليلة طويلة في الطل. لم تشعل لمبة الغاز، مكتفية بخيوط النهار الأولى التي كانت قد بدأت تتمدد فوق بيوت خير الله وشوارعها ومساحاتها الخالية وتنسج لونا رماديا من بقايا حريق

أشعله فلاح غشيم بحقل أرز جاف. لا أصوات تتسلل من صخرة صمت أزليّ يتحرك ببطء نحو صدرها، صمتٌ لا تقطعه أرجل زاحفة نحو لقمة عيش أو سقسقة عصفور جائع أو نباح كلب سمران أو نقيق ضفدع أو حتى عرير صرصور تائه.

تمهّد مساحة مناسبة لنومهم وتعبّدها بالحصيم والتراب وتتمتم:

"يا نخلة هايقطعو الجريد.. قالت يفعل الله ما يريد"

أمثال ورثت أغلبها عن أمها وجدّتها المرحومتين، وتبرّع في تصريح كثير منها إذا نسيت أصلها، ولا تتذكر أين سمعت كثيرا آخر، أم كانت دُبجا على لسان مجهود.

فرشت حصيرتها ووضعت محمدا نائما وجاوره مصطفى وعلي، فيما دحرج ناجي حجرا كبيرا خلف باب الغرفة الخشبي بتفاريجه الواسعة التي يتسلل من بينها ضوء خافت لبدايات النهار، ليمنع اقتحام الباب في نومهم. الحجر الذي سيغدو مُذاك فردا منهم إلى أن يُدفن بعد سنوات في أساسات حائط جديد في سور البيت المطل على الشارع الخلفي.

ونامت صالحين خلف الحجر خلف الباب، بالجلابية والإشارب والشبشب البلاستيك الكريستال، ذابت كعمود ملح ناعم في رمال ساخنة، صارت صاحبة بيت لن تقف بدينة على بابه أول كل شهر تطالبها بالإيجار وتأخذ منها رهنا وابور جاز أو طشت الأمونيا أو

حلة نحاس حتى تدفع، ستنام على الأرض كما اعتادت وتأكل ترابا وتقضي سنينها بهدمتين ورثتهم عن المرحومة تبيع وتشتري حتى يبلغ أحد الأربعة ويعوضها، أو ربما التقطها ابن حلال ميسور يسترها وإخوتها حتى تراهم رجالا بشوارب. لماذا لا تأتي الأحلام الجميلة إلا في اليقظة؟

\*\*\*

يستيقظون، بعد ساعات، قبل أن يسقط سقف الغرفة مجهدا فوق رؤوسهم تحت ثقل كلبٍ أجرب لا تعرف كيف صعد في قبض يوليوي الحارق لينبش عبر تفاريج البوص والخشب فتتساقط على فرشهم عواميد عفار وأشعة شمس ألهمت أجسادهم، قالت:

"تعا جرررر!! استجاب الكلب وترك السطح قفزا ونباحا.

يزيح ناجي الحجرَ ويسمح للباب ذي الدفة الواحدة بالانفراج على آخره والاصطكاك بالحائط، يخرج ويتبعه علي ومصطفى، في مهمة استكشاف أولى لخيرالله، بينما محمد يتشبث بطرف جلابية صالحين التي تسارع بإخراج وابور الجاز الجديد وكيس شرائطه القطنية، وتشرع في تشغيله مبتهجة، بسلك رفيع تحشر الشرائط القطنية بفتحاته الضيقة ليتدلى الجزء الأكبر من الشرائط داخل طاسة الجاز وتظل أطرافها لأعلى. تملأ الطاسة من زجاجة

كيروسين وتغمس أطراف الشرائط العلوية حتى تتشربّه، تشعلها، تثبت فوقها الاسطوانات المخزّمة والحامل. نار هادئة زرقاء وصفراء بلا دخان وبلا صوت مزعج، تراقبها صالحين في سعادة، ها هي أمنية قديمة تتحقق، أمها عاشت وماتت بياجور بكباس له صوت موتور سفينة تخرج من ميناء، لا تكاد تشعله حتى تسألها جارة عينها وحشة:

**"مشغلة النار على إيه؟"**

بينما أبو شرائط قطنية لا صوت له. لا تضع شيئاً فوق ناره. فرَدتْ أصابعها لتشعر بحرارة لهبه التنظيف كأنها تختبرها، ملأت كفيها بالماء وطشّته فأطفت النار مع عامود دخان بُني أسال دموعاً حارقة في عينيها، أرسلت ناجي بطبق مقلّح ليشترى بعشرة قروش فول بدون زيت، وخرجت لاستكشاف محيطها، يعود ناجي بكبشتي فول محصرم بسوسة في قعر الطبق. تتناوله صالحين، وتدعو:

**"ربنا يزغده في إيدّه.. الحرامي"**

تجربة أولى تنبئ بأيام صعبة، تقول مواسية نفسها:

**"أكل فول، واخرج قفايا عرض وطول.. ولا اكل كباب، ووقفه**

**الديانة ورا الباب!"**

\*\*\*

أطل البيت على شارعين، أمامي وخلفي، يمتد حتى منتصفه طرف لسان صخري مرتفع. وهو ما سيجعل منسوب النصف الداخلي من البيت مرتفعا بشكل حاد عن النصف الأمامي، لدرجة تستلزم بناء طابق ثان له باب يطل مباشرة على الشارع الخلفي مقابلا لبيت زوجة شعبان وبطرسة التي تجلس دائما عند باب بيتها بانتظار انتهاء الحفر وخروج ابنها من تحت الأرض. تتفرس كل كائن حي يمر أمامها وتدون لحظة دخوله العزبة في سجل ذاكرتها المليونية.

أما الشارع الأمامي فأسموه الشارع البحري حيث بيت الشيخ يونس والعسكري وخليل الذي جعل من شباك غرفة نومه دكانا يبيع بالأجل السكر والشاي والمعسل والحلوى ولبان بم بم. وشونة نظرة وسريحته الملاعين الذين يسرقون البذرة من ثمرتها دون أن يחדشوا قشرتها. وبيت سيد عضمه الحداد الحماري وأبنائه عماد مطرب العزبة شبيه إيهاب توفيق وعربي الذي يستطيع أي غريب أن يقرأ تفاصيل تاريخ معارك ومشاجرات خير الله في وجهه، وأختهما هدى التي تمشي مع شبان بعلمهما. بينما يصطف في نفس جانب بيت صالحين بيت حسن الكتبي تاجر الورق والكتب الأعرج الذي لم يعلم أحد من جيرانه معنى "الله معك ومحمد وعلي" التي يذيل بها كل جملة يودع بها أحدهم.



وكان الشارع البحري منحدرًا لأسفل بشكل حاد تكسوه طبقة من الشقاف الأحمر والطوب والحصيم الداكن الملوث بشيء يشبه شحوم السيارات لم يعرف أحد مصدره، حتى الشيخ يونس أقدم سكان الشارع وخادم المسجد، مسجد الغلام والراهب، لا يعرف. ذات يوم قال: "أصلك الأرض دي فيها بترول زيها زي العراق" فأسماه البعض صدّامًا.

هكذا كانت تصطف البيوت: مساحات خالية في أحد أركانها غرفة مكتملة أو أكثر، ومساحات خالية بين الجار وجاره. لم يكن مسموحًا ببناء أسوار أو فواصل بينها قبل الحصول على إذن عظيم الضبع، الابن الأكبر للضبع الكبير الله لا يرحمه، أول من وضع يده على خير الله وما حولها مع جاهدة السودا الشهيرة بـ "أم الشهور" زمان، قبل أن يختصما ويتنازعا السيادة على المنطقة كاملةً.

كان على من يرغب في البناء في هذه الناحية أن يحصل على إذن الضبع أو أحد رجاله بعد دفع المعلوم نقداً أو صناديق بيرة وخراطيش سجائر.

وكان الضبع، عند بيع الأرض، حريصاً ألا يضع حدوداً واضحة بين الجار وجاره. اكتفى بأن يلتقط حجراً من بين قدمي الوافد الجديد ليذف به أمتاراً في الفراغ فيكون موضع سقوط الحجر هو

الحد الفاصل بينه وبين جاره، وعندما ظهرت المشكلات الحدودية بين السكان مستقبلا كان الضيع نفسه هو القاضي والحكم، ورسوم التقاضي التي يدفعها الخصوم هي معيار العدالة وصدور الحكم وتنفيذه في ذات الجلسة، استطاع الساكن أن يعيد ترسيم حدود منزله باقتطاع جزء من الشارع أيضا بعد أن يدفع. ما سيؤدي بعد سنوات لأن تتحول العزبة إلى مغارة لا يجتازها سوى أبنائها القدامى، ويصبح عرض الشارع لا يكفي لمرور سيارة ربع نقل أو الكارو التي تنقل البرسيم للأهالي يوميا.

ستصير المسافات بين البيت والبيت المقابل كافية لأن يسمع الجار ضراط الساكن المقابل، وأن يتدخل أحيانا في حوار ثنائي بينه وبين زوجته لفض اشتباكهما أو تذكير أحدهما بمكان غرض ضائع، أو طلب شوية ملح أو رغيفين فائضين عن الاستخدام.

\*\*\*

وهكذا كانت أيضا تضاريس العزبة: هضبة عالية شاسعة المساحة ذات حواف حادة من عدة جوانب تنحدر للدخل ثم ترتفع تدريجيا باتجاه منطقة السبع بنات والحلايف والخيالة.

وكان القمر الصناعي، بطبقه الأبيض البيضاوي الكبير، وجبل المقطم الرمادي تعلوه سحائب دخان أكثر رمادية، وقلعة صلاح الدين بقبابها الفضية، وأهرامات الجيزة، معالم بعيدة استطاع أخوة صالحين رؤيتها واضحة من سطح غرفتهم.

بينما كانت هناك معالم أخرى تنتشر في ربوع خير الله، بينها أبنية دائرية عالية قديمة التشييد، يصل قطر كل منها نحو عشرة أمتار، تعلو التبات البارزة أطلق عليها العزباوية "الطواحين". وبناء آخر مربع هندسي، ربما تجاوزت مساحته ربع مليون متر مربع، يجاوز ارتفاعه عمارة من ثلاثة طوابق. تعلو أسواره فتحات طويلة ضيقة تشبه فتحات رمي السهام في القلاع الحربية القديمة، يتوسط باحته الداخلية، بناء آخر مربع الشكل يخفي تحته بنرا جافة عميقة.

قالوا إنه إسطنبول عنتر. ورأوه في فيلم صلاح الدين وعيسى العوام وفرنينا جميلة الجميلات، حين التصقت بأسواره أبراج ريتشارد قلب الأسد، يتسلقها الصليبيون الغزاة، قبل أطفال العزبة العراة.

بعد سنوات طويلة. طويلة جدا. سيتوصل علي أثناء إجراءه تحقيقا صحفيا إلى حقيقة أن خير الله منطقة أثرية، مُحِيت آثارها حتى لا تضطر الحكومة إلى رفع مخلفات مجموعات من البشر يستوطنونها، فسمحت للصمصوم وقطاع الطرق باحتلالها وبيعها وإعادة بيعها للفقراء والمشردين والطامحين.

وقد أكد حسن الكتبي لعلّي يوما، وكان علي يساعده في تستيف ربطات ورق الدشت والجرائد القديمة، أن عنتر هو نفسه فريد شوقي في فيلم عنتر بن شداد للمخرج نيازي مصطفى عام ستين، الفيلم السينمائي الذي تم تصويره أيضا في خير الله، والحقيقة أنه لا علاقة بين الإسطنبول وبين هذه الشخصية التاريخية المعروفة. بينما أقسم الشيخ يونس بإيمانات المسلمين بأنه إسطنبول عنتر ابن شداد الله يرحمه، بناه لتخزين غنائم غزواته وحروبه بعد هجرته من الحجاز. وأقسم أيضا أن عنتر تزوج على حبيبته عبلة تسع نساء بينهن زنجيات!!

والأثريون الذين التقاهم علي قالوا إن الإسطنبول ليس إسطبلا، وإنما بارود خانة أنشأها محمد علي باشا بعد احتراق بارود خانة

بولاق التي أنشأت لصناعة الأسلحة التي استخدمها في حملاته العسكرية. أدارها إبراهيم باشا وبعض الفرنسيين وكان عمالها من السودان. والبناء الذي يتوسطه من الداخل ما هو إلا معمل بارود حفروا في مركزه بئرا لتوصيل المياه وملء خزانات الإطفاء.

أما الطواحين والتي رأوها متأخرا، عندما انتشرت وصلات الدش وشبكات إيه ار تي والجزيرة والشوتاييم، في أفلام كالمطارد لسمير سيف ونور الشريف عام 85، فلم تكن سوى خزائن غلال أقامها الفاطميون زمن المجاعة الكبرى في هذه البقعة الجافة بعيدا عن فيضانات النيل والرطوبة وبعيدا عن أيدي اللصوص وأفواه الجياع.

الطواحين التي هدمها النازحون إلى خير الله من بقاع البلد قبلي وبحري، دون أن يفكر أي منهم فيما أقيمت ولم اختير لها هذا المكان. هُدمت على فترات متباعدة وبنيت محلها بيوت لسكان جدد، وظلت طواحين قليلة على حالتها شاهدة على زمان غابر لم يتبق من أثره سواها. وكان أغلبها في منطقة عرفوها بتل الطواحين في طرف خير الله المرتفع المطل على حي الجيّارة. كان من بينها طاحونة اشتراها نصارى، واشتروا ما حولها من بيوت ومساحات خالية وشوارع، وشرعوا في بناء مجمع كنائس وخدمات أسموه "كنيسة الطاحونة" ومنها أيضا تلك الطاحونة التي سكنها أمين المجذوب في المفارق. ولم يجرؤ آدمي على الاقتراب منها سوى

عليّ وصديقيه مرة في مغامرتهم الخائبة لاكتشاف كنز اليهودي خير الله، ومرة أخرى عندما تسلل علي وحده بعد خروج المجدوب وحصل على بعض الجماجم. ومرة ثالثة عندما تأكد علي وصديقه من عدم وجود المجدوب داخلها فدفعوا باتجاهها كلبا أسود سعران في لهيب أغسطس ليهروا داخلها محتميا بفيئها، ليخرج بعد ساعات أبيض كطاقية الشيخ يونس الشبكية يترنح كالسكران ويسقط ميتا على بعد خطوات من بوابتها، وليفروا هاربين كما فروا من قبل عند رؤيتهم "للجناجم"، ولتظل العزبة لسنوات تتناقل قصة الكلب الذي شاب من هول ما رأى في طاحونة المجدوب وليقرر بعدها من ساورته فكرة هدم الطاحونة أو اكتشاف سرها إلا يشطح بفكره مرة أخرى ولم يشأ أي منهم محاولة تفسير زيارات المعلم الضبع كبير المنطقة للطاحونة دون أن يتأذى، مرة بصحبة جاهدة السودا رغم ما بينهما من سواد، ومرات بصحبة واحد من رجاله. كان مجرد ذكر الطاحونة كافيا ليتضرع الشيخ يونس مجاهرا: "يا منجي دواوود من جالوت يا رب"، ومرة: "يا منجي يونس من بطن الحوت"، وأخرى: "يا منجي الخليل من النار الزمهرير يا رب"، ثم يقرر إنهم غلابة، لأن زيارة الرجل للطاحونة غرضها إطعام سكانها الأخفياء فكيف يأذونه؟ هكذا فسرها، وكثيرا ما فسّر.

\*\*\*

4

إِلَّا الْقَخْبَ وَالسَّرِقَةَ..

فلوسهم نجسة، عدمها أحسن





ضحكة الشيخ يونس يعرفها الجميع. يكرر كموتور جرار زراعي عطلان نفدت بطاريته. ضحكة تجتاز به المسافات إلى الغرباء والغاضبين والأشقياء وولاد الحرام.

دائما هو أول زائري الوافدين الجدد. يقول إنه عمهم الشيخ يونس خدام بيت ربنا، وأنه من كان يؤذن للصلاة قبل قليل، أذان حجازي لا يجيده غيره من سكان خير الله. ولولا نفسه الذي قطعه دخان الزغلول لأسمعهم أذانا ولا المتشاوي في زمنه.

هو من استقبل صالحين وإخوتها. وهو من توسط لدى الضبع - المعلم الضبع، حتى لا تقلده وتنطلق اسمه مجردا فينالها أذى - ليمنحها قطعة الأرض بثلاثين جنيها. وهو من ساعد أبو ياسين في بناء الغرفة، حتى سقف البوص هو من وضعه بمساعدة خليل.

"خليل اللي فاتح الدكانة في شبك أوضة نومه.. هو طيب بس على نياته، فاكر بقرشين حلاوة هاي عملوه سوبر ماركا!".  
ويضيف: خليل سيأتي خلفه ليسلم عليهم مع زوجته المعصصة

بعد أن يصلي ركعتي السنة في الجامع لأنه حنيلي ويحب اللعب في المضمون.

سألها عن أسماء إخوتها وأعمارهم، عن والديها، وعن مصدر رزقهم، والدنيا التي رمت بهم في هذه الناحية. سأل وأعاد بعض الأسئلة كمن يدون الأجوبة في محضر رسمي. أجابت.

ساعد ناجي وعليّ في رفع الطوب وأكوام التراب المكّسة أمام الغرفة لتعبيد مساحة ستصير مذاك مدخلا لبيتهم. وتوافد بقيتهم. سيد العسكري في زيه الميري المتهدل والمتسخ، وابنه سعيد، يجلسان على حجرين مسطحين أصبحا مقعدين دائمين لمن أراد زيارتهم تاليا. وجاءت أم ياسين وزوجة العسكري وأجفان زوجة نظرة تاجر الروبايكييا. وكانت أجفان في مقتبل العمر، سمراء ونحيلة لا يتناسب حجمها مع حجم زوجها نظرة البدين، الذي أطلقوا عليه لقبه لرداذ يتطاير من فمه مع كل كلمة يتفوهها. والبنت هدى ابنة سيد عضمة حداد الحمير، وكانت في نفس عمر صالحين تقريبا، خمسة عشر عاما.

"تمشي مع الشبان لكن محدش شاف عليها حاجة وحشة"  
تقول أم ياسين.

فقط إصرارها على كمش جانبي جلابيتها بكفيها أثناء سيرها لإبراز رديها تعويضا عن ضمور ثديين سترك لحربي الحرامي

يوما مهمة تكبيرهما. تردد صالحين في سرها: "اعمل في كل شيء تلقى.. ماعدا القحب والسرقة".

وبطرسه جاءت أيضا، تجرّ خلفها مؤخرة تكفيها حاجة الشلت والكراسي، ما أن تنهض حتى ينادي الشيخ يونس متخابئا "البغلة سافة يا ولية" تضحك الولية وتنزع جلابيتها من قرار عميق كثيرا ما أثار فضول الشيخ.

وجاء خليل القصير المكير، كما ينعتة الشيخ يونس ظلما واقتراء، وزوجته المعصصة في يدها صينية "ميلامين" تحمل رسما لطبق فاكهة شهية، عليها براد شاي كبير وكوبان صغيران تناوب عليهما الجميع.

ومرّ متولي الخرار وابنه حسين بعربته الطنبور تنزّ من ثقب خلفي خيطا من ماء أسود نتن من فضلات أحد طرنشات العزبة وتبادل معهم السلام، وعينه مسلطة على السكان الجدد، مجريا في سريرته حسبة سريعة بضرب عدد أفراد البيت في عدد الوجبات المتوقع حصولهم عليها في عدد الأيام المتوقعة لامتلاء الطرنش. سيضطرون يوما لاستدعائه عندما تمتلئ الحفرة التي يفرغون بها زنقاتهم.

أعيدت نفس الأسئلة التي أجابت عنها صالحين الشيخ يونس قبل حضورهم، لكن الأخير تكفل بالرد على ما خبره من صالحين ليبدو

على معرفة بالوافدين الجُدد أكسبته وضعا في الجلسة.

أول أيام الساكن الجديد دائما هو الوقت الأمثل لاستجوابه وسير أغواره، في هذا اليوم سيحاول اكتساب أصدقاء ومعارف ونيل تعاطفهم، لن يرفض الإجابة أو يتحايل حتى لا يظنونه "إنف" أو "مايتعاشرش" فيتحسبون له، بعدها سيكتسب بعض المناعة ويتخلص من رهبة الاكتشاف وسيبادل السؤال بسؤال، ويتخابث قبل الرد على أسئلة بعد تفكير قصير في تبعاتها. في اليوم الأول للساكن الجديد سيحاول جاره الأقدم أن يبدو في الصورة التي يرغب في تثبيتها برأس جاره الجديد، وهي غالبا عكس ما يُعرف به بين بقية جيرانه، سيحاول أن يبدو ذا حيثية، كلمته مسموعة، ودودا، سيحكي عن أقارب له في الحوامدية أو صفت أو البراجيل أو غيرها، الصعابدة سيبالغون في الضغط على مخارج الحروف لتبيان انتماءاتهم، ويعمد آخرون لإخفائها حتى لا تطالهم السخرية ويطمع بهم أصحاب العزوة.

استطاعت صالحين بناء صورة للعزبة ذات معالم، والحياة التي تنتظر أن تعيشها مستقبلا، لا شيء يدعو للخوف ولا شيء يدعو للطمئنان. طالما كانت في حالها لا أحد سيدوس لها طرفا. فهمت. أما لقمة العيش فإن "رزق العبيط بالغبيط" وليس هناك أعبط منها، تستطيع تحصيلها بمشنة خضار على ناصية شارع، أو بمساعدة أجبان زوجة نظرة في شونة الخردة ترص الأغراض القديمة،

وتفرز المعادن، وتستف الورق، وتقف على الميزان المخسور  
تستقبل خرده السريحة المجلوبة من حيث لا أحد يعلم. أو بالنزول  
مع هدى بنت عضمة في ساحل الزهراء تساعد في تعبئة التبن  
أو تشوين الفاكهة والخضروات القادمة في سيارات عملاقة من  
أراض سوداء شمالا وجنوبا لتوزيعها على باعة لديهم سيارات  
نصف نقل وعربات كارو وتروسيكلات بعجلات ثلاث.

رزقها سيبحث عنها إن لم تبحث هي عنه كما قال الشيخ يونس  
قبل أن يستأذن لرفع أذان المغرب لأنها أمانة، مردفا:

"إنا عرضنا الأمانة على الأرض والجبال فأبين أن يحملنها  
وحملها الإنسان"

"راجل حافظ كتاب ربنا" قالت صالحين، دون أن يفارق محمد  
ذو العامين يدها خوفا من عقارب سوداء قالوا إنها تخرج من بين  
الصخور.

\*\*\*

تسال صالحين جيرانها، كمن يطلق استغاثة، عن الصخرة التي  
تأكل نصف البيت كأتب الأحذب، وعن الحفرة التي تفصل بين  
بيتها وبيت الشيخ يونس المقابل وتنشع قطراننا. يقترح خليل أن

تبنى فوق الصخرة كأنها لا تراها. فيرد الشيخ يونس سريعا: "مش بقولكو غبان وعقله على قده!" يقترح أن يأتي للصخرة حجّار يقطعها لتستخدم صالحين حجارتها في بناء غرف إضافية.

يرد خليل! "حجار يعني يحاسب بالميتر ويلهف لكُشة ونص الليل غير حلوان الضبع ورجالته؟"

وقبل أن تسأل صالحين عن الضبع ورجالته وحلوانهم، ينهض الشيخ يونس ويغيب دقائق ثم يعود حاملا جوالا قديما به شاقوف بيد حديدية ورأس مُدبّب الطرفين ومرزبة وصفائح مشرشرة ومسامير حديدية تشبه الأوتاد، يلقي بها وسطهم قائلا: "لا حجّار ولا طيز الجحش.. أهمن.. ناجي راجل وعلي راجل".

تهتف إحداهن محذرة "حرام عليك يا شيخ يونس.. أعربة تخرج من شقّ تلدع حد فيهم؟"

تنتفض صالحين: "قُطِعَتْ على دماغ صاحبها".

يسأل الشيخ يونس مستنكرا: انتِ خايفة من الموت يا صالحين؟ غلبانة! ده هو والرزق بينزلوا من فوق مباشرة. مشيرا بسبابته لأعلى.

تنظر صالحين وبقبتهن إلى فوق مباشرة حيث أشارت سبابته، بينما يتخذ هو وضعية أحد أئمة المذاهب الأربعة ويشرع يحكي، قال إن سيدنا سليمان كان ذاهبا إلى عرس أحد الأعيان فقابله ملك

الموت فسأله سليمان عن وجهته فأخبره أنه ذاهب لقبض روح العريس، فعاد سليمان حتى لا يتحول العرس في حضوره إلى مأتم، وفي اليوم التالي قابل والد العريس فعاتبه لعدم حضوره العرس فاندحش، استدعى سليمان ملك الموت ليعاتبه على هذا الفصل البارد، فأخبره بأنه كان ذاهباً ليقبض روح الرجل لكن عجوزاً سبقته إلى العرس وطلبت طعاماً، فأعطاهما ما كان لسليمان من طعام فدعت له بطول العمر فاستجاب لها الله وأمر ملك الموت بالعودة.

تنطلق صيحات خليل وأبوياسين وسيد العسكري واللهم صلِّ ع النبي، وحالة شرود وتدبّر في عظمة صاحب القوت والملكوت، يتوسّل العسكري للشيخ يونس أن يصدق بها مرة أخرى في خطبة الجمعة بدلا من قصة الغلام والراهب التي يصبّها الشيخ أبو عصام الطابط في أذانهم صباً منذ سنوات، يضحك الشيخ يونس في تواضع مفتعل. يستأذن ليرفع أذان المغرب ويعود بسرعة مدهشة ليجدهم تجمعوا على حصيرة أمام دكانة خليل واصطفوا استعداداً لصلاة المغرب في جماعة، كل منهم يدعو الآخر للإمامة. يستجيب أحدهم متطوعاً.

بعد ركعتي السنّة يلتفون حول الجوزة، يلتقط أبوياسين مبسمها أولاً لتشغيل "الكوالح". بعد نفسين طويلين تشتعل الأجزاء المنطفئة من الحجر ويمتلئ الجزء الفارغ من المياه داخل البرطمان بالدخان،

يبدأ الأخير في السحب على طريقة عازفي الساكسفون في لحن أوبرالي مركّب. أنفاس متقطعة قصيرة سريعة يليها نفس طويل ثم نفس أقصر إيقاع متغير من مقام موسيقى واحد. يشتعل الحجر ويبدأ طواف الجوزة ومبسمها فوق أفواههم، يكتفي كل منهم بدعك طرف المبسم في باطن كفه أو في صدغه قبل أن يضعه بين شفتيه ويسحب.

يطلب الشيخ يونس من خليل أن يحاول تشغيل تلفزيونه الناشيونال 12 بوصة فيخبره أن البطارية مازالت فارغة وفي حاجة لمن يعيد شحنها. تمر فترة صمت تسبق فتح الموضوع الرئيس للجلسة والذي غالبا ما سيكون استفسارا من أحدهم استنكاريا أو تعجيبا أو سؤالا حقيقيا يبحث صاحبه عن مشورة، ولم يكن من شك أن تكون الوافدة الجديدة وإخوتها الأربعة هم موضوع الجلسة والجلسات التي تليها، صالحين البنات ذات الخمسة عشر عاما التي تجرّ أربعة صبيان في ذيلها دون قريب أو كبير أو معيل.

أبو ياسين دائما هو الأكثر إجابة للدخلة. يعرف كيف يثير موضوعا بمسّه من بعيد ليترك للأخرين الولوج إلى تفاصيله دون أن يبدو متطفلا حشريا أو متورطا في غلط بحق أحد. ينتظر حتى يحين دوره ويتناول مبسم الجوزة الخشبي، ويمسحه في طرف جلابيته، وبعد نفس أو نفسين، يقول:



"إلا بصحيح هاتعملو إيه في معجنة القطران اللي بينك وبين صالحين يا شيخ صدام؟"

يكركر الشيخ يونس، وكان الصدام هو الاسم الذي أطلقه عليه جيرانه لحبه لحاكم العراق آنذاك، وتأكيديه أن أرض العزبة تنشع بترول، مستخفا بالسؤال "يعني هجيب الكراكات واطلع البترول يا غلبان.. أهي نسيرها تشف لحالها قبل ما الحكومة تيجي تشفطها".

\*\*\*

بيت الشيخ يونس كان - قبل أن يبيع نصفه - الأكبر مساحة بين بيوت الشارع، لم يدفع من ثمنه مليما.

ذات يوم لا يذكر تاريخه مرّ على خير الله قادما من مكان ما دون أن يقصد آخر. قادته قدماه إلى الضبع الكبير فسمح له الأخير بالبقاء أيام كان مجموع بيوت العزبة لا يجاوز أصابع اليدين، وكان ذلك مدعاة لفخره لبقية حياته.

جسده الضئيل ولحيته الكثّة أوحيا للضبع بأنه يعرف الله، وكان الضبع الكبير في حاجة إلى أحد يعرف الله، لا ليذلّه إليه، وإنما ليقول لله إنه قدّم السبت وأكرم واحدا من أحبائه بانتظار الأحد.

منحه قطعة أرض في الشارع البحري وقال له "ادعنا يا شيخ يونس!" فأصبح مُذاك شيخاً، استلقت مسبحةً معدنية قديمة تسع وتسعين حبة من سوق الشافعي، صارت تصدر صوتاً مسموعاً ذا إيقاع رتيب، صنوبر مياه سقطت جلده، اعتادت الحركة فأصبحت حباتها تصدر الصوت من تلقاء نفسها. أمره الضبع الكبير ببناء مسجد على اسمه "حاجة نقابل بيها ربنا يا شيخ يونس" أصبح الاسم لاحقاً مسجد الغلام والراهب.

طاف الشيخ يونس بيوت العزبة المتناثرة مع بعض رجال الضبع لجمع تبرعات إجبارية لبناء المسجد. من لم يملك، أدفعوه حصيرة أو شيكارة أسمنت أو قطعتي خشب. المعدوم أخذوا منه جركن مياه حتى لا يفوته الفضل. الجميع شارك عدا بيت عبد الجواد قرب "الملعب" لم يطالبه أحد بالمشاركة، كما لم يسعَ هو لنيل الفضل تقرباً أو زُلفى.

عبد الجواد صاحب مغلاً الخشب جاء العزبة قبل موت الضبع الكبير، وأحاط قطعة أرض بسور من الطوب الأحمر دون إذنه، فأرسل إليه رجاله أبوتلاتة وحنفي وصندل وهدموا السور، مهددين إياه بتصفية دمه إنه هو كررها. طلب وقتاً لتدبير المبلغ وبعد ساعات فوجئت العزبة بثلاث سيارات نقل محملة بصعايدة مدججين بالأسلحة يغلقون الملعب والشوارع المؤدية إليه، يصيحون:

## "يا عزيمة نتايات مافيهاش دكر".

ولم يظهر من يعترض، ذكرا كان أو أنثى. بل ظلوا، جميعا، يتلصصون من خلف الأبواب والشبابيك غير مدركين ما يجري. أخو عبد الجواد يمتلك محل جزارة في البراجيل وأبناء عمومته يسكنون في مناطق قريبة، منها منطقة أم نادية التي تسيطر عليها "جاهدة السودا" استدعاهم لتظاهرة استعراض عزوة حتى لا يركبه الضبع ورجاله فتكون عارا في جبين "الصوامعة" مركز إخميم، موطنهم الأصلي.

## "أحنا مش حلب يا نسوان.. إحنا صعايدة أصل وفصل".

لكن معركة لم تبدأ بعد أن اكتشف الفريقان أنهما بلديات وكان الضبع من مركز "جهينة" وكلاهما سوهاجية.

تنازل الضبع عن حصته إكراما لبلدياته بينما قام عبد الجواد بشراء صناديق بيرة وخراطيش سجانر ولفائف حشيش تساوي قيمتها المبلغ الذي كان يجب أن يدفع ثمنا لقطعة الأرض. وخرج الجميع راضين مرضيين بعد أن اكتسب كل من الطرفين عزوة جديدة إلى عزوته ضد مجموعات أخرى ستظهر كل منها يتمتع بنصرة قومية لنصرة بلدياته طالما أو مظلوما.

بخلاف بيت عبد الجواد، لم يكن الشيخ يونس مضطرا للحديث عن فضل المشاركة في بناء مسجد ومفحص القطة طالما كان

على يمينه حنفي وعلى يساره أبوتلاتة رجلا الضبع يصدقان على كلامه بخاتم رسمي من "زُقْلَة" مدببة بالمسامير تكفي ضربة منها لإسقاط بغل دون أنين، لكنه أصر أن يحكي عن ملك من زمن الصالحين أمر بتشيد بيت لله كقصور الملوك لا يضع فيه غيره سهما، وعندما اكتمل البناء - وكان من أعاجيب زمانه - أمه العباد من داخل المملكة وخارجها، وذات ليلة رأى في منامه قصرا في الجنة يطير في أرجاءه كالنسر المجنح إلا غرفة واحدة اصطكت بها أجنحته وسقط على بابها عاجزا بلا حراك، قالت له الملائكة إنه جناح تملكه العجوز فلانة بنت فلان، وعندما استيقظ أحضر البنائين ليسأل عن تلك العجوز فلانة بنت فلان، فأخبره أحدهم أنه كان يضع حجرا في الحائط أثناء البناء فسقط، فناولته إياه عجوز تسكن في كوخ قريب، ذهب إليها الملك وأخبرها أن الله كتب لها غرفة في قصره بالجنة وطلب شراء غرفتها بملكه في الدنيا. وتنقطع القصة فجأة فلا أحد يعرف هل باعت العجوز حصتها أم رفضت، لكن أحدا لم يسأل!

كانت القصة مياها باردة في صدور من بحثوا عن صندوق نذور يضعون به الإتاوات دون أن يضطروا لطأطأة رؤوسهم أمام الابن أو الزوجة، بل تمنوا لو حمل إليهم الشيخ يونس صندوق النذور نفسه عند كل شروع في جمع إتاوات، فقط كحفنة بُن تُوَقَّفُ نزيف الكرامة المهذرة دون داع.

وجمع الشيخ يونس وحنفي وأبو ثلاثة مبلغا محترما كان كافيا لأن يشتري ثلثاه عشرة صناديق بيرة ولوح ثلج كبير، بينما الثلث الأخير كان كافيا لملا سيالة الضبع بالنقدية، قال الشيخ يونس: إن الله يغفر الذنوب جميعا. وحب لأخيك ما تحب لنفسك، ده حديث..!

وطلب منه الضبع أن يتصرف لاستكمال بناء المسجد الذي لم يبدأ ببنائه بعد، لأنه بيت ربنا! تصرف الشيخ يونس. جلب براميل الصاج من شونة نظرة، وشقها طوليا بواسطة "كذلك" حدادي، نزع قعورها وطرقها حتى صارت مستطيلات مستقيمة استخدمها كأبواب وشبابيك، بينما غطى السقف بحصائر من البوص الرفيع والخشب، ثم غطاها بالمشمع البلاستيك وورق الكارتون، ثم غطاها بطبقة سميكة من التراب، وكانت تلك هي طريقة "التعريش" المثلى في خيرالله، الطريقة التي أرشد إليها الشيخ يونس، متطوعا، السكان الجدد، ومنهم صالحين، قبل ظهور الخرسانة والمُسلح.

في البداية يتم تثبيت عروق خشبية أعلى جدران الغرفة كدعامات، وعند بيع البيت أو نقل ملكيته فإن عدد العروق يعتبر من عوامل تحديد سعره بعد المساحة واتساع الشارع وطبيعة البناء طينيا كان أو أسمنتيا، حجرا أو طوبا أحمر.

فوق العروق تثبت ألواح الخشب ويُسد ما بينها من فراغات،

بعدها يمدّ المشمع والكرتون باتساع السطح لمنع تسريب الأمطار والغبار عبر الثقوب، وفوق المشمع توضع طبقة تراب سميكة، وكثيرا ما كانت طبقة التراب تلك سببا في قيام مشاجرات عديدة بين السكان، خاصة عندما يضطر أحدهم لتجريف الشارع واستخدام ترابه في التسقيف. بعض المستريحين يغطونها أيضا بالأسمنت لامتصاص الحرارة وتشرب مياه المطر.

(عندما قرر خليل تحويل شباك غرفة نومه المطل على الشارع إلى دكانة، وشرع في تعريشها بالصاج والصفيح، أضحك عليه الشيخ يونس أمة لا إله إلا الله، غشيم، الصاج يحول الغرفة إلى فرن حراري في أشهر الصيف، وثلاجة إيديال في الشتاء).

أكمل الشيخ يونس بناء المسجد سريعا، وبدت حوائطه كراقصة يتلوى جسدها على وقع طبلة مزعجة، لم يحدّد للقبلة اتجاها، ولم يتخير موضعا للمنبر. كما نسي تخصيص مكان لدورات المياه. لكنه مع ذلك بادر بإبلاغ المعلم الضبع الكبير لنيل البشارة، وقال المعلم مبتهجا أن قصره في الجنة يطل على ناصيتين وميدان كميدان التحرير. لكن "صندل" مرشد المباحث الذي يجلس دائما تحت قدميه يرص أحجار الشيشة بتفان وإخلاص، بادره متسرعا:  
**ياما قصور خربانة وخرابات عمرانة يا معلم.**

صندل دائما مدبّ يلقي بالكلمة دون أن يحتسب لموضعها ولا

أحد يعرف هل يمرّر مقاصده في هذه الكلمات أم يتحدث بسجية نظيفة. تساءل الضبع متشككا:

يعني إيه يا بجرة.. أبجي أحتكم على جصر ف الجنة، وأني جاعد في جهنم.. عازته إيه؟

فشل الشيخ يونس في منحه ضمانات دخول الجنة فقال:  
يا منجي البعوض من النمرود يا رب!

اقترح أن يبادر الضبع نفسه بافتتاح الصلاة في المسجد لتثبيت الأجر. ذهبوا. جلب لهم جرّك مياة للوضوء. توضأوا وكل منهم يحاول الاقتباس من الآخر. انتهوا وجلسوا يتبادلون النظرات في حيرة. بعد ساعة نهض الضبع، فنهضوا، واصطفوا خلفه وصلوا، لكن أحدا لا يعلم أي فرض صلّوه.

ظل المسجد مفتوحا دون رواد، وبعد منتصف نهار صيفي طويل مر رجل منياوي جاء العزبة للبحث عن ابنته التي اختطفت في مولد السيدة الطاهرة زينب وقيل له ابحت في خير الله، وعندما حل العصر وقف أمام باب المسجد وبرم كفيه أمام فمه بوقا وأذن عاليا. اكتشف الشيخ يونس أن لا أحد يصلي لأنه لم يكن يؤذن، فقرر أن يفعل مستعينا براديو ترانزيستور استولى عليه أبوتلاتة مع ميكروفون 200 أوم من أحد باعة سوق الجمعة بالإمام وأمره

الضبع بمنحه للشيخ يونس لاستخدامه في المسجد مع بطارية تعمل بمية النار.

وبعد عدة سنوات سمحت له جاهدة السودان، دون علم الضبع، بتوصيل فردة كابل كهرباء من منطقة أم نادية التي تقع تحت سيطرتها لإنارة المسجد. وأخبر الشيخ يونس الضبع بأن الوصلة مسروقة ولا تعلم بها جاهدة ولا رجالها، وقوتها الضبع متيقنا أن لا أحد يسرق أم الشهور الشهيرة ب"جاهدة السودا" والحقيقة أن جاهدة السودا أعطت يونس بكرة كاملة بها 400 متر كابلات 2 بوصة، استغل خشبها في تركيب منبر للمسجد ومنضدة صغيرة لغرفته.

كهرباء جاهدة السودا أيضا كانت مسروقة من علبة كهرباء الخيالة لكن بعلم الحكومة.

وصار ميكروفون المسجد مصدر رزق الشيخ يونس، بعد أن استخدمه كإذاعة داخلية يعلن من خلالها عن زائر يبحث عن ساكن من سكان خير الله، طفل تائه، بهيمة شاردة، خروف ضال، نفخة واحدة في كريستالة الميكروفون كانت قيمتها من خمسة قروش إلى ربع جنيه دفعة واحدة. وكان مما أذاعه الشيخ يونس عبر الميكروفون خبر وفاة الضبع الكبير مدهوسا بسيارته الربيع نقل مع أحد رجاله تحت رافعة بلدوزر في وادي النطرون دون أية تفاصيل



تشرح كيف ومتى ولماذا؟ لكن الشيخ يونس ظل يعدد مآثره حتى انفجر في وجهه خليل ذات قعدة جوزة أمام دكانته:

جرى إيه يا شيخ يونس.. لما تاوته المقبرة بقي تحتته وفوقيه سُكْرَة؟

هو حد فينا مادعاش عليه ربنا ياخده؟

بينما نهض سيد العسكري متسللا من جانبه بحجة دخول دورة المياه حتى يخوضوا في حديث غيره.

كما أذاع الشيخ يونس عبر ميكروفونه خبر زواج عظيم ابن الضبع من "كَبْر" التي لا يعرفون لها أصلا من فصل، وذلك قيل مرور أربعين والده بحجة أن المرحوم زاره في منامه يحثه على الزواج ليفرح به في تربته، وكان ذلك هو خبر الزواج الوحيد الذي أذاعه المسجد، لكن أغرب ما أذاعه كان خير وفاة أحد السكان من الفشن بني سويف، معلنا أن الصلاة عليه والجنابة بعد انتهاء مسلسل ذئاب الجبل مباشرة. في ذلك الوقت كان ميقات ناس العزبة مرتبطا بعرض المسلسلات، قبل وبعد أو أثناء، خاصة خلال فترات عرض مسلسلات بعينها مثل أهلا بالسكان، وحكايات هو وهي، وبرج الأكابر، وأنا وانت وبابا في المشمش، في بداية التسعينات حتى الفرسان والمال والبنون وعصفور النار ومين اللي ما يحبش فاطمة.

وكان الشيخ يونس في مواعيد الأذان مزاجيا، لم يكن يؤذن للفجر قط، وكانت صلاة المغرب تقام غالبا بعد مسلسل القناة الثانية وصلاة العشاء بعد مسلسل القناة الأولى حتى جاء الوافق الجديد ببدلته الميري ليتولى - بأمر الضبع - إمامة المسجد ويوكل إلى الشيخ يونس مهمة الأذان والإقامة والتنظيف.

\*\*\*

5

هايبعوها شبر شبر وقيراط قيراط

"سكانها كالنبت الشيطاني لا جذور لهم في تربتها"



قال الشيخ يونس إنه سيعلم ناجي حاجة لله. سيعلمه تقطيع الصخور حتى لا يضطرون لاستئجار حجار لتكسير ذلك اللسان الصخري الذي يأكل نصف البيت كأطب الأحدب. ولم تُبدِ صالحين ممانعة.

جلب الشيخ يونس "شاقوفا" برأس حديدية ثقيلة مدببة من الجهتين، وقال إن على ناجي أن يقبض عليه بيده اليسرى قرب الرأس واليمنى خلفها، وأن ينظر إلى موضع الضربة ويوالي الضربات بالسنان المدبب حتى يصنع تجويفا طويلا عميقا نحو نصف شبر يكفي لحشر صفائح حديدية مشرشرة، يثبت داخلها مسامير غليظة ويدق فوقها بالمرزبة حتى تنغرس فيكون ذلك إيذانا بشق الصخرة. قال إن عليه أيضا أن يتخير الموضع الذي سيحفر فيه للصفائح والمسامير بحيث تكون بين أعصاب الحجر، وألا يكون الجزء المراد شقه كبيرا حتى يسهل تحريكه بعد فصله عن الصخرة الأم.

مرت الساعات وشعرت صالحين بالكسوف يأكل وشها، فلم تقدّم كوب شاي للرجل يبيل ريقه، بينما كان عليّ يساعد أخاه في كل مرة يترك فيها الشاقوف من يده ليلتقط نفسا ويحرك أصابعه المتيبسة، بعد كل ضربتين ثلاثا يتحسّس عليّ عضلات ذراعه ليقيس كم كبرت!

تحوّلت بشرتهم جميعا إلى اللون الأبيض حتى اختفت ملامحهم تحت بودرة نثرات الحجارة التي تطايرت في كل اتجاه. بدت الحفرة -أخيرا- كافية لاحتواء الصفائح. انضم الجيران خليل والعسكري وأبوياسين، وتبعهم حسن الكتبي بصينية شاي فوقها عدد لا نهائي من الأكواب ذات النقشة الذهبية أشعرتهم جميعا بالغبطة وأمدتهم بالطاقة والحماس، اقترح خليل أن يصنعوا حفرة أخرى قريبة لأن الصخرة كبيرة ولن تنفلق بمدماك واحد وكانت الفكرة كافية لتثبيط همّة ناجي وعلي والشيخ يونس نفسه، فقال الأخير:

**"غلبا ان هم يادوبك دقتين اتنين وهاتشوف!!".**

وضع مسمارا جديدا ودقّ فوقه برفق حتى غطس ثلثه بين الصفائح، عرض العسكري المساعدة فرفض الشيخ يونس وعرض خليل وناجي فرفض مؤكدا إن شق الجيب "عايز مَعْلَمَة" ثم أنه رفع المرزبة بعزم وهب بها على رأس المسمار فغطس لأسفل بينما طار المسماران الآخران أحدهما في نافوخه والآخر في صينية

الشاي. أصيب. ونشعت طاقيته الشبكية البيضاء بقعة دماء أخذت تتسع. جلب الكتبي كيس بُن وكَبَسَ موضع الإصابة وربط عليها بقماشة بالية حتى توقف النزف. أعطته صالحين كوب ماء بالسكر وهي تردد بصوت خفيض سمعته بطرسة وقععت ضحكا:

**"شيلوه معزة زرط.. قال أنا مولف على شيل الجمال"**

قرب كوب الماء بالسكر دفعة واحدة وظل ممسكا بالكوب كتذكار لمذاق طيب، حاول استعادة ضحكته لتخفيف وطأة الموقف، لكن خليل الذي لم يفوت له هفوة دون تعليق قال: "عورت المسمار يا شيخ يونس"

الجميع شعروا بالتعاسة عدا علي، فقد كان الوحيد الذي أمسك كوب الشاي خاصته في يده ساخنا، بينما الآخرون تركوه في الصينية التي أسقطها المسمار الطائر حتى يبرد!!

وقبل أن تصدر صالحين فرمانا بحظر لمس الشاقوف من هنا ورايح، يعتلي ناجي الصخرة ويعيد المحاولة، يضع المسامير في مكانها في غفلة من الجميع ويدق برفق ضربات متالية، فيتغير الصوت كأنه أنين مكتوم صادر من بطنٍ خاوية، ينتبه الشيخ يونس ويطلب منه الضرب بقوة فلا يستجيب، يقترح خليل أن يضع مسمارا أطول إلى جوارها فلا يجيب أيضا، تتوالى ضرباته بوتيرة

واحدة حتى يصبح لوقعها صدى مغناطيسيا مميّزا، يضرب على جانبي المسامير كأنه يصنع لها براحا داخل التجويف الصخري الضيق. يتبادلون النظرات. يواصل ناجي ضرباته فوق رؤوس المسامير. فجأة يظهر شرخ كبير بطول الصخرة كبرقٍ أومض بين سحابتين ربابتين تتبان بمطر، تطلق أجفان زوجة نظرة شهقة جعلت أم ياسين تكّتب بأصابعها الخمسة في وجهها وتتمتم بسورة الفلق، بينما صالحين تطلق زغرودة لا تعرف سببها استدعت إليها بقية سكان الشارع والشوارع المجاورة.

وأصبح ناجي منذ اللحظة ناجي الحجّار.

ابتاع بمساعدة أبو ياسين والشيخ يونس عدةً جديدة من سوق الإمام الشافعي، مستعينين بجارهم شعبان الذي كان ذبونا وبانعا بالسوق إلى جانب عمله في مصنع الأسمنت. حتى الحجّار الوحيد الذي كان يستعين به العزباوية من منطقة الجيارة لم يعرف كيف كانت تخرج الحجارة من تحت يد ناجي مستوية على نحو لا تحتاج معه إلى استبدال عند استخدامها في البناء، الشيخ يونس اعتبرها كرامة وقال لأحدهم لا تسأل عن أشياء إن تبدُّ لكم تسؤكم. بينما هو نفسه يسأل ناجي لماذا يضع أذنه فوق الصخرة بعد كل مجموعة ضربات كأنه ينصت إلى سرها. وعندما لم يتلق إجابة أسرَّ إلى صالحين بأن تستدرج أباها لمعرفة السرّ.



كان ناجي يلصق أذنه بموضع الضربات بين الحين والآخر كابن بار يستمع لوصية أبٍ يحتضر، بل ويتبادل معها الهمس أحيانا. في هذه الأثناء ترسم انطباعات متباينة فوق ملامحه، حزن وفرح وتساؤل ودهشة وغضب واستفهام وتعجب. يرجح الشيخ يونس أنه ملبوس بعفريت يسكن الحجر، وينهره خليل مؤكدا أن ناجي لا يفوت فرضا، والعفاريت لا تسكن إلا الأرواح الضعيفة.

ذات يوم سأله صالحين بتوجس بدافع من جاراتها والشيخ يونس فقال إنها تهول، وأنه لا يفعل شيئا مما تقول. وبدا صادقا في ادعائه. واستمر ناجي في مهنته الجديدة لأعوام. وما حصله كان كافيا لسد احتياجاتهم القليلة لولا اضطرار صالحين لدفع شهرية معتبرة لرجال المعلم عظيم الضيع دون علم ناجي.

اشترت سرير صاج جديد بقوائم حديدية وكليم مقلم بنقشة، وكلوب غاز براتينة شبكية تعطي ضوءاً أبيض كضوء النيون. بينما اشترى ناجي ثلاثين كيلو خشب قديم من مغلاً الأخشاب القريب من أرض الملعب، لاستخدامه في إنشاء "كبانیه" حفروا له في أقصى زاوية في البيت حفرة بعمق مترين، ثم غطوها بالخشب، مع الإبقاء على فتحة دائرية مدعمة بعرقى خشب تسمح بانزلاق الفضلات إلى الحفرة، ثبتوا على جانبيها قالبى طوب أحمر يحملان قدمي الجالس فوقهما.

وانتظر متولي الخرار سنوات طويلة لكي تستدعيه صالحين لنزح هذه الحفرة ولم تفعل، وعندما أسرّ متولي للشيخ يونس بالمسألة مؤكداً أن حساباته التي لا تخر قطرة تقول إنّ طرنش صالحين يجب أن تمتلئ بعد نحو ستة أشهر إذا امتدت فعام على الأكثر، وأجاب الشيخ يونس أن صالحين وإخوتها أمورهم ريبانية وأنتك يا متولي غلبان تبحث عن لقمة عيشك وتحسبها بالجردل والنقلة بينما يسيرها ربنا بحسابه. فيما كانت الأرض، حول فتحة صرف الكبانيه، تتشرب ما يلقى إليها من فضلات كالمضطر إذا أكل الجيفة، بعد أن تجاهل ناجي عند حفر الطرنش تبطينه من الداخل بمادة عازلة تمنع تسرب بقايا الأطعمة غير المهضومة وإفرازات معداتهم وأمعاءهم ومياههم المالحة عبر تربة خير الله.

\*\*\*

ولم تجد صالحين نفسها مضطرة للعمل، على الأقل إلى أن يسير محمد على اثنتين، وعندما اختفت الصخور تدريجياً خلف الحوائط التي بنيت أمامها، وكسدت مهنة قطع الحجارة، جمع ناجي بعض أغراض قديمة لبيعها في سوق الجمعة، واشترى مجموعة من جراكن بلاستيكية، ربط كل اثنتين منها بحبل مزدوج، ووضعها متقابلين فوق حمار استأجره من سيد عضمة، جارهم

حداد الحمير. وانطلق به إلى حنفية مياه بعيدة لتعبئة الجراكن والعودة لبيعها في خير الله، باع الاثنين منها بخمسة عشر قرشا. فقط مشكلتان واجهته وأعاقتا انتشاره، الأولى رفع وإنزال الجراكن المملوءة عن ظهر الحمار. والثانية كانت الثقوب التي ملأت حواف الجراكن البلاستيكية وزواياها جرأ الاحتكاك وأدت إلى تسرب المياه ونقصان منسوبها بداخلها واضطراره لبيعها، أحيانا، بنصف الثمن. لكنه بعزيمة جبل يصد الريح عن سفوحه، كان يحمل النقل كله وحده. يرفع الجركنين معا ويلقي بهما على ظهر الحمار مطلقا زفرة تجذب الأعين وتشد الانتباه. ولم تترك الجراكن فوق كفيه وساعديه أكثر مما تركت الصخور والشاقوف المدبب من خشونة في جلده وسحجات ستظل تذكارات حية رغم مرور زمنها. أما الثقوب فلجأ إلى حرق أكياس بلاستيكية قديمة وإذابتها فوقها لسدّها مؤقتا واستبدال الجراكن القديمة بجديدة حين يفرجها ربنا.

لاقى بيع المياه رواجاً، وصار مهنة رئيسية من مهن خير الله، وتساءل بعضهم لماذا لم يتبادر إلى ذهن أي منهم فكرة مماثلة. كما صار شراء المياه أساسياً، وصار مشهد الحمار واقفا على عتبة أحدهم بالجراكن الأربعة علامة وجاهة.

يقول أحدهم: "برضك مايصحش الولية تنزل تجيب المية من آخر الدنيا على راسها".

وعندما ارتفع سعر الجركن إلى خمسة وعشرين قرشا نزلت "الولية" وحملت المياه من آخر الدنيا على رأسها.

أسابيع قليلة وتحولت العزبة إلى عربخانة كبيرة ذات شوارع وحرارات. ونمت أعداد الحمير والبغال وأحصنة الجر، وأصبحت زيارات بائع البرسيم مرتين يوميا بدلا من زيارة واحدة كان يجريها على مضض، صباحا ومساءً. ضاعف سيد عضمة أجرة حماره الذي يستأجره ناجي، ثم ضاعف الضعف، في النهاية طلب استعادته على الرغم من امتلاكه ثلاثة حمير أخرى. بعد أن قرّر إجبار ابنه البغلين عماد وعربي على ممارسة المهنة، وسرعان ما استقال ناجي بالحاح صالحين، بعد أن لطمت خديها بفردتي شبشبها الفليني مولولة أن بكرها الذي تعده لأن يكون أستاذا ببدلة نظيفة وحقيبة يد سامسونايت، وبعد أن حجارا تلين بين يديه الصخور وتتشقق، ويأخذ أجرته بالمتر نصفها مقدما والآخر بعد أن ينتهي، صار عربجيا يزامل سريحة نظرة، وأبناء عضمة. يعود نهاية كل نهار كضفادع البرك محرشفا بطبقة طين وملابس بليلة بالمياه والعرق. امتثل ناجي ليلتحق سريعا بطائفة المعمار مستعينا ببعض البنائين والمبطين من سكان خير الله الذين يعملون خارجها.

فيما فشل الأخان عماد وعربي عضمة في نقل جراكن المياه، كما فشلوا في كل مهنة امتنهاها. فقد تعمدا عند ملئ الجراكن بالمياه ألا يتجاوز منسوبها حزّ المنتصف ليسهلا على نفسيهما رفعها

وإنزالها ادخارا لعافيتهما، ما نَفَرَّ عنهما الزبائن وورطهما في مشاجرات صاخبة فقَرَّرا إتلاف الجراكن بثقبها وبعج مقابضها حتى لا يضطرهما سيد عظمة للعودة.

أحدهم أخبر عماد - في ساعة سطل - إنه يشبه المطرب إيهاب توفيق، لكن هذا الـ"أحدهم" لم يخبره أنه كان يقصد شيئا من جحوظ العينين، اكتشف في ذات اللحظة أنه صاحب صوت طربي أصيل، وأنه - وإن كان قريب الملامح من إيهاب توفيق - فهو أقرب إلى حسن الأسمر في مواله "كتاب حياتي يا عين" وبعد سنوات قليلة يؤلف فرقة موسيقية يقودها أخوه عربي عظمة بألة عزف إيقاعية لا يعرف اسمها. يتطوع لدى أصحاب الأفراح والطهور وليالي الحناء لقاء نقوط تسقط عليه من هنا أو هناك. وعندما تمتد الليالي كاسدة بلا عمل يستأجر فراشة وكراسي خيرزان ويقدم احتفالا في الشارع البحري، عيد ميلاده، شبكة أخيه، خطوبة أخته، عمرة قريبه.

ذات مرة أجلس زوجته في نقاب أبيض يخفي ملامحها إلى جوار أخيه وأقام لهما عرسا معتبرا، ولم يسأل أحد عن مصير تلك الزيجة، أدوا واجبههم بالنقوظ وتجرّعوا في المقابل عددا لا بأس به من قناني البيرة مع أوراق الخس وقطع الخيار والجبن القريش، وفارق السعر ذهب إلى جيب صاحب الفرح.

سيسرق عماد عظمة عدة الحدادة من ورشة أبيه، يسرق

الحمار والبغل والعربة الكارو ويبيعهم في سوق التونسي لتعبئة شريط، وعندما يفشل ينتظر لسنوات أخرى حتى يبيع إحدى كليتيه ويتسلم مقابلها كراتين الشرائط، ثلاثة آلاف شريط ذات غلاف يحمل صورته في الشعر البانك والبنطلون الباجي والقميص المشجر، يضع قدمه فوق مقعد خيرزان ويسند مرفقه إلى ركبته ناظرا للكاميرا بينما يتدفق شلال مياه من غابة ريانة خلفه، لكنه لن يوزع من شرائط الكاسيت سوى عدد قليل لدى أصدقائه ومعارفه، وأصحاب الحظوة في خير الله والمناطق المجاورة. وستلجأ زوجته للعمل في خدمة البيوت في الملاءة والجزيرة مع أخته هدى، بينما هو يمضي إلى مقاهي الكومبارس "بصرة" و"النصر" ومدينة الإنتاج واستديو مصر بانتظار يوسف شاهين يشير إليه من بعيد ليؤدي دور البطولة أمام إحدى جميلات السينما.

هذه المرة لم يكن الدبيب بفعل نبش كلب ضال فوق سطح الغرفة، كان نبشا ملاصقا بابها، خبطات متتالية ترج الجدران وأصوات مختلطة لم تميز بينها صوتا تعرفه، أحدهم يصيح بصوت غاضب:

"ما هي بقت جبانة كل رمة يجي يبني فيها قبر يلمه هو واللي خلفوه".

فتحت الباب فرأت حصانا. حصان حقيقي كتلك الأحصنة التي تراها في المسلسلات وإعلان شوييس، في تليفزيون خليل. عروق نافرة في عضلات بارزة وهيكل كبير بطول الغرفة. ركابان من الحديد يحشران قدمي صعيدي ضخم كالبلغل لا يشبه أحدا تعرفه، بشرة سمراء ووجه عريض يحمل شاربا رفيعا وعينين جاحظتين تترك نظراتهما لساعات باردة فوق البدن، يلتفُ بعباءة واسعة وافرة الصوف رغم الحرارة والشمس، بادرها عظيم الضبع دون أن يفكر في النزول عن الحصان بالسؤال عن رَجُلِها. انعقد لسانها. زغدها رَجُلُه صندل بـ"قَمْشَة" في كتفها لتتطق. تمسكتُ بعقب

الباب الخشبي لتحول دون خروج أي من إختها في داخل الغرفة ولم تجب. لو أنجاها ربنا من هؤلاء - كانوا ما كانوا - ستحمل إختها وتذهب بعيدا إلى أية مصيبة يعيش بها آدميون آخرون. ربنا ينتقم من أم ياسين التي دعته لركوب حته أرض في جبل تسكنه الشياطين. اطلّ عليّ من خلفها ليسألهم صائحا:

عايزين إيه؟

يسأل صندل: فين أبوك يا وله؟

وقبل أن ينطق، يظهر الشيخ يونس مهرولا كملك مجنح ينثر الخير والمحبة والطمأنينة في قلوب المؤمنين والضعفاء، خلفه أبو ياسين البناء، مساعد ملك، يضع قدما ويؤخر أختها، داعيا لو يصير ترابا قبل الوقوف بين يدي الضبع. أخبره الشيخ يونس إنها صالحين يا معلم عظيم، البنت الغلبانة والأربعة يتامى الذين ابتاع لهم الأرض في منزله بالمفارق قبل أسابيع. صالحين يا معلم طرف أبو ياسين، بأمره أن قابلته زوجته الست كبر وطلبت منه بخور عود من سوق الجمعة، ويضحك الشيخ يونس ضحكته المعتادة لكن أحدا لا يستجيب. بينما أبو ياسين، جاحظ العينين، صامت كحجر جرانيتي، يفكر في الإنكار "لا من طرفي ولا أعرفها.."، يتسأل عليّ للخارج، يتحسس ذيل الحصان الذي يتحرك يمنة ويسرة دافعا الذباب عن إلبته العريضة. ينتزع عصا رفيعة من قفص مكسور



ملقى جانبا وينغز بها خصية الحصان التي أدهشه حجمها، مقارنا بينها وبين حمامته الصغيرة التي لا تكاد تبين عندما يستيقظ صباحا محصورا بالمياه. يسهل الحصان ويحرك قائمته الخلفيتين. يخل توازن الضبع قليلا بينما يرص الشيخ يونس بقية الكلمات التي ظل يحفظها في طريقه إليهم. إنها خدامته، يتيمة، وتسعى خلف لقمة أربعة أيتام في رقبته وهو صاحب فضل ومعروف للأعمى والبصير. تنجح كلماته في إهباط أوداج الضبع المنتقخة، بعد أن يتذكر الأخير أنه بالفعل استلم القرشينات من الشيخ يونس ولا يتذكر فيم أنفقها. كانت فتحية زوجة رجله حنفي ساعتها تمسح السلم وهي تشلح جلابيتها الشرموطة التي ترتديها على اللحم، وكانت كبر زوجته جالسة إلى جواره تشاهد مسلسل علي الزبيق ولا يعرف كيف يتلفص منها، تذكر!

سمح لصالحين بالبقاء وإذا لم تسعها الأرض تسعها الرؤوس هي وإخوتها، وقال إن من سيمس لها طرفا سيكون له معه حساب. مضى وخلفه رجاله، بينما ظلت عيون حنفي تأكل جسدها الضئيل، وعيون أبوتلاتة تتذوق لحم الأطفال، باحثة عن شريك لاصطيادهم. ومذاك يصبح المربع البحري جسر عبور للضبع ورجاله من وإلى أي مكان في خير الله!

وكان خليل أول من لاحظ، أسرّ للشيخ يونس وأبوياسين بعد صلاة عصر إن الضبع انخبل، الرجل ينظر إلى البنات صالحين،

وصنّدل الكلب أيضا يفعل، فأقنعه الشيخ يونس إن بعض الظن إثم، فاقتنع.

لم يكن يوم صالحين ذلك مريرا. أبوها قال، قبل أن يوافيه الأجل، إنها لن تشعر بالمرار أصلا إلا لو عاشت غيره، وابن آدم لو اعتاده الهمُّ اعتاده أيضا، وعليها ألا تغتم للمصيبة حين تأخذ منها لكن عليها أن تفرح بما تتركه لها، فماذا تركت لها المصيبة لكي تفرح؟ أن نجت وإخوتها من الضبع ورجاله وحصانه العجيب، وأن قال أمام سكان الشارع أنهم في حمايته، لكن كلمات الشيخ يونس لم تذو في أذنيها كما ذوت في شفاه قائلها. إنها خدامته. ليست خادمة أحد. ستحمل الظلّل لكنها لن تخدم أحدا. وهي دفعت ثلاثين جنيها حصلت عليهم من المحافظة تعويضا عن موت الأم تحت أنقاض بيت المعصرة واصطحبت ثلاثة أنفار لاستلامهم خوفا من تربص اللصوص ودفعتهم لأم ياسين بالتمام والكمال لشراء بيت خير الله ولم تحصل عليه حسنة، فلماذا هي خدامته؟

غدا سيصبح إخوتها أصحاب وظائف ومتعلمين ويتطلع إليهم العزباوية كرجال ذوي حيثية، ولن تعرّهم بالخدمة في البيوت. بيوت العزبة التي تطرد نساءها من طلعة الشمس حتى عودة أزواجهم، يجلسن أمام الأبواب يلكن قصص غيرهن دون كلل. ستضطر أحيانا لمشاركة بعضهن هذه الجلسات لاستقصاء الأخبار ومعرفة مواطن الشر والابتعاد عنها، وكان الضبع ورجاله إحداها.

جاراتها أخبرنها أن الله يحبها. تعرف. وإلا ما أكرمها بأربعة صبيان دون أن تتكبد مشقة الحمل والإنجاب والرضاعة. أكبرهم يصغرها بأربع سنوات وأصغرهم يحبو لا ينطق، وما فلتت من يد الضبع دون أن تطلها أو واحدا من إخوتها شومة تهشم الرأس وتصيب بالرعاش. وما غاب ناجي في عمله في ذلك النهار، تاركا للشيخ يونس فرصة لتسوية الموضوع بالتي هي أحسن. ناجي - على صغره - ذو حماة، كلمة منه لا تصادف هوى لدى الضبع لأمر رجاله بتعليقه في عريشة بيته الكبير في المفارق.

"أحمدي ربنا وبوسي إيدك وش وضهر" قالت زوجة خليل وبطرسة في نفس واحد.

النسوان يفترشن عتبات البيوت بعد تنظيف غرف المعيشة وغسيل الأواني، وإخراج الحصير والأكلمة للشمس تحرق آثار أقدامهم المظيئة، وفضلات طعامهم، وبقايا الحشرات الميتة وتعيد تعقيمها.

تختلس كل منهن بضع دقائق لطبخ حبة عدس أصفر أو دقية أرز بالصلصة أو بامية بيضا أو حلة ملوخية ناشفة، لا تحتاج سوى إلى حبة طماطم واحدة وفصي ثوم و"ندعة" زيت أو غيرها من الغموسات الرخيصة التي تسد جوع أزواجهن الغائبين في شركات طرة الأسمنت ووادي حوف وحلوان، أو في المخابز وورش

الحدادة والبلاستيك والطابوق والرخام والبلاط والمحاجر والمقابر المنتشرة حول العزبة، أو فوق عربات الكارو وتحت كوبري دار السلام والملك الصالح بين عمال التراحيل انتظارا لسيارة تلتقطهم لهدم جدار أو رفع نقلة رمل إلى أحد الأدوار العليا أو غيرها من مرّمات طائفة المعمار.

وبعد غداء سريع وتعميلة قصيرة يجتمع كل ثلاثة أربعة أمام منزل أحدهم حول جوزة صغيرة، ومنقد كوالح سوداء مشتعلة.

كانت جماعة الشارع البحري تجتمع أمام دكانة خليل أو بيت الشيخ يونس أو فوق "طرنش" أبو ياسين تقضي الليلة في شد أنفاس الزغلول المخلوط بتفل شاي كراون الأصلي أو البراد الأزرق.

جازاك الله يا شيخ يونس ولعن ابتكاراتك، يصرّ أن يحشر أنفه حتى في باكو المعسل الذي يتبرع به خليل يوميا. يفتح العلبة ويخرج ورقة البلاستيك ويخلط ما بداخلها بتفل شاي محروق يلتقطه من قعر البراد، يعترض العسكري أن التفل يحرق المعسل في نفسين، فيرد عليه بثقة بطل سينما يواجه مسلحا يعرف أن رصاص مسدسه "فشنك": "غلباان" .. تفل الشاي يكسر المولاس والجلسرين الذي يمسك في شرايين القلب ويحرق الصدر ويمنع النوم. ذات يوم يستبدل خليل معسل الزغلول بسلوم أرخص سعرا وأكبر حجما، فيقول الشيخ يونس:

"غليان.. السلموم مَصَاصَة قصب مدقوقة خلطوها بالعسل  
الأسود والمواد السامة"، فصار خليل يبيعه ولا يدخنه!!

\*\*\*

كانت جلسة الشارع البحري أقدم جلسات خيرالله. ثم صارت أشهرها بعد أن اشترى خليل تليفزيون تليمصر ألوان ست عشرة بوصة باللمس، بالتقسيط عن طريق الساكن الجديد، موظف الشباب والرياضة، أبوتيتو، الذي ضمنه لدى "عمر افندي" بضمان وظيفته. بدلا من تليفزيون "اللمب" الذي كان يعمل ببطارية يرسلون أحد أبنائهم كل ثلاثة أيام لشحنها بستين قرشا. وغالبا ما كان يعود من منتصف الطريق لإخبارهم أنه وجد الباب مغلقا هربا من ثقل البطارية ورائحة الحامض داخلها، وطمعا في أن يتبرع أحدهم بأجرة حمار أو دراجة هوائية.

تزامن شراء خليل التليفزيون الجديد مع بدء عرض مسلسل "الرجل والحصان" حيث هرب الأومباشى طلبة بحصان الحكومة خوفا من إعدامه. وكانت لحظات من الوجد لا ينغصها سوى "فسية عفريت" أطلقها غيلة، ودون مناسبة، فكستهم بالغبار والتراب، وتركت ذرات عفار فوق أكواب الشاي وكوز المياه. أو مرور الضبع ورجاله واضطرار كل منهم إلى طي طرف جلابيته للوقوف

والصياح عاليا: "اتفضااال". تلك اللحظة التي كانت تنتزعهم من  
علياء السلطنة إلى درك خير الله، فالمعلم لا يرد التحية، فقط يرفع  
يده بإشارة عفوية تعيدهم إلى مواضعهم، خاصة خليل الذي اعتاد-  
منذ شراء تليفزيون التليمصر- أن يضع شلته في منتصف الجلسة  
والاضطجاع كأغا في وسية قديمة.

وعندما بدأت حلقات "عصفور النار" مرّر خليل عبارة  
عارضة في سياق تفسير المشاهد وتوقع الأحداث الذي دأبوا عليه  
أثناء المشاهدة، حيث تساءل عن وجه الشبه بين أبا صقر الحلواني  
وعظيم الضبع، لكن سرعان ما رد أبو ياسين:

ياخي حرام عليك هو احنا كنا وارثينها كابر عن كابر؟

ويؤيد الشيخ يونس: "الراجل شديد عشان حملة ثقيل، وهي  
دي شغلته اللي بياكل منها عيش وكفاية إنه شاييل عنك ولاد  
الحرام".

ولم يكن أي منهم يعرف أولاد حرام سوى الضبع ورجاله،  
وربما جاهدة السودا ورجالها أيضا وإن كان هؤلاء بعيدين لم  
يظلمهم آذاهم. فقط سمعوا به عن طريق آخرين.

\*\*\*

صقر: انت عايز تضع الدنيا.. إذا كنت عايز تسبب ارحل،  
فارق وسيبها لنا، سيبها لنا إحنا

صديق: لو سبتها مش هسيبها لك انت، هسيبها لأهلها ولأصحابها  
صقر: ما يعرفوش، ما يقدروش، هيبيعهوها شبر شبر وقيراط  
قيراط

صديق: أبدا.. انبني آدم الحر هو اللي يحافظ على ملكه ويحميه  
صقر: الأرض عرض يا صديق محدش حر فيه، والتراب ده  
عزوة الحلوانية، لو فرقناه هايضيع

صديق: لا العزوة ولا مصلحة الأهالي هم غرضك يا صقر، انت  
اللي بينهش عقلك خوفك على نفسك، وطمعك في الجاه وشهوتك  
للسلطة

صقر: انت اتجننت، بتخطف، ماعدش فيه فايده من الكلام  
معك، لكن خدها مني اخر كلمة.. آني لا هفرط ولا هسيب غيري  
يفرط واللي يفكر يمد إيدته بس عشان يغير سلو البلد لازم صوابه  
تتحرق.

ولم تكن مثل هذه المشاهد سوى حوارات متعددة الأطراف  
بين الأبطال والمحدثين في شاشة "التليمصر" يتماهى فيها الجميع.  
ينتقد العسكري غياب الحكومة لتوقف صقر عند حده. ينادي الشيخ  
يونس: يا منجي ذو النون من بطن الحوت يا رب، ويعيد وصف  
المشهد باعتباره لم يعرض بعد. تؤكد أم ياسين: هايقتل أخوه  
وتمصص شفاهها وتدعو.

وبقدر ما كانت هذه الحوارات العاطفية تؤثر في نفوسهم، كانت تُرَبِّي الخوف أكثر مما تشعل من حماسة، كانت النهايات سعيدة لكن يسبقها توضيحات مؤلمة لم يكن أي منهم مستعداً للجود بها، ويظل الجميع بانتظار حورية تخرج من بينهم لتشعل الثورة وتحمل عنهم التوضيح!

تمر أسابيع وتبدأ حلقات "الرأية البيضاء" ويبدأ صياح المعلمة فضة المعداوي مدويا كل يوم "ولاه يا حموو.. التمساحة باللا". وقبل أن تبدأ طقوس الحلقة الأخيرة، ويبدأ الدكتور أبو الفضل جاد الله في إخلاء الفيللا تمهيدا لهدمها، يظهر بانع البرسيم في جولته المسائية ليلقي إليهم نبأ الهدد. قال إن البنظورات ومعها سيارات الأمن المركزي ترابط عند معسكر الخيالة بعد موقف الدندراوي شرق العزبة، وأن بيوتهم ستتهدم على رؤوسهم. انفجر الخبر في وجوههم كقنبلة غاز فاسدة. انفضت الجلسة وجمع الرجال والأطفال أنفسهم ليروا بأعينهم وما أن وصلوا إلى أرض الملعب حتى وجدوا مغلاً خشب عبد الجواد يشون سيارة نقل كبيرة بينما كان الطريق إلى الخيالة مغلقاً.

هناك أخبرهم سكان المنطقة أنّ الهدم سيطل منطقة الدندراوي وأم نادية التي تسكنها "جاهدة السودا". بعدها ينطلقون إلى خير الله. باتوا ليلتهم في الشوارع، بعضهم يجمع عزاله ليغادر. بعضهم



قرر البقاء حتى لو انهدمت البيوت فوق الرؤوس. قالت صالحين سيهدمون ونعيد البناء أو يأخذوننا إلى الليمان!

لكنها سرعان ما غيرت قرارها حين رأت ناجي يصعد فوق سطح الغرفة ليخرج سيفاً مشرشفاً كان مدفوساً بين أشياء أخرى. أقسمت إن هو خرج ستغادرهم ولن يعرف لها أحد أثراً، ولم تكن صالحين بحنائة قسم. كان الجميع على علم بقراراتها المزاجية، وأنها ستفعل ما يعنّ على خاطرها. ولم ينس ناجي يوم أخبرته أنه إن لم يُعذّ التسجيل لاستكمال دراسته "منازل" فإنها سوف تقتل الحمار الذي يبيع عليه المياه لسكان العزبة. وعندما ماطلها عاد إلى المنزل نهايةً نهار ليجد الحمار مقيداً إلى الأرض ورقبته تحت سكينها يحاول الجبران إثناءها، ولم ينج الحمار إلا بعد أن أقسم ناجي على المصحف الشريف أن يفتح ملفه في اليوم التالي.

\*\*\*



6

تسمع وتطيع للأمير..

هذا كلام ربنا، فمن سيكفر؟!



في بدلته الميري ودبابيره اللامعة التي اختلف الجميع في تفسيرها، ينزل من سيارة جيب يقودها عسكري عند قطعة أرض خالية قريبة من شارع الصيانة. أصلع، في نهاية عقده الرابع. يختال في مشيته بما يليق بحكمدار أو رئيس أركان جيش ميداني. دبابيره الثلاث لوحث الضبع ولم يصدّق مرشده صندل وهو يحلف بجمرة الفحم التي اقتنصها من الوجود المشتعل بماشة نحاسية أن الرجل إما نقيب أو مقدم أو رائد. صدّق أبوتلاثة الذي رجّح أنها رتبة لواء، بدليل عدم وجود مساحة خالية أخرى فوق الاسيبلت لوضع رتب أخرى. اصطحبه الضبع منتشيا في جولة بأرجاء العزبة كصاحب مزرعة يطلع مسؤولا رسميا على أحدث أساليب التسمين وحلب الأبقار في مزرعته طمعا في تسهيلات حكومية.

بعد أيام، فوجئ العزباوية بسيارات نقل تفرغ حمولاتها من أسمنت وحديد ورمل أصفر، ليتم تشييد أول بيت خرساني في الناحية. ثم تأتي سيارات أخرى محملة بأثاث كامل به أنتريه مذهب ضخم، يكفي مقعده لاحتواء أسرة، وغسالة كهربائية بمروحتين،

وثلاثة عشرة أقدام بباب واحد، وتليفزيون تليمصر واحد وعشرون بوصة بدأ أنه بالألوان.

أفتى الشيخ يونس أنها أجهزة تعمل بالبطاريات. بينما رجّح أبو ياسين أن يكون لدى الرجل مولد "جنيريتور" كمولدات الكهرباء التي تمت خطوط النور في الأفراح الكبيرة وتعمل بالديزل. وبعد أيام قليلة استدعى الضابط جاره أبو ياسين لبناء بيت جديد على شارع الصيانة. وتقسيمة إلى غرف منفصلة ودورة مياه واحدة. قام الضابط بتأجيرهِ لأسر صغيرة وعزّاب.

لكن أحدا لم يعد يراه في زيه الرسمي سوى مرة واحدة أو اثنتين شهريا. يطوف خلالها شوارع خيرالله كقائد معسكر تجنيد في دهشور والهايكستب. والسيارة الجيب التي جلبته يوم جاء العزبة للمرة الأولى لم تظهر ثانية. وعندما سأله الضبع عن السبب أجاب أنه لا يريد أن يحمّل الحكومة تكاليف انتقاله، كما أنه ليس من اللائق أن يعرف زملاؤه الرُتب أنه يسكن في خيرالله. وأمن الضبع على كلامه مقتنعا.

ولم تمر سوى بضعة أسابيع حتى جاءت سيارة تويوتا ربع نقل تابعة لشركة كهرباء المعادي تحمل بكرة كابلات 2 بوصة وتفرغها أمام بيته، ونزل العمال وحفروا أطول خط كهرباء سيحفر يوما في خيرالله. بعد سنوات قليلة كان أبو عصام الضابط، حسبما أطلق

عليه العزباوية، أول من يقنن كهربيته بتركيب عداد رسمي. يومها أخبر الضبع أنه اضطر لمقابلة سيادة محافظ القاهرة وجها لوجه وطلب منه السماح بتوصيل الكهرباء لبقية السكان، فاستسمحه سيادة المحافظ في التمهّل لأن أرض العزبة مازالت محل نزاع بين المحافظة وبين شركة المعادي للتعمير، التي تم تخصيص أرض العزبة لها منذ سنوات ولم تقم باستغلالها حتى سكنت بوضع اليد. مع ذلك سمح له المحافظ بتوصيل الكهرباء وتركيب العداد كحالة استثنائية. أخبره الضبع بمعرفته بأمر الشركة وأن عليها أن تنسى حكاية الأرض. "محدث هايتعتع ويسيب مطرحه".

\*\*\*

وفي أول جُمعِهِ بالعزبة، وبعد أن استقرت أسرته في سكنه الخرساني المسلح، يدخل الضابط المسجد بعد الأذان الأول. يتخطى الرقاب للمقدمة جالسا في جلباب صوفي غامق ولاسة لامعة، وطاقيّة بيضاء شبكية أكسبته جلالا ورهبة. وعندما يحين موعد الخطبة يشير الشيخ يونس لمن يجلسون إلى جواره، ليصعد أحدهم المنبر على سبيل المجاملة، كما اعتادوا أن يفعلوا قبل كل صلاة جماعة. اعتادوا، فيما بينهم، تقديم إمام منهم في صلوات الجماعة على سبيل التكريم وبالذور. حتى إن كان المقدّم للإمامة

قد أثبت فشلا من قبل بخطأ في القراءة، أو نسيان ركعة، أو تفويت سجدة، أو غيرها من الهفوات. أما خطبة الجمعة فكانت اختصاص الشيخ يونس، وكانت عزومته عليهم قبل صعوده المنبر على سبيل إنكار الذات والتواضع وهو يعلم يقينا أن لا أحد من بينهم لديه جرأة الوقوف على المنبر والإمساك بحديدة الميكروفون. وعندما هم بالوقوف في تلك الجمعة، متحمسا لاستعراض قصة إيمانية جديدة أمام الساكن الجديد ذي النجوم اللامعة، استوقفه الأخير بضغطة على فخذة أصابته بشلل مؤقت. بينما نهض الضابط واقفا في خيلاء صاعدا المنبر بثقة وسط مزيج من الدهشة والترحيب.

اعتلى المنبر ملقيا السلام باللسان والإشارة. جلس ليترك للمؤذن رفع الأذان الثاني. وبعد انتهاء المؤذن نَصَبَ قامته لإلقاء خطبته بشموخ أم كلثوم في مطلع أغنية "للصبر حدود" صدح الضابط الشيخ الجديد بقصة الغلام والراهب التي صارت منذ اللحظة معين خطبه لسنوات تتالت. وعلى إثرها تغير اسم المسجد إلى "الغلام والراهب" إذ لم تكن - في أغلبها - تخرج عن تلك القصة مع بعض الحذوفات والإضافات والتعديلات.

حيث قال الغلام للملك: أنت لست بقاتلي يا أيها الملك حتى تفعل ما أمرك به! خُذني إلى صعيد المدينة وقيدني في جذع شجرة، وادعو الناس جميعا، ثم صوّب إلى قلبي هذه السهم من جعبتي



وقل باسم الله رب الغلام، ففعل الملك وأخذ السهم من جعبة الغلام وصوبه إلى قلبه قائلا: باسم الله رب الغلام، فمات الغلام، فصاح الناس في التو: آمنا بالله رب الغلام، وهكذا وهب الغلام نفسه في سبيل الدعوة.

وهكذا أيضا حفظت خيرالله القصة كبيرها وصغيرها إنائها وذكرها. وعندما أقام السنيّة - مستقبلا - مساجد وزوايا أخرى في شوارع العزبة وحواريها، وأخرجت العزبة أنمة جدد ودعاة أصحاب لحي كثرة طويلة، أراد الله بهم خيرا ففقههم في الدين، انتدبوا الشيخ أبو عصام الضابط لإلقاء القصة في مساجدهم مرارا وتكرارا، دون أن ينسى الدعاء بالسخاء والرخاء والصلاح والفلاح لأولياء الأمر في خيرالله وأوليائه في عموم البلاد، ولولا استخدامه لكلمات الذي وذلك وهذا للمذكر والمؤنث معا، وجرّه المضموم ونصبه المرفوع لكان خطيبا مفاها !

ولم يشعر الشيخ يونس بانتقاص من قدره بعد سحب صلاحياته، أو سطو الشيخ الضابط على صندوق التبرعات وعوائد الميكروفون. بل أضفى وجوده إلى جوار الشيخ الضابط مكانة لمكانته، وقد كان الشيخ أبو عصام يوم المصلين في صلاتي المغرب والعشاء فقط، بينما يتولى الشيخ يونس بقية الفروض.

الضبع أيضا لم يشعر بانتقاص لوقوف الناس تحية لغيره حين

يمر إلى جوارهم، فهو رتبة كبيرة، يعمل لدى الحكومة، ولديه اتصالاته. وإلى أن تقع حادثة الهدد، سيظل الشيخ الضابط الوحيد الذي يزوره في بيته ولا يرسل في طلبه لسبب كان. وحده الشيخ الضابط الذي يسمح له ولزوجته بزيارته في بيته بالمفارق وبيته في "الجيرة" والجلوس إلى زوجته "كبر"

جعله الضبع كبيراً، متخطياً أقدمية آخرين من السكان، وكان أول إكبار له عندما وضعه على رأس جلسة لرجالة الشارع البحري ليحكم في مشاجرة نشبت بين أم ياسين وأم عربي زوجة سيد عضمة. بعد أن ضربت الأخيرة ياسين وألقت مياه حمومها الوسخة على ملابسه، وعندما تدخلت أم ياسين لحماية ابنها البكر، جابتها زوجة عضمة من شعرها وشاركت ابنتها هدى وسلنت لباس الوليّة أمام نساء الشارع. وخرج عماد عضمة بسنجة على مقبضها غلاف جلدي، وعربي عضمة بسيف حاد مشرشر من الخلف. ولولا تدخل صالحين وزوجة خليل وبطرسة لكانت فضيحة!!

اجتمع الرجال في بيت أبو ياسين الذي هدّد باستدعاء أقارب من العمرانية وحرق سيد عضمة وأولاده وزوجته إن لم يسترد حقه. أقارب لم يدر بهم أو يراهم آدمي في خير الله لا قبل ولا بعد. جاء سيد عضمة وأولاده وبدأت الجلسة بصلوا على سيدنا النبي، فصلوا، زيده صلاة وسلاماً، زادوا، جاءت أم ياسين وحكت الواقعة من

شوشة رأسها حتى طرف ذيلها، وشهدت زوجة خليل لصالحها رغم غمز خليل وتبريقه لها كي تتأى وتمتنع. ثم جاءت زوجة عضمة وحكت وقانع من وحي الأبالسة، فكذبتا زوجة خليل، بينما امتنعت بطرسة عن الشهادة وقالت إنها كانت ساعة شيطان. وتناولت هدى على أم ياسين في حضور الرجال فأخرجت أباهما وإخوتها. وما كان من سيد عضمة إلا أن صفعها فخرجت مهللة إلى الشارع. وكان ذلك إيذانا بظهور الحق، ليعلم الجميع أن هدى "بِتْ مطبورة راكبها الغلط" وكتب سيد عضمة على نفسه شيكا بمائتي جنيه سيدفع قيمته إن كررت زوجته أو ابنته فعلتها، بينما كتب أبو ياسين شيكا بخمسين جنيه فقط. قال أبو عصام الضابط إن على الحرمة أن ترد على أم الولد إذا أخطأ قبل أن تمد يدها إليه بسوء. وزوجة سيد عضمة لم تفعل. وعلى الأخرى أن ترد على زوج من أساءت لابنها قبل أن ترد عليها، وأم ياسين أيضا لم تفعل. هكذا قضى أبو عصام الضابط وارتضى الجميع، ووصل الحكم للضبع فأعجبه.

\*\*\*

وصل خبر الهدم للضبع متأخرا. كان قادما لتوه من الصعيد بعد تشييع جثمان. عادة شهرية لا تنقطع. أرسل في طلب رجله

"صندل" مرشد المباحث ليستعلم عن التفاصيل. فأخبره أن مهمة قسم البساتين تقتصر على تأمين المعدات والعمال، وأنه حاول إبلاغه بما علم لكن سفريته طالت، ولم يعثر له على رقم تليفون.

أخبره أيضا إنه أخبر سعادة الشيخ أبو عصام الضابط ليتصرف لكنه لم يتصرف. وإنما استدعى سيارة لنقل أجهزته الكهربائية من بيته الكبير حتى لا يطالها التلف.

جمع الضبع أطراف عباته في يسراه، ذاهبا إلى بيت الضابط. بجّله وموكبه كما لم يفعل من قبل. واستقبله الشيخ الضابط بوجه قَلِق. عاتبه الضبع أنه لم يعمل اتصالاته بالمحافظة لوقف قرار الهدم. فأكد سعادته أنه لن يسكت، وأنه خلال ساعات سيأتي خير الله بما يثلج صدورها. وفي اليوم التالي أرسل في طلبه!

أي نعم. أبو عصام أرسل في طلب عظيم الضبع، صبيا من أبناء أحد المستأجرين. وكانت تلك المرة الأولى التي يتحرك فيها الضبع بناء على استدعاء من أحد سكان العزبة. قابله أبو عصام بكلسونه الأبيض وفاتلة بحمالتين بيضاء نظيفة. انجعض على كنبه مبطنه بالقطن ذات مساند ثلاثة، بعد أن طلب لهم شايًا ونعناعًا. حكى كم مسؤولا التقى وكم تليفونا ضرب وكم مشوارا نتع حتى تم إلغاء قرار الهدم. واضطر الضبع لابتلاع قدر من المهانة لم يشعر به إلا حين لسعه الضبع الكبير، قبل موته، قفا مازال يشعر بأثره، بسبب

شكوى زوجة أحد رجاله أنه دخل أثناء تشليحها لمسح الأرض وأخرج عضوه أمامها ليضرب عشرة.

خرج الضبع للأهالي كديك نزل من فوق دجاجة، ليبشر الجميع بأنه خلاص، ألغى قرار الهدد. وأن العزبة ستدخل كردون المباني، وسيدخلها الكهرباء والمياه والصرف الصحي. وأمر الشيخ يونس أن يذيع الخبر عبر ميكروفون الجامع. فسارع الأخير بفتح الميكروفون وأذاع خبرا مفاده أن

**"المعلم عبد الرحمن الضبع ألغالكو الهدديا أهل خير الله الكرام"**

وأنه سيقم ليلة لوجه الله في بيته بالمفارق. وكانت الليلة تعني ذبيحة معتبرة ومنشد صعيدي ورجال يتطاوحن على وقع إنشاده في حلقة ذكر تنتهي بثشجاتهم واحدا تلو الآخر حتى يرقد على الأرض كما فعل الشيخ يونس في ليلة نذره. وكانت الليلة تعني أيضا زيارات إجبارية من السكان محملين بما يستطيعون من نفوط أو مواد تموينية أو زجاجات الساقع والبيرة وخراطيش السجائر كنفوط!

بعد يومين جمع خلالها الضبع غلة شهرين ومعه شيخ العزبة ومفتيها أبو عصام الضابط دخلت البلدوزرات وسيارات الأمن لتنفيذ قرار الإزالة وتسليم الأرض للشركة صاحبة حق الانتفاع، بدأت البلدوزرات في الدخول قادمة من مدخل مدافن البساتين

وانحرف بعضها باتجاه الدندراوي وأم نادية، بينما سار الآخر باتجاه خيرالله. وسرعان ما انتشر بين سكان خيرالله نبأ تصدي جاهدة السودا ورجالها للقوات. وذهب البعض إلى أن "السودا" مارست سحرها الأسود لإعطاب البلدوزرات، وأنها خرجت عليهم عارية في جسد كلبة، ففر العساكر أمامها مذعورين.

في دقائق كانت البلدوزرات محت عشرات البيوت على مشارف خيرالله إلى أن وصلت مغلاً خشب عبد الجواد قرب الملعب. كانت البيوت جميعا من طابق واحد، معظمها بالطين والحجارة أو بالأسمنت والحجارة، القليل فقط ما كان مبنيا بالطوب الأحمر "نص طوبة". كانت دفعة واحدة برافعة البلدوزر تحيله البيت كاملا إلى ركام.

لا أحد يعلم تماما كيف بدأت المواجهات، لكن الجميع يتذكر فجأة مجاميع من الأطفال والصبية يواجهون تشكيلات الأمن بالحجارة والطوب والنبال الصغيرة. وبدا واضحا أن تلك التشكيلات، التي يشكل المجندون قوامها، غير مهينة أو مجهزة لمواجهة من هذا النوع. لاح لبقية السكان أن العيال اضطروا الحكومة للتقهقر، حتى أن سائقي معدات الهدم تركوها وفروا.

خرج الأهالي في أفواج، بعضهم يحمل أنابيب الغاز مستعدا لتفجيرها، وزجاجات حارقة، وشوم وسنج وأدوات طبخ، ووضعوا

أحجارا عريضة، وكتل حديدية لتسد مدخل خير الله. وتراجعت "الحكومة" مخلقة سيارات شرطة محترقة وأسلحة. وعاد المجندون في زيهم الأسود إلى ما بعد معسكر الخيالة ينقصهم حافز مناسب يدفعهم لهدم البيوت على رؤوس ساكنيها وحمل لعناتهم قطراناً يسوّد معيشتهم.

وعاد الأهالي لمنازلهم بعد يوم مشهود ردوا فيه الغزو، يحكي كل منهم، تفاصيل وتفاصيل، قصص لبطولات حربية لو صحّت نسبة منها ضئيلة، لسقطت القاهرة في أيديهم في ساعات. وسأل أحدهم مندهشاً:

**"أمال فين المعلم الضبع ورجالته ياخوناً؟"**

ولم يكن لدى إخواننا إجابة، فقد أصدر الضبع أوامره لرجاله عندما بدأ الضرب بالاختفاء، وشدّد على الأيشارك أي منهم في مواجهة الحكومة، فيما شوهد أحد رجاله يصعد بسيارة ربع نقل إلى طاحونة المجذوب، دون أن يحاول أحد تتبّعه.

أمّا الضبع فأرسل في طلب أبو عصام الضابط، مجدداً، وكان الضابط قد أعدّ حاله لمغادرة العزبة.

شدّد الضابط على أن الموضوع لم يخرج من المحافظة، المحافظ معرفة وعامل له خاطر. الموضوع جاء من فوق. أرسل

الضبع يأمر الشيخ يونس باستدعاء الأهالي عبر ميكروفون الجامع، وعندما اكتظ المسجد بالرجال والأطفال والنساء، أخبرهم أن الموضوع جاي من فوق، ونظر الكثيرون إلى السماء عليهم يرون الثقب الذي أسقط على رؤوسهم هذا البلاء المقيم، واستعادوا رؤوسهم مع صوته يشق صفوفهم.

أخبرهم أنه لا يدري ماذا تحمل الأيام المقبلة، من جانبه سيقوم باتصالاته لإيقاف القرار. حاول كثيرون أن يجدوا مبررا منطقيا لتفسير غياب الضبع يوم المعمة، وغياب الخبر عنه وعن رجاله وعن الشيخ الضابط، وتفتقت أذهانهم عن تفسيرات وتفسيرات ليس من بينها أن الضبع غير مسنود من الحكومة. وأن الشيخ الضابط ليس رتبة كبيرة، وليست بينه وبين المسؤولين سلك مفتوحة.

أمر الضبع رجليه صندل وأبوتلاثة بمراقبة الشيخ أبو عصام في ذهابه بالميري عبر مطلع دار السلام وحتى عودته، بعد أن أكل الشك قلبه. أمر أن يأتيه بأصل الرجل وفصله، ألا يعودا إلا بخبر يكنس وغش صدره. عادا وقالوا إن الرجل الناقص الرمة - وللحقيقة كانت "الرمة" لفظة صندل - خلع الميري بمجرد نزوله مطلع العزبة، وأخذها كعابي حتى محطة دار السلام إلى السيدة زينب، ومنها إلى البدرشين.

أخبراه متنافسين في أسبقية السرد أن ابن الحرام نقيب "مِخْلَة"



وضع الدبورة الثالثة في نفس يوم خروجه متقاعدا منذ سنتين. ابن أخته "الأومباشا" في مركز الهايكستب هو من يعينه بتوصيله بسيارة الخدمة من حين إلى آخر.

استمع الضبع فاغرا فاهه، جازًا بأسنانه على طرف مبسم الشيشة، واكتسى وجهه ألوانا. قطعة فحم يزحف احمرارها المتقد إلى أطرافها المظلمة. يأمرهم بأن يبقوا خبر الرجل طي الكتمان، فلا ينبغي أن يعلم العزباوية أن أحدهم قد البسه طرطورا واستكرده. أرسل أحدهم - ربما كان أبوتلاتة - لإحضاره من منزله كما يجده، ولو بلباسه.

جاء في عباته الصوفية ولاسته اللامعة وطاقيه بيضاء ناصعة. أجلسه الضبع في موقع بارز إلى جواره. سأله من جديد عما وقع، وما حال دون معرفته بأمر الهدد، ووعد المحافظ الذي طار كملصق دعائي هش فوق جدار قديم.

أجاب الشيخ الضابط:

الموضوع زي ما قلتك يا سيد الناس جاي من فوق.. اتدخل فيه كبارات الشخصيات، ديه سياسة يا معلم أمال إبييه؟

ناوله المعلم شايًا، وأشركه في حجر الشيشة. أمر أن يفتحوا له زجاجة بييرة. وعندما استغفر ربنا طالبا أن يعفيه لأن الصلاة على وشك والبييرة تنقض الوضوء، أصر الضبع بنظرة أربكته،

فتناول الزجاجاة وتجرع نصفها دفعة واحدة. طلب الضبع أن يعيد على مسامعه قصصا له مع مسؤولين كبار ورتب عالية وأصحاب حيثية، سبق أن حكاها في سياقات مختلفة، أعاد الشيخ بعضها بعد أن نسي تفاصيل واستبدلها بأخرى. استوقفه الضبع فجأة قائلا بنفاذ صبر:

**أهو أني عايزك تدنك في الهجس ده طوالي!**

**هجس إيه يا عظيم، أني بهجس؟**

فجأة تناله لكزة من كوع أحد رجال الضبع، لتنبهه ألا ينطق باسمه مجردا من لقب المعلم، وأن عليه أن يحفظ أدبه في حضوره. يحدق مشدوها، تكاد عيناه تقفز من محجريهما لكن لكزة أخرى من جهة أخرى تنال رأسه فيهتز كيانه ويكسو الرعب والحيرة ملامحه. ينتشله الضبع من ذهوله:

**ياللا جوم فز روح لعياك، بس تسمع الكلام من هنا وطالع.**

ثم يأمر أبو ثلاثة أن يصحبه إلى منزله ليحلب مائة جنية حلاوة بناء بيته في شارع الصيانة وتسكين غرفه، ومائة أخرى حلاوة صب حصيرة المسلح، أما حساب الضحك على الذقون فله يومه.

بالكاد حملت قدما أبو عصام الضابط نصف جبل المقطم وسارت به إلى البيت. ومُذَّك وطالع سمع الشيخ الكلام. خدم الضبع متفانيا من لباب قلبه. كان يتقدمه بفتاواه الدينية، يعبد له سبله الوعرة

فيحتال عسرُه يسرا. أحلّ له زواجه بكبّر التي طلقها عدد مرات لا يتذكرها بناعي أن طلاق الغاضب لا يقع في كل الأحوال. أفتى بجواز بيع الأرض ومصادرتها وإعادة بيعها أثناء غياب أصحابها، مستنبطاً قاعدة فقهية تحل مصادرة ممتلكات الغائبين بحجة أنها زائدة عن حاجتهم ولهذا تركوها. كانت أولى فتاواه، الاستيلاء على البيوت التي أُخليت بعدما دخلت البلدوزرات، وأحل بيع أنقاض ما هدم منها، شريطة حصول صندوق مسجده على حصة منها.

أحل له الطوانات التي فرضها على الدكاكين والورش والمساجد ونقل الملكية وأعمال البناء وأحياناً عند شراء أثاث جديد أو جهاز كهربائي ما.

ذات يوم جمعة - بعد خطبة الغلام والراهب - أخذ الشيخ يونس جاره أبو ياسين إلى الشيخ الضابط لتوسيطه حتى يخف رجال الضبع أرجلهم عن بيت أبو ياسين بعد أن قبض الأخير ثمن نصف بيته من الوافد الجديد أوتيتو. الذي سيؤسس فريقاً لكرة القدم يهزم به فرق الجيارة وأبوقرن والإسطل، وبسبب تحكيمه السيء في بعض المباريات سيحظى بخاتم قرن غزال في عنقه يتسبب في نقله من مكتب وزير الشباب والرياضة إلى مديرية الشباب والرياضة في قليب قبل أن يسوي معاشه، لاقتطاع بدل التغذية والإثابة من راتبه، ويفتح "سرجة" لبيع المعلبات والعسل والطحينة والأجبان والرنجة.

ورد أبو عصام محذرا أبو ياسين والشيخ يونس معا:

"تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، ده كلام

ربنا، انت هاتكفر؟"

وكان أبو ياسين يخاف الله ويهاب الكفر. خرجا والرضا يملأ نفسيهما. اعتبرا كل ما يمنحونه الضبع نوعا من العبادة. وعندما أثير غبار القصة في إحدى جلسات مسلسل "أنا وانت وبابا في المشمش" أمام دكانة خليل، وهم يدحرجون بينهم جوزة سيناوي اشتراها أحدهم من سوق التونسي لهذا الغرض، أطلق عليّ، الذي اعتاد حشر أنفه في كلام الكبار، سؤاله اللئيم:

هو الضبع أمير يا شيخ يونس؟

واستمر الشيخ يونس يسحب نفس الزغلول بينما تسمرت عيناه على كركرة الماء في برطمان الجوزة كمن ينتظر أن يُخرج سمكا، بينما انتظر الباقون الإجابة في تحفز! وفي النهاية حرّر الشيخ يونس مبسم اللاي من بين شفثيه صانحا بلهجته المميزة:

"أومااااااال.. الضبع أمير الأمرا.. داننت غلبان صحيح"

وكان عليّ قد غرس شوكة سامة في صدورهم الليباب، لم تنزعها آيات قرآنية ذكرها الشيخ الضابط، بأخطاء إملائية ساذجة، وأحاديث أغلبها أقوال ماثورة لا يتذكر أين سمعها، لتأييد فتواه.

وقبل أن تنفض الجلسة بنزول اسم المخرج محمد فاضل على تتر نهاية الحلقة، ظهر حسن الكتبي يحمل صحيفة تحت إبطه، يسير خلف عربة كارو تحمل كميات من الجرائد القديمة والكتب المدرسية والورق. ما أن اقترب من جمعهم حتى أشار للعرجي أن يسبقه بالكارو إلى البيت، وأن يفرغ الحمولة تحت تكعيبية خشبية أقامها في مدخله وخصصها لفرز الدشت والكتب القديمة. لَوْح لهم بالصحيفة صائحا:

**"مبروك.. اتشهرتو يا عزباوية، كاتبين عليكو في الأهرام"**

وألقي الجريدة إلى علي الذي التقطها ليقرأ بصوت عال خيرا مضمونه أن مجموعات من البلطجية والخارجين عن القانون تصدوا لقوة أمنية كانت تصاحب مهندسي شركة المقاولات لاستلام الأرض التي استولوا عليها بوضع اليد في منطقة خير الله.

\*\*\*



7

طَفَى النور يا سعد...

"زفة إجبارية للعاشرين فوق كوبري المشاة إلى الجزيرة"





كانت عملية الهدم الفاشلة إيذاناً بوضع خير الله تحت منظار الحكومة، ومناظير الخارجين عليها. أسابيع قليلة وبدأ سكانها يبيعون أجزاء من بيوتهم الواسعة إلى آخرين خرجوا من تحت التراب قططاً جائعة تداعت حول علبه سردين مفتوحة. آخرون أحالوا منازلهم إلى غرف متراصة على جانبيين متقابلين، بينهما ممر طويل في آخره دورة مياه موصولة بماسورة بلاستيكية، عشر بوصات، مدفونة تحت أرضية الممر حتى الطرنش أمام المنزل، وغالبا كان سقف الطرنش يستخدم كمصطبة يجلسون عليها بعد الظهيرة.

عزّاب وعائلات صغيرة. إيجار شهري بدأ بعد واقعة "الهدم" خمسة جنيهات، ووصل بعد اكتمال "الدائري" إلى مائة!

اتسعت خير الله ونما بطنها، فيما ضاقت سيطرة الضبع. وظهر حربي، عند مطلع العزبة الرابط بينها وبين عزبة أبو قرن، حرامي ثم طبال، ثم شيخ مع السنّيّة. أنشأ مع عماد وعربي عضمة فرقة

موسيقية تغني بالإكراه في مناسبات السكان. حُبس مرات وتم تسجيله خطرا.

واشترى صابر نصف بيت سيد العسكري في الشارع البحري، وأحال نصف النصف إلى زاوية للصلاة، حتى أخذته الحكومة ذات يوم، ولم يسمع به أحد بعدها.

وجاء عدوي، الذي صار شيخا أيضا، ليشتري نصف بيت الشيخ يونس، وبعد تسوية معاشه مبكرا في إحدى شركات القطاع العام. فتح دكانا لبيع الجملة، ثم باع الدكان بما تحويه، وأنشأ زاوية للصلاة أصبحت مركزا للسنيّة ومربضا لا عتقادهم.

الأستاذ عجمي، منقول إلى العاصمة، يشتري جانبا طوليا من بيت سيد عضمة، وكان موظفا بلحية بيضاء خفيفة يعمل بالسجل المدني. وسكنت عائلات صغيرة لدى متولي الخرار بينهم أشرف الكهربائي، الذي سينجح مستقبلا في توصيل بيوت العزبة بشبكات الشوتايم والإيه آر تي والجزيرة، بينما يحتفظ لنفسه ومعارفه بالأوربي. صالحين وحدها لم تبع من بيتها ولم تبني غرفا يسكنها غرباء يعيشون بينهم ويستخدمون مرحاضهم. وعندما نصحتها جيرانها كي تفعل، لم تأخذ بالنصيحة كما فعلت يوم جاءت العزبة. قالت: "الباب المقفول يرد القضا المستعجل"

تُحرّض ناجي على الذهاب إلى مدرسة علي، لأنه لا يجلب لها

شهادته كما اعتاد. يبدي ناجي موافقته ولا يفعل. يكتفي بالمرور على مدرسة مصطفى القريبة كولي أمر حريص على مصلحة بنيه.

مصطفى غيرُ علي. مصطفى صغيرٌ ولم يغسله عرق الكدّ خلف لقمة العيش لادخار مصاريف مدرسة أو ثمن كتاب. ولم يقطع خير الله سيرا على قدميه يوم كانت جبلا موحشا لا مصباح كهرباء أو صوت راديو يؤنس ترحاله إلى مدرسة بعيدة تسع محطات قطار. مصطفى لا تقول له صالحين "اللي بيتعلم.. بيتعلم لنفسه"، بينما لعليّ تقول. علي يعرف مصطلحاته وسيناضل كي لا يصير عربجيا أو سريحا أو صبيا في ورشة يختم على قفاه أسطى كلما تغير مزاجه، كعيال العزبة الذين تسربوا واحدا واحدا من تعليمهم ولم يبق سوى قليلين يواصلون كيفما اتفق.

يعرف أن لعلي بلاواه، لكنه يعرف أيضا أنه شاطر وسيصرف. وهو بأي حال لن ينقل سينا عنه إلى صالحين حتى لا تتعفرت وتسوّد عيشة الجميع.

هو نفسه لم يدفع مصاريف كتبه رغم انتصاف السنة الدراسية، ولديه ملحق فيزياء لا يعلم به سوى عليّ كاتم سرّه. في النهاية سيتدبران أمورهما، كما اعتادا، دون مناقحة تفتحها صالحين على رؤوس الأشهاد. المناحة التي أخبرتهم ساعة ونس ليلية أنها غالبا

ما تفتعلها لترش رماد "الصغينة" في أعين نسوان العزبة المفقدة تطلق مقذوفات الحسد علوّة!

وعليّ على صغره أبدى كِبْرًا، خاصة ذلك اليوم الذي استعاد فيه سيد عضمة حماره ليحرم ناجي العمل في بيع المياه، مفسحا الطريق أمام ولديه لامتهانها. يومها نبش علي الأرض وأخرج ثلاثة عشر جنيتها كان ادخرها، دون علم أحد، من عمله لتعيّنه في شراء احتياجات سنته الدراسية ومنحها لناجي ليستكمل بها ثمن حمار بديل. بينما أقرضه حسن الكتبي بقية الثمن، على أن يسدّد مديونيته من جمعية "تمسكها" صالحين ويدخلها باسمين.

حدث لن ينساه ناجي، يوم شعر أن للبيت رجلا معه مسؤول. يومها اصطحبه مع الشيخ يونس وسيد العسكري في زيه الميري إلى سوق التونسي. لتقع عينا الشيخ يونس على "أتان" رمادية ببطن بيضاء، ينتقيها من بين حمير وبغال. يمسك بفكها السفلي. يفتح شفّتها بعنف. يكشف عن أسنانها. يضع سبابته في فتحتي منخارها. في أذنيها. يرفع ذيلها. يجسّ فتحة شرجها دون أن يضع كيسا أو عازلا.

بينما علي يربّت على ظهر حسان قريب كأنه يعرفه. بعد مناورات ومفاوضات وحلفانات متبادلة يشتررون "الأتان" بخمسة وأربعين. في الطريق إلى العزبة يبلغهم الشيخ يونس أن الحمارة

عُشْرٌ. مؤكداً أن صاحبها نفسه لا يعرف، فما زالت في أسابيعها الأولى.

يسألونه: "عرفت ازاي يا شيخ يونس؟"

تحتها بول أخضر، وفرجها كصُرَّةٍ حمراء مربوطة بدوبارة. ويستأنف ناجي نشاطه في بيع المياه بمعدل يومي غير ثابت، يوماً يزود أحد السكان بعشر نقلات يستخدمها في البناء، ويوماً آخر لا يجمع ثمن عليفة الحمامة وبرسيمها. كان طعامها عنباً، تَبْنٌ وكُزْبٌ وقشر فول وجراوة. ولدتُ جحشا جميلاً له زغب أبيض كثيف وزادت تكاليف العليقة، وقالت صالحين:

"اللي ما يقدر على عليقتها يخلي من طريقها".

باعها بعد أن بدأ آخرون ببيع جرائن المياه على عربات الكارو، التي تحمل الواحدة منها أكثر من عشرين جركناً أحجام كبيرة. لن يستطيع شراء كارو، كما ولن يصير عربجياً بعد أن ظل حجاراً لعدة سنوات أكسبته القوة والثقة والسمعة الحسنة. فقط هي مهام مؤقتة تنتهي يوماً نهاية سعيدة عندما تنتهي دراسته المنزلية ويلتحق بتعليم عال، جامعة أو معهد. هو أيضاً لن يتحمل تكلفة موت الحمامة التي لم يسدد بقية ثمنها! بالكاد أنقذها الشيخ يونس قبل نفوقها بمعجزة. عندما استيقظ في جوف ليلة لإزاحة الحجر خلف الباب ليسمح لعلي بالدخول عائداً من عمله متأخراً. سار عند مربط الحمامة بجوار

المرحاض. كانت ملقاة أرضاً ترفّص بقوائمها الأمامية والخلفية، وزيد أبيض يملأ شذقيها. هرول مذعورا يستدعي الشيخ يونس، فأخبره الشيخ إنها مسمومة، وتركهم ليقظ خليل ليحلب من دكانه عبوة كوكاكولا بلاستيكية لتران. أسقاها، عنوة، الزجاجاة كاملة، حتى انتفخت معدتها. ضرّطت طويلا، وهرت مادة صفراء ننتنة عبقّت البيت والبيوت المجاورة. في الصباح عادت لطبيعتها.

\*\*\*

هدد عليّ بالطفشان إن أقدمت صالحين على نقله من مدرسة المعصرة. وكانت صالحين قد نجحت بمساعدة الأستاذ عجمي، الساكن الجديد، موظف السجل المدني، في إيجاد واسطة لنقل "دوسيه" علي إلى مدرسة قريبة من خيرالله بدلا من تلك التي يضطر إلى السفر إليها، بالقطار، مع طلعة الفجر في كل فصل دراسي أول، والعودة في كنف الظلام كل فصل دراسي ثاني.

خضعت صالحين لرفضه شريطة أن يجلب لها في آخر العام "شهادة" دون أرقام صغيرة حولها دوائر حمراء. وحرص عليّ أن يلبي ما أرادت حتى إن اضطر لنسخ شهادة جديدة تحمل درجات منحها لنفسه لعدم قناعته بدرجات المدرسة. نبيهاً كان، لكنه لم يستطع الاستمرار في الحصول على درجاته العالية لأسباب لوجيستية وأخرى بحكم الوراثة.

ظل لسنوات ضمن مجموعة الشرطة المدرسية شارة وكاب وشريطة حمراء يعلقها من الكتف الأيسر إلى جيب بنطاله الأيمن.

حرص على شرائها مع مقلمة معدنية زرقاء عليها خريطة العالم وأسماء البلدان مدونة بخط رفيع، وأدوات هندسة وألوان فلوماستر 12 لونا، وجلاد شفاف، وأقلام رصاص "بسنون" أحب خطوطها ورائحتها. أخفى أنه يتيم. استدعاءات ولي الأمر التي حصلها لأغراض طباعه السلوكية ونزوعه إلى التنطيط ترك للزمن معالجتها. سارت أموره، منتقلا بسلاسة من صف إلى آخر، ثم من مرحلة إلى أخرى.

ولم يخبر أحدا كذلك عن سكنه العزبة، بعد تجربة مريرة ذكر فيها أنه يسكن خيرالله، فقال الزفت مدرسُ الرياضيات، الذي يمسح طرف كفه في صدر قميصه من أثر جير الطبشور دائما، خيرالله جبل المطاريد، ليضحك عليه الجميع، ويعايره بها زملاء أشرار خلقهم الله في كل مرحلة دراسية انتقل إليها. فيقرر ألا يترك مجالا لأي زفت آخر لسخرية أو تعليق. اكتفى بأنه من دار السلام.

- **فين في دار السلام؟** يخترع اسم شارع متهربا من فضول السائلين.

على عكس ما كان ناجي. فلم يترك مناسبة إلا وتعمد أن يضع "خيرالله" في جملة طويلة تنبئ بالمكان الذي ينتمي إليه. وكان تصريح ناجي ذلك نوعا من الحصانة في أماكن عمل عديدة ضمت



صناعية وعمالا وأرزقية كل منهم يحاول فرض سطوته، والإيحاء بغير ما يبدو عليه. كما لم يخف ناجي العزبة عن بيئة المدرسة التي يتردد عليها ويمتحن بها "منازل"

اعتادت جارتهم بطرسة، أن تدعو لكل منهما ذهابا وجيئة.

أيضا أم ياسين، رغم مرور ابنها ياسين كل عام بملاحق في كل المواد الدراسية، ليعمل في النهاية مساعدا لأشرف الكهربائي ويحصل على وصلة من الأوربي يدعو إليها "علي" كل عدة أيام. وزوجة العسكري رغم حصول ابنها على مائة وأربعين درجة في الإعدادية والتحاقه بمعهد مندوبي الشرطة. وزوجة متولي الخرار التي سيكرم ربنا ابنها الأصغر ويحصل على دبلوم الصناعات الخمس سنوات.

كان ناجي وعلي من قليلين واصلوا الدراسة إلى أن نمت شواربهم، وظل كل منهما يحمل أجلسه ذاهبا إلى المدرسة. واستقر في عقول العزباوية أنها عائلة غريبة الأطوار، وأن صالحين لديها "دقة عبط"

بدا أن علي غاوي دراسة، قال أبو ياسين. يأتي يوما بعد يوم بكشكول أو ورقة إجابة ليضعها أمام عيني صالحين فتتفرج أساريرها وتسأله:

## - طلعت الأولى؟

تتناول الشهادة متلهفة إلى الشيخ يونس فيقلبها بين يديه ويضحك ضحكته المعتادة ويصدّق: أو ماااااااا!

ويذهب إلى خليل ليشتري لعلّي زجاجة فاننا ساقعة، ومنه إلى سيد العسكري الذي يقرأ الأرقام لكنه لا يعرف تأويلها فيقول:

في العربي جايب أربعين،

تسال صالحين: أربعين من كام؟

يعيد النظر للشهادة الملونة متسانلا: هم غيروا شكل الشهادات

تاني ولا إيه؟

في النهاية يذهبون إلى بيت حسن الكتبي ليفصل في الموضوع ويتضح أن درجة العربي والدراسات نهائية بينما درجات الحساب والعلوم متوسطة.

ذات يوم أخبر عليّ حسن الكتبي، وكانا يربطان رزم الورق بالدوبار البلاستيك الأبيض لنقله إلى المخزن تمهيدا لبيعه، أنه أنفق أكثر من ثمانية آلاف ساعة خلال اثني عشر عاما في الطريق من وإلى مدرسته، ثلاث إلى أربع ساعات يوميا. كثيرا عاد من منتصف الطريق يخبر صالحين بأن المترو عطلان، الأستاذ غائب، الفصول في رحلة. ولو كلفت خاطرها وفتحت حقيبته الجلد مرة

لاكتشفت الكذبة. الحقيبة خالية، وكان غيابه لأسباب تتصل بتسميع القرآن، أو الاطلاع على الواجبات، أو هربا من مدرس ثقيل، أو يوم احتفالي يحضره الجميع في ملابس خارجية.

مرة، وكان في الثالثة الابتدائية، وفي طريق عودته نزل محطة طرة الأسمنت ليشرب ماءً من زير ندي يتوسط النباتات المزروعة على الرصيف المتجه إلى محطة السيدة زينب، ويجلب بعضا من التوت المتساقط حول جذع شجرته الغليظ بجوار غرفة ناظر المحطة، كان يحفظ جيدا أي باب بأية عربة من عربات القطار سيفتح أمام "شجرة التوت" مباشرة، خطط للعودة سريعا خلال الثوان التي سيتوقف بها القطار ليسمح للركاب بالنزول والصعود، لكن القطار تحرك سريعا حاملا حقيبته التي تركها فوق المقعد كي لا تعيق حركته السريعة. بكى. تجمّع حوله رواد المحطة ونصحوه بأخذ القطار التالي إلى السيدة، محطة الكراج. فعل، وهناك عثر على حقيبته بعد ساعات بحث بين المقاعد. رجع إلى العزبة ليلا ليجد صالحين تنعي وكستها الثقيلة، بينما يحاول جيرانها مواساتها في مصاب لم يقع بعد، عندما رآته في فتحة الشارع نفرت إليه وقبل أن يتفوه بكلمة طالته بفردة شبشبها حتى خلصوه من يدها بأعجوبة.

ذات يوم، شاهد علي أحشاء رجل فوق قضبان قطار جراء

حادث دهس قرب محطة كوتسيكا، المحطة التي علم تاليا أن اسمها مشتق من اسم خواجه يوناني أقام مصنعا للكحول في المنطقة وهاجر مخلفا رائحة أبدية يشتمها كل عابر من المنطقة راجلا أو راكبا، ولم يحلم عليّ ليلا بعفريت الجثة المفرومة تحت القضبان!

ذات يوم أخرج له رجل عضوه فوق الجبل، في عودته من عمله في محل عصير بوسط البلد. محل عصير جنة الفواكه، هناك رأى الكيوي والكاكاو والمشمش والتفاح والأفوكادو. حكى لصالحين أنهم يجلبون الفاكهة في غير أوانها، وكل الثمار قابلة للعصر وجاء لها ببعض المعطوبة.

ذات يوم انتظره أبوتلاتة، رجل الضبع، لدى المحطة بوجه متملق، تحدث إليه وسار إلى جواره، حتى انتحى به لدى كوبري مشاة قريب من محطة دار السلام القديمة يؤدي لشركة النصر للتليفزيون في الجهة الأخرى من المترو، وحاول نزع بنطاله، لكنه فلفص من بين يديه ولقعه بظلطة غليظة وجرى. لم يحك لأحد، ولم يحاول أبوتلاتة تكرار فعلته. كانت ذكرى التجربة، وصورة أبو تلاتة مبتور أصابع اليد اليمنى، تقفز إلى رأسه في كل مرة اضطرَّ فيها للمرور عبر ذلك الكوبري الذي يستحيل ليلا، وعلى الرغم من ازدحامه نهارا بالمارة من عمال وطلبة وموظفين، إلى طريق أشباح، وممر للعشاق الباحثين عن حُنّ مظلم لإطفاء جذوة الشوق، مخاطرين بتعرضهم للسرقة أو الخطف أو التحرش.

"اطفي النور يا سعد، اتنين بيدقو بعض". هتاف لصبية يلعبون في المكان، أثناء مرور شاب يضع ذراعه فوق كتفي فتاة متجهين إلى الطرف الآخر من الكوبري.

ذات يوم رأى عليّ امرأةً تحت رَجُلٍ في مقام سيدي العجمي، حيث شاهدُ قبرٍ كبيرٍ تعلوه قبة ذات عمامة بيضاء، عند طرف الكوبري المؤدي إلى جزيرة دار السلام. هنالك سمع للمرة الأولى أصوات النساء في لحظات الشبق وظل يتذكرها حتى بلغ. وعندما كان يرى مريدي الشيخ الميت في مولده السنوي يلتفون حول شاهد قبره وقد جاءوا من ربوع البلاد لإحياء الذكرى بخيامهم ونذورهم الحلال، كانت تعاوده أصوات غنج امرأة تحت رجل توجهه كيف يلجها!!

ذات يوم رأى أجفان زوجة نظرة داخل مبنى الإسطبل ومعها ثلاثة من سريحة زوجها وقد أنزلوا بناطيلهم وشلحوا ملابسها يعاشرونها في أوضاع غريبة. ورجع إلى البيت مصابا بالصمت والحمى والقيء ولم يفصح لأحد بما شاهد، حتى ظننت صالحين أنه ممسوس وجلبت الشيخ يونس ليقرا عليه سورة ياسين.

وتكرر ما رأى مرة أخرى في ذات المكان، وكان عائدا ليلا من مدرسته في الفترة المسائية ليستمع لصوت زكريا، أحد سكان شارع الصيانة وهو يصرخ عاليا: "ماليش دعوة يا ولاد القحبة.. أنا عايز دوري!"

ثم صوت فتاة ابنة رجل طيب يسكن قريبا منهم. تتوسل كي يتركوا زكريا يعمل مرة، طالما أحضروه معهم، على ألا يجلبوا معهم في المرة المقبلة عيالا. وميز علي بعدها صوت عماد عظمة وهو يرفض بإصرار توسلها، ويقسم بعزة جلال الله أنه سيتزوجها ولا يصح أن يعمل لها أحد أمامه. لينفض عليه الشخص الثالث، وكان حربي الحرامي الذي سكن في مطلع العزبة، يقات بفرص الإتاوات على المارين من المطلع بحجة استئجار سيارة لرفع أكوام القمامة التي يلقيها السكان، وتعيق المرور عبر المطلع. وعندما دخلت الكهرباء كان يقوم بقطعها من اللعبة الرئيسية ثم يقوم بجمع النقود من البيوت لاستئجار كهربائي لإصلاحها. كان حربي وآخرون من أولئك الذين سكنوا خيرالله بعد حادثة الهدد، كانوا خارج سيطرة الضبع أو من الذين فضل الضبع معاملتهم بحذر. مسجلون خطر على مرشدين مباحث وهاربيين من تنفيذ أحكام قضائية وفقدانين لا يُعرف عنهم سوى استبياعهم.

وكان انقضاء حربي على عماد عظمة اعتراضا على رفضه معاشرتهم البننت، إيذانا بمعركة وشيكة، فقد اعتبر حربي هذه الزيجة، إن تمت، خيانة، لأنه هو من علّقها، وسيظل يركبها حتى إن صارت زوجة صاحبه.

وأحس حربي بوجود علي قريبا خارج سور الإسطبل فأدخله رابعا ليعمل معها أيضا. رفض علي وحربي أصر، ولم يعترض

عماد عضمة. فحاول مجاراتهم وما أن رأى بين فخذي البنت حتى تقيًا على قدميها. وظلّت هي لسنوات طويلة ممتنة له تحاول استرضائه حتى لا يفتن عليها لأخيها. فيما كان علي لسنوات منشغلا بأخيها ينظر إليه بإشفاق كأنه ينظر إلى معاق كفيف أو قعيد. فقد كان أفضل حارس مرمى عرفته خير الله، حتى أن أبوتيتو وضعه قائدا لفريقها.

في مستقبل قريب، وأثناء ذهابه إلى مخبز عبد الهادي لجلب حصة "الفينو" لمطعم التحرير الذي التحق بالعمل فيه خلال الإجازة الصيفية بين الصفيين الخامس والسادس، يرى عليّ حربي يتأبط هدى أخت عماد عضمة في أحد شوارع عابدين، وقد أزلت طرحتها عن مقدمة رأسها وسمحت لخصّة شعر كبيرة أن تغطي عينيها، وسارت تتمايل في مياصة واضحة. رآه حربي ورأته هدى لكنه قرّر ألا يشي بهما. حملها له حربي جميلا، يرده مرة ومرات. على الأقلّ لن يدفع عليّ مليما في مروره عبر مطلع العزبة المؤدي لعزبة "أبو قرن" إتاة المرور التي يفرضها حربي على العابرين.

وكان سبب عليّ لعدم وشايته بحربي وهدى هو خوف كاره استوطن قلبه منذ رآه وآخرين في الإسطبل يعملون للبنت. يومها رأى ثوبا واسعا يطل من زور حربي، وعلم أن هذا الثقب كان هو سبب حشرجة صوته الذي يشبه النغمة الأخيرة في نهيق حمار

هائج عندما يكون مرتفعاً، وكصوت خمش أظافر في جسم أملس عندما يكون خافتاً. ولما علم بسبب هذا الثقب زاد نفوره وخوفه. فحربي نفسه هو من ثقب زوره عندما كان يبلغ هباباً أزرق ذات يوم فاخترق به حتى كادت روحه تخرج من دبره. لحظتها تناول الوصلة المعدنية من طرف لاي الشيشة وثبتها عند نهاية حنجرته وبضربة خاطفة ببطن كفه فوق فوهة الوصلة المعدنية استطاع ادخالها ليصنع منفذا للهواء مكنه من التنفس، وظل الثقب تذكارا ليما ليوم تحشيش طويل انتهى بعاهة مستديمة.

عاد علي إلى منزله في ذات اليوم وفي تناوله غداءً أعدته صالحين، بدا واجماً غاضباً، على غير عادته، وصار يتقصى حول علاقة أخته بهدى عضمة. وصالحين تسدد نظراتها إلى عينيه وقد أدركت أنه يخفي سرا، وأنها لسابرة أغواره. تحفظه دون بقية إخوته وتعرف كيف تستنطقه. قليل من التدليل والتشجيع والملاطفة والتطمين بكتمان السر حتى يعترف باكتشافه علاقة أئمة تجمع بين هدى وبين حربي الحرامي. تضحك صالحين من قلبها وتحكي له عن علاقات أخرى لهدى مع باعة الساحل وسائقي سيارات الأنفار بمطلع الزهراء، وتردف:

"ماتخافشي عليا يا قلب أختك.. أنا عندي أربع رجالة يسدو عين الشمس".

\*\*\*



8

## رزق العبيط

ولم يكن هناك اعبط منها



تمكنت صالحين، بثمن حمارة ناجي التي بيعت بعد إنقاذ روحها، من دفع بقية أقساط الجمعية دفعة واحدة. فتحت دفتر توفير في مكتب بريد جزيرة دار السلام. بالمبلغ المتبقي قررت شراء ثلاثة أزواج من الدجاج البلدي وزوج أرانب وبطيتين وزوج إوز أحدهما ذكر.

بعد أسابيع تتحول المساحة الخالية أمام باب غرفة معيشتهم إلى سقف ترابي يغطي شبكة أرضية من أنفاق ملتوية لا يُعرف نهايتها أو خريطة مساراتها، بداخلها عشرات من أرانب وليدة تشبه فئران جبلية بيضاء مختلفة الأحجام.

لم تعرف صالحين متى حبلت أرنبها ومتى أنجبت. لكنها فوجئت بأحد هذه الأرانب الصغيرة وقد دفعه الجوع فوق عند فتحة أحد الأنفاق مغامرا، ثم عاد مختفيا مذعورا داخله عندما بدرت في الجوار حركة. تتبعته صالحين بطرف عصا قصيرة أدخلتها فتحة النفق، وعندما اختفت العصا داخله دون أن تصل

إلى نهايته، استعانت بخرطوم جلدي دفعته للداخل بتؤدة وحرص.  
وتوقفت عندما شعرت بجسد لين يصطدم بطرف الخرطوم.

متى حفرت الأرنبه هذا النفق لتلد داخله!

دفعها الفضول لإخراج الصغار، فوضعت على طرف الفتحة التي وقف عندها الصغير حزمة جراوة خضراء. وأخذت تصطادهم واحدا بعد واحد. أقامت "عشة خشبية" كبيرة مبطنه بشبكة سلكية ذات فتحات ضيقة، وضعت داخلها وعاء مسطحا مليئا بالمياه وكمية من الخبز المبلول وأعواد الذرة، وقضت نهارا تحصي عدد صغارها الجدد وتعيد الإحصاء. تبيع عددا، وتراجع عن البيع. تطبخ بعضها بالملوخية الخضراء وتعود عن الطبخ. تتركهم يتوالدون، ما أسرع تكاثر الأنارب.

يوم سعيد جديد في حياة صالحين. تبتسم الحياة حين تظن أنها خلقت بلا شفاه. تعطي حين تعتقد أنها مغلولة اليد. قبلها بفترة قصيرة وجدت ذكر حمام محبوسا في فتحة "الكبانية" لا تعرف كيف سقط في هذا الحيز الضيق. ولم تنتبه لهديله وهي جالسة فوقه تستعد لقضاء حاجتها حتى سمعت هديله ورفيف أجنحته. وضعت كيسا في يدها كقفاز وأخرجته من بين الفضلات وغسلته وقررت أن تشتري له ونيسا. أبواب السماء تنفتح. من أعطى حماما بياضا أعطى أرانب ولادة!

في صباح جديد تستيقظ على صوت سرسعة مزعجة أليمة  
قبضت صدرها. تهزول للخارج فتجد أثارا لحفر تحت جدار العشة  
وبقايا جثث أرانبها الصغيرة تتناثر حولها. تنهار. تقول مولولة  
بعيون حمراء كحبتي طماطم ناضجة:

"اللي تجيبه الأرياح تاخده الزوابع". و"اللي حلم كذب اللي  
شاف"

العزسة تركت لها ثلاث فرد أرانب وقضت ساعات الليل في  
مص دماء بقيتهم. بدأت مجزرتها، فيما بدا، عند الفجر. سمعت  
صالحين استغاثة الصغار، لكنها غطت في نومها تحلم بمزرعتها  
البيضاء السعيدة تتقاذف في جنباتها الطيور والحيوانات. الحمد لله.  
ألم يقل المرحوم يوما إن عليها ألا تغتم لما تأخذ منها المصيبة وإنما  
تفرح لما تركت لها. هذه المرة تركت لها ثلاثة أرانب ستنام إلى  
جوارهم ولن تتركهم لابن عرس آخر يغتال أحلامها.

جلبت قفصا وضعت فيه الصغار وصارت ترعاها تحت نظرها  
داخل الغرفة. وبعد أربعة أسابيع رأت أحدهم أقل حجما ونشاطا  
فخمنت أنها كانت أنثى حبلى وأنجبت فمنحتها حزمة برسيم إضافية  
تعينها على الرضاعة. وبعد أربعة عشر يوما أخرى فوجئت بأربعة  
جدد بالكاد يغطي الشعر أجسادها الضئيلة عند فتحة النفق تبحث  
عن طعام.

وفي صباح باكر وسعيد فوجئت بأحد أرائبها الصغار، يعتلي أخته لثواني. يرتعش نصفه الخلفي بقائميته ثم ينقلب على أحد جانبيه مصدرا صراخا غير معتاد. شعرت معه للمرة الأولى بالخجل. وعندما تكرر شعرت بلذة. تطلعت حولها واستغفرت ربنا. تلذ أنثاها الجديدة خمسة أرائب في بطن واحدة. ويقول الشيخ يونس إن واحدا منها على اسمه.

وتكاثر زوج الحمام وصار سربا مدجنا. ذكر الأوز أدى دوره في تلقيح كل أنثى وقعت تحت قائميته. وصارت جاراتها تستعيره لتلقيح طيورهن. بينما ترسل زوجة أحمد الفران ابنتها ضحي بـ"بحة" سوداء. وكان عليّ هو من يفتح الباب لتدخل ببحتها وتلقي بها إلى ذكركم. يراقبان معا الطائرين حتى تنتهي العملية. يصعد الذكر بقدميه فوق ظهر أنثاه، قابضا على رقبتها بمنقاره الصلب. بينما تبسط له هي جناحيها لتساعده كي لا ينزلق. يميل بمؤخرته إلى الأسفل بينما ترفع هي مؤخرتها لأعلى حتى الالتصاق. وعند نزوله يشاهد عليّ عضوه أبيض كدودة تتدلى من بين ريش خلفيته ناصع البياض. وعندما يتأكد لهما تمام التلقيح، تستعيد ضحي بحتها وتعود. مرة سألته:

اشمعى البط بيتجوز وهو لسة قد النمنمة؟

في المرة التالية يدخلان العشة معا ويحاولان التزاوج.

تجربة أولى حاول خلالها أن يتحاشى النظر إلى ما بين فخذيهما

حتى لا يرى ما يدفعه للقيء على قدميها مثلما فعل مع البنت التي رآها مع عماد وحربي عارية داخل الإسطل قبل سنوات وظلت حاضرة في ذهنه مع كل مشهد رومانسي في كل فيلم عربي قديم. لكن ضحى كانت نظيفة بيضاء ناصعة لم يخالط بين فخذيهما زغب بعد. وانتهت التجربة فاشلةً بسماعهما صوت مصطفى عاندا من مدرسته، وكان آنذاك في الصف الثالث الابتدائي. كالعادة سيتوجه إلى ناحية العشة حيث قصارى زرع صغيرة مملأها بطينة سوداء من أعمال حفر صرف أمام مدرسته وغرس بها حبات ذرة جافة فصارت أعواداً خضراء يانعة يرويها فور عودته من المدرسة. عندما رآهما يخرجان معا مذعورين من العشة نادي عالياً:

**"كنتو بتعملو إيه؟"**

أسكته علي وأقسم بعد انصراف "البحه" وصاحبتهما أنهما كانا يحاولان الإمساك بالبطة ليتمكن الذكر من "تكثرها" وتوسل ألا يخبر أحداً. وظل مصطفى يذل أنفاسه لسنوات وسنوات، بينما ظل هو لثلاثة أيام متتالية يصلي الفروض الخمسة حاضراً خلف الشيخ صابر في زاويته الجديدة. يدعك جبينه في الحصر الخشن حتى تظهر ذبيبة صلاة في منتصف جبهته الصغيرة تشي بورعه وصلاحه. وقد ظل يشعر بأن شيئاً من بقايا ضحى علق بجسده، يراه كل من ينظر إليه!

\*\*\*

تضاعفت أعداد الطيور والأرانب وتضاعفت أعباء غذائها. اكتشفت صالحين أن تربيتها "تدي بالمعلقة وتأخذ بالجاروف".

شهور من الطفح، ليلا ونهارا، ولا تصل لسن الذبح. جاراتها في البداية كن يرسلن إليها بقايا الطبخ البايث والخبز الناشف وفضلات تنظيف الخضار، لكن "لأن أبو مية يحسد أبو حولية" سرعان ما جلبت كل منهن زوج طيور تلقمه فضلات طعامها. وصار عليها أن تضاعف حزم البرسيم التي يجلبها بائع البرسيم كل صباح.

تحمل زوج أرانب أو ذكر بط إلى بطرسة في الشارع الخلفي كل حين. وبطرسة تبيعها لإحدى قريباتها أو معارفها الكثر عند كنيسة الطاحونة. نصارى من خارج العزبة يأكلون اللحم عدا أيام الصوم. ثمنها لا يكفي ملح أسابيع. لا تحرم إختها من زفرها في مواسم عاشوراء ومنتصف رجب وشعبان وأول رمضان والمولد النبوي ومناسبات دينية، وأيام أخرى لا يجدون فيها خبزا بلا



غموس، فتضحى بأحد طيورها انتقاما من الجوع وإذلالا لحاجتها. بينما في أيامهم العادية تقول: "بياع الملوحة يأكل الأبراص".

تصطحبها هدى عضمة إلى ساحل أثر النبي حيث تعمل هناك من حين إلى آخر عندما يتمثل أحد أخويها، عماد وعربي، دور الرجولة فيمنعها عن الخروج حفاظا على سمعة العائلة، فتجد هدى في عمل الساحل حجة للخروج كافية لإشباع رجولة أخويها. تمضي مع صالحين عبر مطلع الزهراء الكبير. تتجاوزان الجيارة وشريط المترو إلى شارع مصر حلوان الزراعي ومنه إلى الساحل. حيث السوق الكبير ذى البوابات، المقسم إلى شوارع عالية لتجارة الجملة، قريبا من فرع صغير لنيل المعادي.

سيارات نقل كبيرة تحمل أرقام محافظات الصعيد وبحري. صنادل ومراكب شرعية قديمة تضع الحجر الجيري والأواني الفخارية وأجولة البصل والبطاطس وتعود محملة بالأقفاص والصناديق الفارغة والعمال العائدين إلى محافظاتهم بعد شهور اغتراب. بطيخ وشمام وكراتين فاكهة وعدايات خضراوات وبالآت أعلاف.

الساحل كسوق الجمعة، باب رزق للغلبة أمثالها. في سوق الجمعة يمكنك أن تبيع التراب، الزلط، الهواء في زجاجات البيبسي. فقط احمل شيئا من بيتك وضعه على فرشة وانتظر زبونا يفك

أزمتك وسيأتي! كل قشة لها زبونها. بينما في الساحل تستطيع أن تشارك في تحميل سيارات النقل وتعتيق بضاعتها وتشوينها.

تصل صالحين في الصباح الباكر لتشارك في التعتيق أو إنزال حمولات سيارات الخضار والفاكهة لتأتي بعدها عربات كارو وتروسيكلات ثلاثية العجلات ونساء يحملن مشنات لتجارة محدودة لا تتجاوز جنيهاً عدة.

لدى كل شادر بطيخ يبدأ مزاد سريع حول هرم صغير مرصوص بعناية يوضع كعينة من الزرعة. تجار بشوارب كثيفة دائماً يحملون رزم مالية تثير فزعها. ويثير فزعها بطيخة كبيرة، كبيرة بحيث لا تستطيع حملها، عندما يقذف بها المناول ليلقها زميله تسقط وتنكسر حمراء كالدّم. تشعر بالذنب وتدير ظهرها كمن يخفي آثار جريمة. شقت العين الحجر فلماذا لا تشق بطيخة حمراء مرملة؟

ينقض الصبية المتربصون حول السيارة على البطيخة كالأكلة تتداعى على قصعتها، وينحتون قشرتها بأسنان بيضاء ناصعة لم تسوّسها الحلوى والساكر. يذوب شعورها بالذنب على أشداقهم تتذوق عسل البطيخة.

يرسو المزاد فتذهب البيعة إلى أحد التجار. يقفز الأنفاز إلى سيارته لبدء التحميل. ستنكسر حبتا بطيخ أو ثلاث أخريات يتخطفها

الصبية أيضا. وعندما لا تجد لها متسعا بين الأنفار تتجه إلى بالات "التبن" والدريس والكُزْب. تستأذن المعلم صاحب المدرس لتغطس في تل تبن مرتفع انهمك الأنفار في تعبته في بالات مصنوعة من الشكاير البلاستيكية المنسوجة. بعد دقائق قليلة من العمل لا أحد يعرف ملامح زميله. يتعارفون من خلال أصواتهم وبعد أن يكسو الغبار الملامح والروؤس. تأكل صالحين تبنًا وتشمه وتسمعه. يبقى جريف الماكينة في أذنيها وبقايا تبن بغباره في حلقها يكفي لإشباع جاموسة عشر. تسمع أن التبن ضروري لهضم الحيوانات، ربما أهم من البرسيم الأخضر، فتطمئن.

هدى تتدبر حالها. لا تضطر إلى تعبئة التبن والدريس مثل صالحين. تعرف تاجرا طيبا يترك لها دوما مكانا بين العمال. طيبا، كان، يحرص دائما أن يربت على كتفيها برفق، وكان مستعدا لأن يربت على كتفي صالحين بعد أن أخبرته هدى أنها غلبانة وتسعى خلف رزق إخوتها اليتامى، لكن صالحين قالت: "بناقص"

تظل غطسانة تحت التراب والتبن ثمان ساعات متواصلة دون كلال أو جوع. فقط قلق أبوي على صغير تتركه صباحا وتخرج خفية، فيبكي حتى تعود. ولا تتوقف عن الذهاب إلى الساحل إلا بعد طلوع روجه وعودتها. تقول دائما أن محمد ابن موت.

\*\*\*

ذات عصر عادت على جلدها طبقة جليخ سميكة مصبوغة بصهد  
شمس قانضة، ما أن وطأت فتحة الشارع البحري حتى لطمت  
خديها.

كانت أنظار الشيخ يونس والعسكري وخليخ وأبوياسين ونسوانهم  
تبعث برسالة مقصودة أن: "معلش"، و"كلنا لها" تقلّب ناظرها  
بين إخوتها فلا ترى محمدا يقفز على ملابسها كبرغوت بردان في  
موسم التزاوج، فتعرف أن مصيبة وقعت لصغيرها.

في صباح نفس اليوم أرادت لو أخذته في يدها إلى الساحل.  
أخبرت هدى أنها ستحملة على رأسها أو تضعه في ظلة حائط حتى  
تنتهي ورديتها. لكن الأخيرة رفضت بوجه شرير. تحب السرمحة،  
وتخشى أن يروها بطفل صغير فيعتقدون أنها متزوجة فيكسد  
سوقها، قالت لصالحين:

"وصي مرات خليخ تطل عليه" فأجابت في نفسها:

"أجيب العامية ترد الرمية".

زوجة خليخ المعصصة. تعرف صالحين أنها طيبة، لكنها  
أيضا عبيطة. لا يتركها خليخ وحدها في دكانته لصلاة أو لطارئ  
حتى يعود ليجد كارثة فيخرج عن طوره صانحا مهللا. لا تجيد  
سوى الحبل، والإرضاع أمام الدكانة، تضع رضيعا في حجرها  
وتلقمه إحدى حلمتيها على رؤوس الأشهاد، ولا تضع لولبا كبقية

جاراتها لعيب خلقي يؤدي إلى انزلاقه دائما داخل الرحم. وقد قَنَع خليل بهذا الدور واعتبره كافيا.

محمد، عندما استيقظ ولم يجد صالحين بكى حتى نام، وعندما استيقظ ولم يجدها بكى حتى نام، وعندما استيقظ في الثالثة كان عليّ وناجي قد عادا إلى البيت يحملان عدة محارة لتبييض حوائط الغرفة وسد ثقبها الواسعة من الخارج. جلبا مسطرين ومخّارة وكوريك وطالوش خشبي مسطح أملس له يد سفلى.

أعدّ ناجي معجنة كبيرة، بشيكارة أسمنت وأربع شكاثر رملة صفراء ترك لعلّي مهمة قلبها بالكوريك جيدا حتى صار اللون متجانسا. صنع تجويفا وسط المعجنة وضع داخله مياها نظيفة، وعندما تشربّ الأسمنت المياها وصار الخليط سائلا، صعد ناجي فوق برميل صاج مقلوب، وبدأ برش بعض المياها فوق الحائط لتنديتها وغسلها قبل تمحيها، حتى لا يصبح التراب الذي يعلوها عازلا بين الحائط والمونة فيتسبب في سقوطها على الأرض وإهدار الأسمنت.

ناوله عليّ الطالوش مملوءة بخلطة الأسمنت والرمل وبعض الجبس الأبيض. وفيما كان مصطفى يلعب في أطراف المعجنة، كان محمد يطارد عقربا صغيرا خرج من بين الشقوق بعد أن جرفته المياها التي ألقيت فوق ثقب الحائط. أمسك محمد بذيل

العقرب المرفوع كصاري فلدغه. صرخ. ولولا أن رأى مصطفى العقرب بين أصابعه لتركوه في صراخه حتى ينام نوما أخيرا. قال مصطفى لعلي: **بُصّ! فبُصّ علي** واقترب محققا ثم أطلق بدوره صرخة مدوية:

**"أعرباااه!!"**

تلقت بطرسة الصرخة بعد ثانية وفي الثانية التالية أطلقت صرخة حقيقية طالت كل حي في خيرالله. خليل سارع بربط يد الولد بدويارة صوف اعتاد ربطها حول معصمه معتقدا أنها تسحب الوجع من مفاصله، حتى يمنع مرور السم مع الدم إلى بقية جسده. أعطوه شيفرة حلاقة "لورد"، جرح موضع اللدغة لتصفية الدماء الملوثة وطلب نصف ليمونة، سألت كل واحدة الأخرى حتى جيء بليمونة كاملة. حضر الشيخ يونس في يده زجاجة زيت تموين متسخة بها سائل لزج كالشحم وعقارب ميتة تسبح داخله. دفع خليل جانبا ونادى:

**"يا منجي الصديق من وحش التراب يا رب".** وبسمل.

وضع بعضا من سائل الزجاجة فوق موضع اللدغة، وأخرج مغناطيسا مستخرجا من سماعة راديو وحركه فوق الموضع كمن يحاول التقاط برادة حديد بين نشارة خشب وليس سُمّا يسري في جسد طفل، قال: **"حد يطلع بريزة وحتة حلاوة طحينية!"**

أخرج أبوياسين ورقة بعشرة قروش فأمسك العسكري بيده  
ممانعا، وأخرج بدوره بريزة جديدة قائلا:

"أهه بريزة فكة أهه.. والله أبدا".

فيما قال خليل: "انتو هاتتعاظموا والواد بيموت.. لا انت ولا

هو"

ومد يده بورقة نقدية أخرى إلى الشيخ يونس، وأمر زوجته  
بجلب الحلاوة الطحينية من الدكان. خطف الشيخ يونس البريزة  
وقلبها بين أصابعه ودفسها في جيبه ساخرا: "غلباان.. مش  
بقولكو غلبان، بريزة ورق ليه هانلعب قمار؟"

جلبت زوجة خليل الحلاوة الطحينية فدفس الشيخ يونس ثلاثة  
أرباعها في فمه قائلا:

"عايزين حطة زغيرة!"

أخرج من جيبه عملة معدنية وضع فوقها ما تبقى من الحلاوة  
وثبتها فوق اللدغة وربط عليها بمنديلته الذي لم يشم صابونة غسيل  
منذ تم نسجه. أمرهم أن يتركوا الولد في حاله ليأخذ نفسه بينما  
كان محمد مفزوعا تائها يبحث في الوجوه عن أخته صالحين أمه  
الغائبة.

كان نائما على وجهه آثار دموع وفزع ومخاط. عندما سمعت

صالحين القصة كاملة من مصطفى بتأثأة زائدة عن متوسطها العام في الدقيقة، أخبرها أنه هو من رأى العقرب لأنه يعرف شكلها. ذكرها بيوم سقط عقرب من سقف الغرفة في فردة حذاء ناجي، وأنه هو من رآها أيضا وكان يظنها خنفساء. احتضنته وكفكت دموعها بعد أن أخبرها الشيخ يونس مؤكدا أن اللدغة ستكسب ابنها مناعة. كانوا جميعا يعتبرون محمدا ابنا لصالحين.

وسألته من أين تأتي العقارب؟ قال إن عليها أن تتوقع خروجها من كل شق أو فتحة، وتحت أي حجر أو صخرة. كلها عقارب صحراوية سامة، لكن سمها قليل لا يقتل، يوجع فقط. العقارب عمياء لا ترى، ولهذا تسبقها خنفساء ترشدها إلي الطريق، ولها "مَسْكَة" لو تعلمتها لن تطالها لدغتها. سُمها معبأ في كيس يدخل في الجسد عن طريق حمة الذيل، فإن ابتعدت عن طرف ذيلها تفادت اللدغة. تخرج العقارب في الصيف للتراوح، وعندما تتزوج تأكل الأنثى زوجها حتى آخر قطعة، وتحمل البيض على ظهرها حتى يفقس، وبعد أسبوعين ثلاثة يأكل الأبناء أمهم حتى آخر قطعة أيضا.

يقول خليل وقد استمع ذاهلا إلى ما حكى الشيخ يونس: والعياذ بالله.. تكونش جاهدة السودا من نفس ذات الفصييلة؟

يتلفت العسكري يمينا ويسارا وينصحه أن يتقي الله، الولية



لم تمسّهم بسوء، يكفي أنها أمدّت بيت ربنا بفرع كهرباء قبل أن يصل الفرع العمومي إلى المفارق، نعم فعلت نكاية في الضبع لكنها فعلت. لو وضعت الضبع وسبعة ضباع أخرى في نافوخها لسخطتهم كلابا جربانة.

يستأنف الشيخ يونس: "الخوف مش من العقارب، الخوف من

التعابين!"

تعتبره صالحين تحذيرا مجازيا حول ثعابين إنس تلبد بين الشقوق لتبتلع فئراناً تسعى خلف فضلات خبز جافة، لكنه سرعان ما يضيف:

"لو شفتيها اصرفيها يا صالحين، لا تأذيها ولا تأذيكي".

تشهق وتخبط فوق نحرها. تتذكر يوم مرّ "رفاعي" يحمل جرابا رماديا وطرق بابهم ليسأل عن صاحب البيت. قال إنّ ثعبانا يلبد في المكان سيخرجه مقابل ما تجود به ولو كان ريالاً، رفضت وقالت لإخوتها أن هؤلاء الرفاعية ملاعين يخفون ثعابين تحت ملابسهم، ويخرجونها من أكمامهم للضحك على ذقون الناس. لكنه يمر مجدداً ويقول إن لدغة الثعبان ليست كلدغة العقرب وأن الله يحذرك يا بنت الحلال. يؤكد أنه لم يعد ثعبانا بعد أن وجد ونيسا وأصبح له عزوة، صارت عائلة. يبلغها أن الريال الصغير صار شلنا كبيرا، خمسة جنيهات كاملة، لكنها ترفض

أيضا. يتدخل ناجي وعلي يقولان أنهما سيتصرفان ويدفعان الجنيهاً الخمسة لاتقاء شر زواحف التراب، فتهدد إن دفعها لأحرقت البيت وهم داخله، يوميتها في تعبئة بالات التبن لا تتجاوز ثلاثة جنيهاً وصائد الثعابين يريد خمسة في شغلانة لا تستغرق عدة دقائق؟

تحت إصرارها يوافق الرفاعي أن يحصل على ثلاثة جنيهاً فقط، فتقابل موافقته بموافقة شريطة أن تحتفظ بالثعابين التي سيخرجها. "مزاجها كدة!"، تقول. يضطر الرفاعي لخفض المبلغ إلى جنيه واحد على أن يحصل هو على الثعابين فتوافق.

صلى على محمد وآله وأصحابه. طلب خروجه بما يرضي الله ورسوله والأولياء الصالحين وسيد أحمد الرفاعي. صدر فحيح مرعب من بين الحجارة. أقسم عليه بالله ورسوله والأربعة الباطنين والأربعة الأخطاب أن يخرج مع أهله دون أذى، ضرب عصاه بالصخرة، سأله: تخاف من العصا؟

لقى العصا وقال: طب ماتخافشي!

شمر أكمم الجلابية الواسعة عن ساعديه حتى الكتفين، ليتأكد للجميع أنها نظيفة لا تخفي ثعابين زائفة. مدّ يمينه بين الشقوق وأخرجها فإذا بها حية تسعى. ثعبان مرقط آثار فزعهم. كان كبيراً بدرجة مخيفة، ألوانه زاهية، يخيل للناظرين أنها تتغير. مد يده به

إلى صالحين فرفضت مفزوعة. تناوله علي معتقدا أنه غير سام. قال الرفاعي أن سمه قاتل، لكنه سيظل نهرا كاملا دون سم حتى يزول أثر "العزيمة"، بعد أشهر قليلة يمرّ مجددا وينادي عاليا أن لديهم عائلة ثعابين جديدة فتقطع عليه صالحين الطريق: "خليهم مشرفين، ماشفناش منهم وحش.."

\*\*\*



9

"بدون معلم.. في سبعة أيام"

"سجيد إجراء محادثات قصيرة مع الدكتور الأجنبي"



أراد علي أن يكون قائد طائرة. وأراد أن يصبح ضابطا. ثم أراد أن يصبح أمينا أو مندوبا متطوعا. وكانت تلك خطته البديلة في حال لم يتجاوز كشف الهيئة عند التحاقه بكلية الشرطة. كانت أعلامه تتراجع كلما تكشفت له حقائق بعيدة عن كتاب القراءة والأنشيد المدرسية ومسلسلات القناة الأولى المسائية.

ذات مرة أسرّ بأمنيته للشيخ صابر، الملتحي الذي اشترى نصف منزل سيد العسكري وأحال نصف النصف إلى مسجد صغير، وعلمه رفع الأذان والإقامة وساعده على حفظ جزء عمّ كاملا، قال له صابر مستهجنا:

"ليه يابني.. الداخلية دي جهاز فاسد؟"

امتعض علي ولم يفهم. كان الشيخ صابر من قليلين أحبهم، لكن شيئا في نفسه دفعه للجزع من الرجل، وأفسد عليه المحبة. خاصة عندما أبلغه صابر دون وجل أو تردد أنه لا يحب حسني مبارك، فرأى ذلك شذوذا. من الذي لا يحب رئيس بلده البطل حربا

وسلاما، ومن الذي لا يحب الشرطي حكمدار العاصمة وهو يبحث عن أحمد إبراهيم الساكن بدير النحاس ليمنعه من شرب الدواء لأن به سم قاتل. كيف يكون فاسدا؟ وتذكر يوم قالت صالحين:

**"اعمل الطيبة في الكلب وماتعملوش في الجندي".**

يعرف أن صالحين تجتر أمثالها بالتداعي، فقط تنطق بأقرب مثل يعن على خاطرها إذا صار ما يذكرها بكلمة من كلماته، أو موقف قريب الشبه بمضمونه. تردد المثل دون أن تقصد معناه بالضرورة. كما أنه لا يريد أن يكون جنديا. ضابط، ضابط يا صالحين.

كان يلتقي الشيخ صابر على الجبل في طريقه لمحطة دار السلام خلال الفصول الدراسية الأولى في الخامسة صباحا، فيقبض الرجل على كفه الصغيرة بيده العارمة الدافئة. يسير بخطوات واسعة تضطره للعدو. يحمل عنه الشيخ صابر حقيبته أو يحمله هو نفسه على ظهره ليرى العالم بقامة رجل فارح الطول عريض الصدر. يصلان محطة دار السلام القديمة فيشتري له من بائع فطير بجوار المحطة واحدة ساخنة بالسكر أو البسبوسة، ويدس في جيبه "بريزة" ورقية جديدة، كانت دائما بريزة جديدة، حتى بريزة الفضة كانت جديدة، بل كان يمنحه ربع جنيه كاملا حال كان بائع الفطير مزدحما وليس لديهما متسع للانتظار، يتمنّع قليلا فيصرّ



الشيخ ويخبره أنه "زي ابنه" فيرضخ علي ويدسها في جيبه وهو يعلم أن الشيخ صابر لم ينجب بعد.

كانت الفطيرة شهية وحلوة وساخنة يستغرق ثلاث محطات كاملة للانتهاء منها. بعد سنوات سيبحث عنها بجد ولن يجدها. ينزل الشيخ صابر في طرة حيث يعمل بمصنع الأسمنت بينما يواصل هو إلى المعصرة حيث المدرسة.

نصحه عدة مرات أن يصلي العصر في المسجد ليساعده في حفظ بعض السور المقررة في منهجه الدراسي بعد أن أخبره علي أن الدين هو أصعب مادة دراسية تواجهه، لأنه لا يجد من يساعده في حفظ السور وقراءتها صحيحا، بل يسرّ له بأنه عندما استعان في حفظ سورة الواقعة بعم الشيخ يونس، انضرب على ظهر يديه بخيرزانة ورّمت أصابعه. والحمد لله أنها لم تكن مادة رسوب ولا تضاف إلى المجموع.

عاد من مدرسته ذات يوم ليجد سكان الشارع يلوكون قصة مفادها أنهم أخذوا الشيخ صابر، جاءوا إلى بيته ظهرا وساروا به إلى قهوة مجاهد في شارع الصيانة وهناك نتفوا له شعر ذقنه شعرة فشعرة، ضربوه حتى بكى أمام زوجته وجيرانه ثم أخذوه.

- من؟

- حكومة!

لكنهم لا يرتدون ملابس الحكومة، يومها تذكّر كلمته: ليه يا بني ده جهاز فاسد. يومها أيضا رأى سيد العسكري يحكي الواقعة لسكان الشارع البحري في سعادة، فاعتقد أن خصومة كانت بين العسكري وصابر، لكنه علم فيما بعد أن الحكومة اعتبرت الشيخ صابر خطرا فاعتبره السكان كذلك، أو ربما كان فعل العسكري نوعا من السعادة الحقيقية لأن ابتلاء ربنا جاء بعيدا عنهم، أو ربما لأن الشيخ صابر لم يسمع الكلام بأن يبقى في حاله ولا يخرج لسانه خارج زاويته. كان لديهم جميعا ميل فطري لتصديق كل ما تذيعه الحكومة عبر أية وسيلة، حتى لو كانت أحد مرشدي المباحث المنتشرين في خير الله.

بعد أيام قليلة من زيارة الحكومة تلك لم يكن في العزبة ملتح، حتى الشيخ عدوي الذي أحال جزءا من بيته أيضا إلى زاوية للصلاة جزّ ذقنه الكثيفة كحقل برسيم أعمل فيه مَحَشًا حادًا.

كانت الحكومة تستطيع التوغل في أعماق العزبة للقبض على أحد الشيوخ، لكنها لم تفعل لتنفيذ حكم في أي من الهاربين في أكنانها، كانت تستطيع اقتحام منزل أحد المطلوبين لكنها لم تستطع اقتحام منازل عدة في مهمة واحدة.

الشوارع الضيقة والحارات الملتوية لم تسمح بدخول مفاجئ لسيارة شرطة، وكان اضطرار أفراد المباحث للسير داخل هذه الأزقة مغامرة خطيرة، وإنذارا مبكرا للمطلوبين يسمح لهم بالاختباء.

وفي الغالب لم تكن هناك حالات اقتحام سوي للقبض على ملتحين أو مطلوبين في حوادث القتل دون غيرها.

\*\*\*

عندما انتهت السنة الدراسية الثالثة وبدأت الإجازة، طرق سيد العسكري وزوجته باب صالحين ومعهم زيارة. باكو شاي وكيس سكر وعلبتا كبريت في كيس أسود بلاستيكي. هي الزيارة المعتادة بين الجيران حتى لا يدخل أحدهم على آخر بيد خاوية. وكانت صالحين تعمد دائما إلى الاحتفاظ بهذه الزيارات دون أن تفتحها، لتتحين الفرصة القريبة لتعيدها إلى صاحبها أو صاحبته بعد أن تستبدل الكيس الذي يغلفها، حتى لا يكون لأحدهم عليها فضل ولا جميل.

أخبرها العسكري أن صديقا له يعمل في مطعم التحرير الذي انفجر إلى جواره مقهى وادي النيل، يبحث عن صبي يجمع الأطباق الفارغة من المناضد بعد رحيل الزبائن ويعيد ملء أكواز المياه للزبائن مقابل جنيه ونصف يوميا، مردفا أنه لولا خيابة ابنه سعيد لوضعه في الشغلانة.

في الصباح ومع انسحاب آخر خيوط الظلام، يتوجه علي إلى محطة المترو مستقلا القطار إلى محطة السادات، وكان المطعم

في مقابل المحطة النفقية مباشرة. استلم مهام عمله وفوجئ بأن له ثلاثة سندوتشات يختارها بمجرد أن يغير ملابسه وقبل بدء العمل مع كوب شاي بالحليب الساخن. فوجئ أيضا بأن بعض الزبائن يمنحونه بقشيشا يتجاوز مجموعته مقدار يوميته الجنيه والنصف. في الرابعة تنتهي نوبتيته ويعود لإخوته يقص لبقية ساعات اليوم ما رأى وأكل وأخذ. ويعطي لمحمد شلنا يشتري به "بوزو" ولمصطفى شلنا يدخره لشراء دراجة، والبقية لصالحين. في البداية اعتبرت قبوله للبقشيش انتقاصا من قيمته، وشينا فشيننا قبلت الفكرة لكنها ألحت أن يظل عزيز نفس، وألا يعتاد مد يده لقبول العطية. ولم يكن علي بحاجة إلى نصيحتها تلك.

تمر ساعات العمل ثقيلة كظل شمس الظهيرة. بينما يظل هو يتحرك كمروحة صيف. وعندما يتوقف قليلا ليمنح الدم فرصة للوصول إلى شرايين قدميه المجهدتين، كانت إشارة صاحب المحل له بالسبابة في شكل حلزوني تدفعه للحركة. الإشارة التي تعني: لا تقف.. تحرك.. واصل الحركة. فكان عليه أن يعدو من السادسة صباحا حتى الرابعة عصرا. أن يتناول سندوتشات الصباحية وهو يعدو. يستجيب إلى طلبات الزبائن التي لا تنتهي وهو يعدو. ينظف المناضد وهو يعدو. وفي نهاية اليوم أن يغسل واجهة المحل الزجاجية بالصابون ويجففها بورق الجرائد ويغسل المناضد الرخامية ويرش نشارة الخشب على بلاط الأرضية وهو يعدو أيضا. حتى وهو

يقف أمام الحوض ليغسل الأطباق والأكواب الإستانليس يجب أن يعدو، أو على الأقل أن يحرك قدميه باستمرار أثناء الوقوف كبطة تستدعي صغارها حول حبوب الذرة المدشوشة، حتى لا تستقران على الأرض فتببطا حركته، أو كما قال صاحب المطعم:

"عشان ما تتقلش على الأرض".

وكان، أحيانا، يضطر للاستئذان بحجة دخول الحمام من أجل ثني قدميه بالجلوس مفرصا لدقائق معدودة، تعود خلالها الحياة إلى رجليه القصيرتين.

أظهر استجابة جيدة وقدرة على تعلم الكثير في فترة وجيزة، وموهبة أن يصير محبوبا.

في مرة، جمع الصنایعي المسؤول عن فاترينة اللحوم بقايا صينية الكبدة، ووضعها في رغيف شامي أبيض صغير وأعطاه له بعد انتهاء وريدته، بدلا من إلقاءه في القمامة. وانتظر علي رجوعه البيت وأفرغ الرغيف في طبق صاج وقام بتسخينه ليشارك إخوته الوجبة الدسمة. وبعد فراغه، نزفت أنفه الكثير من الدماء. ولم يتوقف النزف إلا بعدما أرقدته صالحين على ظهره ورفعت أنفه وسدت فتحتها بسبابتها وإبهامها. أفتى الشيخ يونس أن الكبدة دم، وأكلها رفع معدل الدم الفاسد في جسده فخرج من أنفه، وأوصاه في المرة المقبلة أن يدعو لمشاركتهم ولو بنصف رغيف بلدي!!

بعد أسابيع قليلة قالت زوجة خليل المعصصة إنه، اللهم صل على النبي، وجهه استدار. فقرأت صالحين "الفلق" وأقرأت عليه الشيخ يونس قرآنا. وكان عليّ قد ابيضت بشرته، بعد أن ابتعد عن خيرالله الشمس والتراب. وامتلاً قليلا وبرزت عضلاته نتيجة حرركته وعمله الشاق مع تغذية جيدة.

كان صغرُ سنّه وقصر قامته مشجعين لزبائن من الموظفين وطلبة الجامعة والحبيبة المترددين بين دفع بقشيش وتوفيره لأسباب اقتصادية بحتة، ليمنحوه "شلنا" أو "بريزة" لا تؤثر في ميزانيتهم. وفي نفس الوقت تمتلأ نفوسهم بشعور العطاء والكرم. لكن هذه الأفضلية سرعان ما أنبتت بقعة زيت سوداء، كزيت قلية الفلافل، واسعة في قلب صناعي الأرضية. ظهرت على ملامحه بعد أن رأى أن "الواد بياخد بقشيش أكثر مني؟؟"

فأخبر صاحب المطعم أن علي يبص للزبائن في طعامهم، وأن عددا منهم اشتكوا، قال:

**"عيل محروم ماينفعلش في يشتغل في مكان زي ده يا حاج"**

وحتى يؤكد اتهامه طلب من علي أن يدقق النظر في الطلبات الموجودة على المنضدة أمام أحدهم، ليرى الفول أمامه بالببيض أم بالصلصة لأنه نسي تدوينها في "الأورد". فيما طلب من صاحب المطعم مراقبة علي ليصدّق ما يدعيه عليه. والسبب لا يعلمه علي

عاد سريعا إلى الصنایعي وأخبره فيما يشبه الصياح على مرأى  
ومسمع من الحاج صاحب المطعم:

"ما عرفتش أشوف إيه اللي في الطبق اللي انت شاورتلي عليه  
يا أسطى!!"

ليسمع بعدها الحاج يتهم الصنایعي بأنه "راجل وسخ عامل  
عقله بعقل عيل"

\*\*\*

تَدخِر له صالحين يوميته ولا تنال منها إلا القدر اليسير. وعندما  
تنتهي الإجازة تكون قد ادخرت له ما يكفي لدفع مصاريف المدرسة  
والكتب والحقيبة والملابس والقرطاسية (الألوان الفلوماستر 12  
لوناً، ومقلمة على غطائها خريطة العالم، وقلم فرنساوي بسن رفيع  
ومجموعة كشاكيل، وقيمة اشتراك المترو حتى لا يضطر لدفع  
قيمة تذكرة ممغنطة يوميا).

في العام التالي يذهب، بعد امتحان اليوم الأخير، ليبحث في  
شوارع وميادين وسط البلد عن عمل. يبدأ بالمطعم الذي اشتغل به  
العام الماضي. يخبره الحاج أن المكان مشغول، يرسله إلى محل  
عصير على مقربة من أحد مطاعم الوجبات السريعة في شارع

طلعت حرب، "جنة الفواكه"، بتوصية أنه عيل ناصح وبتاع شغل وعلى ضمانته. يقبلونه.

تصبح وظيفته الجديدة تنظيف الفاكهة وتقشيرها وفرز الصحيحة من المعطوبة وغسل الأكواب وتخزين البقايا في زجاجات بلاستيكية ووضعها في الثلاجة، ثم يوكل إليه تقطيع حبات التفاح وأصابع الموز إلى شرائح بعد أن يثبت مهارة سريعة في استخدام السكين. عمله في أرضية المطعم سابقا أكسبه خفة حركة واضحة وفهم لطبيعة المهام التي يحتاجها أصحاب هذه الأعمال. صار أداؤه سريعا. يتعلم ويستجيب سريعا ولا يرفض القيام بعمل يوكل إليه. لا ينسى. يبادر بالتصرف لإيجاد حل لمشكلات صغيرة تطرأ دوما دون انتظار لتعليمات أسطى أو معلم أو صاحب عمل.

في الإجازة التالية يحرص صاحب المطعم أن يُخلي له المكان قبل بداية إجازته، ويبلغ سيد العسكري، الذي يحرس أنذاك سنترال التحرير المجاور، أن يخبر "علوة" ليستلم عمله فور انتهاء الامتحانات. يمرّ العسكري بعد انتهاء نوباتشيته الليلية على بيت صالحين ليبلغ الرسالة ويوسط "علوة" في نفس الوقت لتشغيل ابنه سعيد، لأنه صاحبه و"من دوره" ويريده أن يتعلم شيئا ينفعه، فيعده علي أن يفعل.

لكن مشادة غير متوقعة تنشب بين صاحبي المطعم ومحل العصير تنتهي بأن يرفع صاحب المطعم يومية علي إلى ثلاثة



جنيهاً ليحتفظ به، فيجلب عليّ سعيدَ ابن العسكري ليعمل بدلا منه لدى محل العصير.

يخبر العسكري الشارع البحري أن الميدان كله يعرف علي ويقولون له "علوة"، بينما يخدم هو عشر سنوات ما بين البريد والسنترال وعمر أفندي وشركة الطيران والبنك ولا يحظى بمثل هذه الشهرة. يا علو!!!! هكذا يدعونه عندما يمر بقامته القصيرة يدفع عربة يد ثنائية صباحا عائدا من مخبز عبد الهادي في عابدين بالخبز الفينو!

تمر أسابيع قليلة ويصرفه صاحب المطعم قبل انتهاء دوامه بعد تفتيش روتيني للقوى العاملة يهددونه فيه بالغرامة، لأن المنطقه سياحية والعالم عينه علينا ولا يصح تشغيل طفل في سن المدرسة في أعمال شاقة كأعمال المطاعم. ولا تفلح توسلات صاحب المطعم لدى المفتشين، لاستبقائه حتى لا يصير شحاذا أو بائعا جوالا في إشارات الميدان بين عشرات من الأطفال المشردين الذين لن تطالهم يد "القوى العاملة" يراقب علي توسلاته وما يبديه من حرص على مستقبله المهني ولا يستطيع أن يزاوج صورته هذه بتلك التي يشير له فيها بسبابته إشارة حلزونية عندما يهم بالوقوف دقيقة ليلتقط نفسا. يعلم أنه مشغول فقط باضطرابه لجلب بديل له يؤدي مهامه بكفاءة أقل بأجر يومي أكبر.

لكن شاورمجي يعمل على فاترينة مأكولات بمقهى المصريين الذي يمتلكه نوبيون بجوار مكتب البريد يطلب "علوة"، ويتوسط له لدى صاحب المقهى. يتعلم تقديم الشيشة رافضا أن يضطره أحد الزبائن لسحب نفسين لتسليك الحجر. وتصبح ردة فعله على طلبات كهذه ماثرا لفكاهة بقية عمال المقهى وزبائنه الذين يجزلون له البقشيش والمداعبات. وعندما يرفض طلب أحدهم أن يجرب شيشته، يقول الزبون إن طباخ السم يتذوقه، فيرد عليه بتلقائية ردا يثير ضحك الجميع "ولما انت عارف انه قطران.. بتطفحه ليه؟"، موليا إياه ظهره، منطلقا إلى بقية الزبائن.

وكان صاحب المقهى يترك عماله في الثانية عشرة "يشطبون" العمل. يغسلون الأرضيات والحوائط ومقاعد الخيزران وينثرون نشارة الخشب فوق البلاط ويعود بعد انتهائهم وهو سكران "طينة" ليتسلم إيراد المقهى بعد حساب عدد "الماركات" وتحويلها إلى نقود. ولا يخبر علي صالحين بعمله الجديد لكنه، وتحت إلحاح رغبته في حكي تفاصيل يومياته الجديدة كما اعتاد دوما، يقول ويقول حتى تستوقفه بشهقة عالية وضربة فوق صدرها. تقول إنها لو اشتمت في نفسه رائحة دخان شيشة أو سجائر أو هباب أزرق سنقتله، تقول صالحين "تولع القلوس ولا ترى واحدا منهم شمام أو صايغ". وحتى تبرهن على صدقيتها، تقلب جيب بنطاله وتخرج جنيهات يوميته المكرمشة، وتجلب "حصالته" المعدنية وتخرج

مدخراته وتسكب فوقها بعض الكيروسين من وابور الجاز أبو شرائط قطنية وتشعل عود كبريت وتلقيه فوقها ببرود، لكنها تسمح له أن يخمدها بيده العارية قبل أن تلتهمها النار، لتؤكد لجاراتها ظنونهن بأن "عندها دقة عبط".

وأجهد عليّ البحث عن عمل بديل، إلى أن أخبره أحد سريحة نظرة أن مخبزا افتتح قريبا، يشتغل به أحمد الفران "اللي عنده التسجيل التوشيبا الاستريو"، بينما كان يعرفه عليّ أبا للبننت ضحى صاحبة "البحة" المتطلبة، التي أجبرته صالحين أن يفتح لها العشة، لتفتح له ضحى بدورها بابا أول على حديقة الجسد، ليقطف منها ثمرات بازغة لم تنضج بعد، وتعطي له سببا لانتصاب عضوه الذكري من حين إلى حين.

قال سردوح السريح أن بإمكانه أن يعمل مع أحمد الفران على "السحلة" ورص الأرغفة التي تخرج من الطاقة الحجرية على أقفاص مسطحة لتهويتها. يقبل عليّ، ويشرب المهنة في نصف نهار، لكن هُبُو الأرغفة يحرق جلده، تخرج قطعة العجين من جوف النار وقد انتفخ بطنها بمارد من بخار مكبوت، ما أن تلمس الأصابع وجه الرغيف حتى يلفحها، فتخلف فقاقيع حمراء بارزة على سطح الجلد حين يفاها تنفجر بمياه مالحة، تذوقها بلسانه فضولا.

بعد أيام، صادفت بداية شهر رمضان، أجبره صاحب الفرن على مشاركة بقية الصبيان في البيع، وأصبح عليه أن يضع رغيفين "سحلة" فوق رأسه كـ"حواية" يُنْبَتُ فوقها "برنيكة" بفتحات واسعة ممتلئة بالخبز، ثقيلة كهضبة، يزداد ثقلها في صيام رمضان ولا تسمح لرقبته بالالتفاف يمناً أو يسرة، فلا يرى إلا موضع قدميه. ينخرس حوص البرنيكة في حواته فتحفر في نافوخه طرقاً معبّدة تفترشها حبات النخالة المتساقطة من قعور أرغفة الخبز الخشنة. بعد خطوات قليلة تزداد وطأة الحمولة، تحتاج البرنيكة لإنزالها أربعة أذرع على الأقل. باكيا يكمل طريقه متشبثاً بشبابيك القفص حتى لا تسقط خمسة جنيهات من الخبز الملدن فتافيت مكسرة على الأرض سيضطر لدفعها من يوميته. يمر في طريقه بالبيت، تعطيه صالحين كوب ماء بارد "للمضمضة" وهي تعرف أن قطرات مياه ستنزلق إلى جوفه المتشقق عطشاً، تشفق عليه، تقول إنه يجوز له الإفطار، يرفض ويدعو الله ألا يبطل صيامه بسبب قطرتي مياه ليستا باردتين جداً سقطتا "عرضاً" في جوفه.

يدور في الشوارع القريبة من خيرالله ينادي "أبوووة العيش اللوز" لكنه لا يعثر على حرامي أو مجنون أو ثري يشتري رغيفا بعشرين قرشاً. يقرّر الذهاب إلى شارع الفيوم الممتد من جزيرة دار السلام إلى منطقة أبو أشرف فيشكوه زملاؤه لصاحب الفرن، فيمنعه الأخير من الخروج عن حدود خيرالله، حتى لا يقتسم

الزبانن مع زملاءه. يترك المهنة بعد أيام قاسية لا يتذكر حسنا منها سوى فتافيت من وجه رغيف أحمر محمص تساقطت يوما في يده من فتحات البرنيكة ليقرمشها بتلذذ، ناسيا صيامه، فيما أعاد قعر الرغيف لصاحب المخبز كدليل على أنه قد تلف ولم يتم بيعه، وحتى لا يخضم ثمنه من أجرة يومه.

وتبقى تجربة الأيام القصيرة التي حمل فيها البرنيكة فوق رأسه فدكت جسده، علة مناسبة يبرر بها قصر قامته مقارنة بإخوته. ناجي كان فارع الطول قبل أن يبلغ السادسة عشر.

يعود للمقهى ويستأنف عمله في تقديم الشيشة وقد قرر أن يحتفظ به سرا صغيرا لن يخبر به صالحين، إلى أن تنتهي شهور إجازته ببطئ موجه. إجازة ثقيلة تشوق خلالها إلى صفه الجديد في الإعدادية، حيث يدرسون الإنجليزية، ويخلفون المريلة ذات اللون الصحراوي الباهت إلى البنطلون والقميص الأزرق السماوي وأجلاسيه من ورق مقوى يحمل صورة ممثل أجنبي لا يعرف اسمه.

يتسلم كتبه الدراسية في اليوم الأول، عدا "ويلكوم تو إنجليش". يدخل المدرسون جميعا فصولهم عدا مدرس الإنجليزية. يمر أسبوعان يعثر خلالها على "بدون معلم تحدث الإنجليزية في سبعة أيام" بين دشت جاره حسن الكتبي. يعينه في حفظ أسماء

الشهور وأيام الأسبوع والأرقام وجود مورننيج وجود إفتنيج وجود أفترنون. ثم تصبح المدرسة عبنا جديدا مع مدرس جديد، كانت أولى حصصه اختبارا مفاجئا تظهر نتيجته في اليوم التالي. ستون تلميذا لا يصل أي منهم إلى نصف درجة التقويم، بينما ورقته لم تُصَحَّحْ، ولا تحمل درجة نجاح أو رسوب! وعندما يسأل المدرس طلبته واحدا بعد الآخر: هاتعمل إيه في نفسك؟ وتكون إجاباتهم:

"هاخذ درس"، "مجموعة"، "هسال أبويا"

يحل دور علي فيجيب: "أنا مخدمش درجة"

يسأله المدرس الثقيل وقد بدا أنه تذكره: بتأخذ عند مين ياد؟

ويسود أيامه تاليا، معتقدا أنه يتلقى درسا خصوصا لدى غيره. يتغيب علي في أغلب أيام حصص الإنجليزي، لكنه يستطيع - رغم ذلك - أن يتعلم ما يمكنه من إجراء حوار مثير مع الدكتور سوتشيك، أحد متبرعي المنظمة، منظمة بلان، وأن يقرأ الرسائل التي كان يرسلها إليه كل عدة أشهر مرفقة بورقة نقدية ملونة يحمل ظهرها صورة لشخصين كتب تحت أحدهما جملة

**'I can think of nothing else but this machine**

وتحت الآخر جملة

**I sell here, Sir, what all the world desires to have-POWER**

بينما كان وجه الورقة يحمل صورة امرأة مبتسمة تضع تاجا ملكيا ولا تقول شيئا، كانت واحدة من هذه الورقات كافية بعد تبديلها بعملة مصرية لشراء ملابس جديدة له وإخوته.

\*\*\*





10

العِثْرَة

يقولون إنه ملبوس بعفريت الحجر



أقسمت صالحين، بعد لدغة محمد، ألا تعود إلى سوق الساحل. ستكتفي بوضع "فرشة" خضار عند الملعب، مشنة طماطم وقفص بطاطس وجوال بصل وربطة جرجير كبيرة تجلبها كل صباح في سيارات الأنفار أسفل مطلع الزهراء. جلبت ميزانا قديما ونصبت ملاءة مهترئة شدتها إلى قالبين أسمنتيين كمظلة، متخذة مكانا في سوق فقير يفتersh فيه بعض الباعة بخضراوات بائسة وهياكل دجاج وخبز، لكنه يحتل موقعا مميزا في شارع الصيانة.

كانت فرشتها قريبة من مغلا عبد الجواد الذي كان بيته آخر بيوت العزبة التي كسر ناجي حجارته، ودامت بعدها علاقة نادرة بين المعلم صاحب مغلا الخشب وبين ناجي الحجار. كانت خير الله تعرف عبد الجواد منذ جاء بأهله مسلحين في سيارات نقل لعراك الضبع ورجاله حول قطعة الأرض لتصبح له بعدها مهابة ونفوذ بين السكان الأشقياء والمسجلين قبل الغلابة والمساكين. في ذلك اليوم أخبر عبد الجواد ناجي أنه لن يدفع سوى نصف المقابلة التي اتفق معه عليها لتكسير الحجارة، وكان ناجي يعمل على آخر

قطعة حجر تحت شاقوفه. وواصل ناجي في هدوء وبرود ضرباته المتتالية في بطن الصخرة، كمن يستمع إلى دعابة سخيفة أطلقها طائش، قائلاً إنه قطع الحجارة على مقابلة بقيمة أربعة عشر جنيتها، وأنه قتل آخر قرش في المقابلة، بل أضاف:

"بيني وبينك رقبتى يا معلم عب جواد، لو نولتها هاخذ معايا واحد من عيالك إن ماخدتش رقبتك انت".

كانت كلماته صاعقة ضربت وجه عبد الجواد، لكنه انفجر ضاحكا غير مصدق أذنيه، أعطاه مقاولته كاملة وزيادة. وأقسم عليه بالحرام من بيته أن يتناول معه الغداء. أخبره أنه لا يأكل مالا حراما وإنما كان يرغب في معرفة القيمة الحقيقية للمقابلة. وتناول ناجي غداء دسما مزفرا مع الرجل، فيما ظل عبد الجواد يرقبه كمن يشاهد كائنا خرافيا. وعندما كان يمر ناجي أمام مغلاه تاليا كان عبد الجواد يحييه واقفا وبصوت جهوري يسمعه الجميع، يحييه كما لا يحيى كبارا في خير الله أصحاب صيت وعزوة:

"اتفضال يا عترة"

وكثيرا ما استوقفه لشاي أو ساقع وتبادل معه أحاديث منفردة. علاقة أكسبت ناجي في هذه السن المبكرة احتراما من كثيرين، بل كان لها أثر في طباعه وسلوكه، حتى رجال الضبع ظنوا أن بين عبد الجواد وناجي صلة قرابة أو مصلحة فاجتنبوا طريقه.

صالحين أخبرت ناجي ذات يوم أنها آخر من يعرفه. اكتشفت أن أباها الذي تكبره بأربع سنوات كاملة عاش "ياخذها على قَد عقلها"، يستجيب لها مثل محمد ومصطفى. لا يغضبه صوتها العالي وصراخها الجنوني وأوامرها التي لا تنتهي، بينما يستجيب رجال بشوارب لأوامره خارج جدران غرفتهم الصغيرة.

مرت الأمور طيبة. تضع صالحين فرشتها صباحا وتجمعها بعد منتصف النهار. جاء صندل وأبوتلاتة وحنفي، رجال الضبع، يجمعون الأرضية من باعة السوق، ردّد صندل على مسامعها كلمات غزل ثقيلة اعتاد إلقاءها على كل نصف امرأة يقابلها مؤولا رد فعلها لصالحه وإن كان بصقة في وجهه. أبلغها إنه سيعفيها من الأرضية لتعرف قيمته وتقدره، بينما هي تضع أصابعها في كيسها لتخرج قيمة الأرضية وتضعها على طرف المشنة وتقول:

"زي زي غيري"

وفي يوم شتائي بارد، جاءها ناجي بوجه أريد، يطلب منها الانصراف عن فرشتها ليحل مكانها. كانت في العادة لا تستجيب لطلبات مفاجئة منه أو من غيره خاصة ما يخص منها "أكل العيش"، لكنها قرأت إصرارا في ملامحه، فوضعت محمدا في يدها ومضت. قبلها كان أحد سريحة نظرة يخبره أن صندل وحنفي رجلي الضبع هما اللذان وضعوا السم لحوارته وجحشها، ولم يكن

في نيته أن يحكي المزيد، حتى أمسك ناجي بتلابيبه ليحكي له عن سبب فعلهما، فقال إنهما أرادا إيقافه عن ذلك العمل، لدفع صالحين للعودة لنقل المياه بالبستلة من حنفية عزبة "أبوقرن" حيث كانا ينتظرانها في المجيء والرواح. وأفلته ناجي وذهب إلى صالحين وكان يعلم بمرور صندل وحنفي لجمع الأرضية، لكنها أمطرت فانصرف الجميع ولم ير أيا منهما.

أيضا أخبره سردوح أن صندل تجرأ ذات يوم ووضع يده على خصر صالحين في مطلع العزبة أمام بيت حربي، المطلع الصغير الذي يصل خيرالله بعزبة أبوقرن، فأسقطت صالحين فوق رأسه "بستلة" المياه الممتلئة وعادت بها فارغة. وتذكر ناجي يوم عادت صالحين ببستلتها فارغة تبكي مدعية أنها "اترحلقت" فالتوى كاحلها.

في ذلك اليوم، حيث واقعة بستلة المياه، وأيام أخرى، اختفي صندل عند كتف بارز بين بيت حربي وبيت جاره في المطلع الضيق منتظرا صالحين تحمل المياه على رأسها تحت حواية صغيرة من إشارب مزهر، تتقاطر المياه على ملابسها فتجسد تفاصيله، يلتصق هو بحائط جانبي ويفتح أزرار جاكيت المخبرين وسحاب بنطاله ليفعلها في الشارع. ذات مرة راقبته زوجة حربي وتأكدت أنها لم تكن فقط "فك مية"، اشتكت لزوجها فعل صندل الفاضح الذي خدش حياءها التائه. اكتفى حربي بتمرير القصة إلى

سردوح السريح، لينقلها ساخنة إلى ناجي علّه يحمل الشكوى إلى الضبع فيمنع رجله عن خدش حياء نسوانه مجددا. سردوح أيضا انتأى بأجفان زوجة نظرة خلف تانك مياه بلاستيك داخل الشونة وضاجعها مستثارا بمشهد تخيلي لصالحين عارية الساقين تغمرها المياه تغمز له بطرف عينها.

كانت صالحين، حين وضعت "البستلة" فوق رأسها وسارت تحت ثقلها بتؤدة تشد قامتها وتضع قدما أمام قدم، تبلل جلابيتها قطرات المياه المتساقطة، تمثالا منحوتا من رخام مرمرى أبيض، أقرب شيها بالمتثلة ليلي حمادة التي تحتفظ بصورتها صالحين مطبوعة فوق غلاف البوم صور قديم. لم تعامل جسدها يوما كأنثى، ولم يرها الآخرون بهذه العين. لكنها إذ ذاك كشفت عن خصر يمكن وضعه في واحدة من الغوايش التي تكسو ذراع زوجة عظيم الضبع، وسمانتين لماعتين كالنجوم التي كان يضعها أبوعصام الضابط فوق كتفيه ويحرص على دعكها كل مساء بنصف ليمونة ممصوسة، ومنحنى في نهاية سلسلة الظهر كمطلع الزهراء يصيب الناظرين إليه بالإجهاد.

في تلك الأثناء تقدم عماد عضمة لخطبتها عن طريق الشيخ يونس. الأستاذ عجمي تقدم لخطبتها عن طريق أبوياسين. سائق سيارة أنفار في مطلع الزهراء. صلاح ابن بطرسة قال إنه سيغير ملته و"يستسلم" إن وافقت على الزواج. لكنهم أرادوها لحالها بدون

ذيل طويل بأربع عُقَل تتنفس، ستعيق الحياة وتسد منافذ الراحة.

ولم تبرح صالحين كذلك مخيلة حنفي وصندل منذ شاهدها في ذلك اليوم الذي اصطحبهما فيه الضبع لهدم غرفتها قبل أن يظهر الشيخ يونس ويذكره أنه دفع قيمة أرضها. اعترضها حنفي مرة وأخبرها أنها لو أنتت معه "هايشيلها من ع الأرض شيل"، نشبت مخالبا في وجهه وقالت:

**"روح شيل مراتك من تحت الضبع يا عرص"**

ولم تنتظر لترى أثرا لشتيمتها على ملامح وجهه الباردة. انطلقت بعيدا ودخلت تننُ موجوعة. الوسخ استرخصها. طلب منها أن تذهب معه، هكذا، دون حتى أن يتكلف عناء البحث عن بعض من تلك الكلمات الفارغة التي كانت تلقى على مسامعها من حين لآخر في الساحل أو السوق. ولم تفكر يوما في إبلاغ أي من إخوتها بما تتعرض له من حين لآخر. لم ترد توريطهم في معركة قد تنتهي بأحدهم قتيلا أو بعاة مستديمة، ولم تشأ أيضا توريطهم في شعور بالعجز أنهم لم يستطيعوا رد الإهانة عن فتاتهم الوحيدة، فلم تشك.

كانت أول سحابة ممطرة بعد انتهاء الصيف وحلول الشتاء. قطرات مياه لا تروي ظمأ جوف صديان كانت كافية لأن تحيل مطالع العزبة الثلاثة ومداخلها العديدة إلى برك طينية صفراء، بينما أغلب شوارعها تتشرب المياه ككثبان من الرمال الناعمة.



توزع صالحين الأطباق وأواني الطبخ تحت مسارب المياه في سقف الغرفة، وعندما تمتلئ تفرغها عبر النافذة إلى الشارع، يلقي عليّ كيس مشمع سميك فوق العشة ليحمي ما تبقى من طيور وأرانب. يجلب "القصة" ويضع في قعرها حفنتي تراب جاف يرصّ فوقه قطع خشب صغيرة بطريقة تسمح للهواء بالمرور داخلها عند إشعالها. يغمرها ببعض الكيروسين من الواوبر "أبوشرايط" ويلقي داخلها عود كبريت فتنشب النار ويصاعد دخان أسود سرعان ما يهدأ.

تمتد الأكف لتتال حذا من دفاء منعش. تدفس صالحين براد الشاي بين الجمر المشتعل بانتظار عودة ناجي. يصل عليّ التليفزيون الجديد بالبطارية انتظارا للحلقة الأولى من مسلسل جديد سيبدأ بعد انتهاء "الوسية" تليفزيون شارب اشتريته بالتقسيت من الأجهزة الذي فتحه الشيخ أبو عصام الضابط بما ادخرته من أموال أرسلها ذلك الرجل الذي لا تعرف كيف تنطق اسمه في أظرف مغلقة لأخيها علي من انجلترا رأسا إلى خير الله.

\*\*\*

من قال إن "الصيف عفا والشتا لحاس قفا"؟

أبدأ، هي تحب الشتاء أكثر، الشتاء أجمل، باستثناء لسعات البرد

المتسللة عبر مسام بطاطين الصوف المحشوة بالبقق والبراغيث في جوف الليل، وصنابير مياه تنفتح بغتة في سقف الغرفة مع كل دفقة مطر، وأمراض شتوية تلبد في صدرها وصدور إخوتها ولا تخرج بمشروبات ساخنة أو أقراص الكولد فري أو اليوسفي والبريقال البلدي، تخرج عندما تدعك صدورهم بزيت الطعام وتبطنها بورق الجرائد وملابس ثقيلة ونومة طويلة يتعرقون خلالها وفرخة مسلوقة ترم العظام المفككة. الشتاء سكينه. الشتاء جلسة حميمية تجمعهم حول قطعتي خشب مشتعلتين. الشتاء لا تُنصَبُ فيه جلسات دكانة خليل والشيخ يونس يلتئم قبلي وبحري يلوكون السَّير والقصص، ولا تشاركهم إياها حتى لا يصبح فيها الجميع حكماء أزمتهم بينما هي وحدها التي "عندها دقة عبط" يصبوب الجميع نصائحهم إليها، ما يجب أن تفعل وما لا. لا أحد يفهم رغبتها أن يكمل صبيتها تعليمهم ويصيروا أساتذة. الشتاء حجر يتدحرج خلف بابها مبكرا فتخلق على إخوتها تستدفي في أنفاسهم. بينما الصيف نوم متأخر في بركة عرق بملايس كاملة لا تستطيع تخفيها.

يدخل ناجي غارقا في مياه المطر يبذل ملايسه خلف ستارة الشباك ويجلس مادا كفيه فوق السنة الصهد. تكشف صالحين عن طبق "بصارة" مغطى تضعه أمامه. تغرس طرف سكين صغير في قلب رغيف خبز ملبد وتمزّره فوق النار لتسخينه.

قبل دقائق كان يلفح صندل قفا مخبرين خلف صغيرا مزعجا في

أذنه اليسرى سيسمعه ما تبقى من حياته كلما رأى ناجي أو جرت سيرته على لسان ما.

قبل دقائق، ظل ناجي يزرع مطلع أبوقرن صعودا ونزولا منتظرا ظهور صندل، أو بغل آخر من بغال الضبع ينفث فيه غلّه. فعل. رآه خارجا من غرفة صغيرة في أول المطلع كانت جزءً مستلبا من بيت أحد السكان أعطاهما الضبع لصندل ليكون عينا ترصد حركة الجميع من وإلى خيرالله. ظهر صندل وكان هو نفسه ذلك الذي جاء قبل سنوات في ذيل الضبع يطالب ببقية ثمن البيت. طويل كذكر زرافة. خبزانة معقوفة في يمينه، جاكيت صوف بياقة عالية بلا لون يرتديه صيفا وشتاء. نظرات خبيثة تتناثر من عينين ضيقتين تشي بوجود مؤامرة ما تدور قريبا. حين رآه حيّاه في لامبالاة:

- إزيك يا ولا يا ناجي؟

- إزيك يا ك.. أمك!

ولم يدرك صندل جملته الأخيرة جيدا. توقف محمقا وأعاد سؤاله:

- بنقول إيه يا يالا؟

- الواد ده يبقى أبوك يابن القحبة! تراااخ!

كفٌ ثقيل. ثقيل. أقسم صندل أنه أتقل من شلوت مأمور قسم البساتين الذي ناله بعد ضرب قوات القسم في العزبة أثناء حادثة الهدم. يومها اعتبره المأمور موالسا مع البلطجية، وأنه نقل لهم تحركات القوات. هم برفع خيرزانتة فبادره ناجي بصفعة جديدة تعمّد أن يمتلئ بها وجهه لتصدر صوتا مكتوما كصوت سقوط زجاجة بييرة فارغة على بلاط نظيف. تراجع خطوة متأثرا بالمفاجأة فتقدمها ناجي محافظا على مسافة ذراع بينهما. مسافة تسمح له بقراءة نظرات خصمه أولا بأول والرد عليها.

تفتتح الشبابيك رغم استمرار سقوط المطر وتطل أعين مستطلعة. يهرول أبوتلاتة حاملا شومة طويلة لنجدة صاحبه مدمدا بكلمات متوعدة وسباب. وقبل أن يهبط بها على رأس ناجي، تُسمع صرخة ذعر مكتومة من شبك قريب وصوت أنثوي "هايموتوه!" لكن أبوتلاتة لا يعلم أين سقطت شومته بعد هذه الصرخة، يتذكر فقط صفقة، صفقة كف نالت نصف وجه الأيسر كاملا، الأذن والرقبة والصدغ، وامتد أثرها كحقنة مخدرة في نصف جسده. ودار سؤال في خله لم يكن وقته ملانما: لماذا يصفع ناجي؟ لماذا لا يحمل ما يحمله الآخرون في المشاجرات والمعارك الدموية وهو يعلم أن رجلين من رجال الضبع لن يترددا في القضاء عليه وإخفاء جثته كما فعلا مرات مع آخرين. لماذا لم تنله ضربة الشومة أو الخيرزانة وهو لم يبرح مكانه، أو هكذا شبّه له. ناجي الذي عمل حجارا يقطع

الصخور في الحادية عشرة وأشاعوا أنه ملبوس بغفريت الحجر. ها هو يمسك بتلابيبهما معا يحدّق في عيونهما الأربعة معا ليدركا أنهما يعيشان واقعا، لا حلما مزعجا.

"لو اتكعبلت في عرص منكو تاتي هخفيه".

يسأل صندلُ أبوتلاتة، هل كانت يد الواد ملطخة بالطين، أم أنهما وقعا في بركة المطر أمام منزل حربي؟

\*\*\*

في الصباح يشيع خبر المشاجرة أسرع من خبر البلدوزر الذي اقتحم خيرالله ليهدمها على رؤوس أصحابها. الرغبة في الانتقام وتعويض الإحساس بالبطولة يضيف شيئا من الأسطورة حول الحوادث والقصاص التي تخص الآخرين، لتنتقل من إنسان إلى آخر لا كما وقعت وإنما كما رغب راويها أن تقع. ناجي رفع أبوتلاتة بيد واحدة وطرحه في بركة طين. صندل ركع ذليلا يستجدي العفو بعد أن وضع ناجي خيرزانتة في دبره. ناجي قيّد أبوتلاتة من أطرافه الأربعة وملأ فمه بالتراب. ناجي قال لو رأى الضيع ذات نفسه لربطه بسلسلة كالحمار حتى يكف عن أذى خلق الله.

قصص كثيرة بعضها يناقض الآخر سمعتها صالحين في

سوق الملعب فجمعت أغراضها وعادت إلى البيت تندب مصيرها ومصير إخوتها، وتدعو الله ألا يكسب ناجي ولا يربح.

"دَوَّقَتِكَ العيش دوقنتي سلاية يا ناجي"

بينما ناجي يحمل كشكولا في طريقه إلى المدرسة ليؤدي أول امتحانات الثانوية. وعندما يرجع إلى البيت يجد المعلم عبد الجواد بانتظاره يعرض عليه العمل في مغلا الخشب، يجيبه ناجي أنه لا يبحث عن حماية، ولا يعمل أجيرا. تُوسِّط صالحين عبد الجواد سرا لدى عظيم الضبع ليصفح ويعفو وهو في النهاية عيل من عياله.

أما الضبع فعل الآتي: جمع رجاله كافة في ساحة منزله بالمفارق. طلب تقييد صندل وأبوتلاثة في عرقين خشبيين نصبًا وسط الساحة نهارا كاملا. استرد مفاتيح بيت المطلع من صندل ومنحه لحنفي، عقابا لصندل وعزلا له من ثلته، ومكافأة لحنفي وإبعادا له عن بيته بالمفارق حيث تخدم فتحية زوجته. استرد مبايعة منزل آخر كان أبو ثلاثة يؤجره لحسابه، وحظر عليهما دخول العزبة حتى لا يتذكر سكانها خبيتهما فيتجرأوا عليه وعلى بقية رجاله، قال:

"الراجل اللي ياخذ على قفاه مايبقاش راجل.. وايش حال اللي علم عليهم عيل طول بتاعي؟!"

وأفتى الشيخ الضابط بأن خطأهما لا يعادل خطأ الواد. مجرم لا

يعتد بكبير ولا ولي أمر، وما جرى عليهما يجري عليه، وأنه على استعداد لشراء بيتهم. فيرد الضبع غاضبا أن بيوت صندل وأبوتلاتة هو من منحهما إياها، بينما صالحين اشترت البيت بثلاثين يوم كان الجنيه بمائة.

أشاع الضبع أنه طردهما لأنهما خالفا أوامره ألا يعتديا على غلبان أو محتاج. قال أن لا مكان لمفتري في خير الله. وكبر الشيخ يونس والعسكري وأبوياسين، وتصعبت صالحين تتذكر أن "الجميل ما يتركبش إلا لو طاطي.. وربنا ما يكسرك يا ناجي".

يزن علي في أذني أخيه يوما ويومين ليحكي له تفاصيل ما فعل. يدفعه ناجي لأن يجرب الدخول في معركة مع أحدهم على أن يقرّر مسبقا ألا يخاف وألا يتردد وألا يفكر في سوء عاقبة. بل أن يدخل معركة من أجل الحصول على شح في الرأس أو كسر في عظمة. يقول إن صندل وصفه مثل كلاب تشتم رائحة الخوف. هل جربت أن تعدو باتجاه كلب ينبح باتجاهك يا علي؟ جرب! ستجده يعدو بالاتجاه المعاكس، خائفا، ومذعورا، أنت أقوى بصفاء العقل من الشمام والمسجل والمطلوب، وربما أقوى أيضا بالعضلات، بينما هو أقوى تجربة واعتياد مواقف. يستطيع السيطرة على ضربات قلبه المتسارعة في لحظات المواجهة الحاسمة. إذا هزمت خوفك يا علي استطعت هزيمة ما سواه. إن هزمت خوفك امتلكت الجراءة

والمبادرة، وإن امتلكت المبادرة امتلكت المفاجأة، تلك التي تعيد  
الإنسان إلى غريزته وتمحو أثر التجربة والخبرة فتظهر ردات  
فعله طبيعية دون استعداد.. فهمت يا علي؟

\*\*\*



11

تلفزيون شارب تقسيط

عفریت بلس واحدا آخر



قيل لها في كل مناسبة أن تذهب به إلى المستشفى. الولد ذو السنوات السبع يسمع ويفهم كالقرد لكنه لم ينطق بكلمة. هناك يعالجون الخرس، وهو عنده خرس. حاولت تلقينه كلمات قصيرة وفشلت. حاول إخوتها وكان يقابل محاولاتهم بضحكة بلهاء ساخرة تزيد بأسهم ومرارتهم، قالت متحسرة:

### "سبع مناخل والقش داخل".

وعندما اشترت التلفزيون الشارب، وصعد ناجي لتثبيت الهوائي في صفيحة مملوءة بالتراب والدبش فوق سطح الغرفة، تعالت زغاريدها تشق خمول العصاري ونعاس البيوت وتستدعي الجيران لعجيبية من عجائب إخوتها. الولد محمد الذي لم ينطق بكلمة حتى تأخر التحاقه بالمدرسة عاما كاملا، ما أن انفتحت شاشة التلفاز على حلقة معادة من مسلسل "البشاير" على القناة الثانية حتى اجتر المشاهد متوالية. ينطق بالحوارات الجارية على السنة الممثلين، "برابنط"، كلمة بكلمة وحرقا بحرف وسكته بسكته. جهاز

تسجيل كتسجيل أحمد الفران أبو بابين وأربع سماعات. لا يفوت همسة أو حركة. تجتاحهم حالة من الذهول والاندھاش تحتمل حين يحاولون إيقافه فيبدو لا مباليا بمن حوله، كأنه في حصة "تسميع" أعد لها جيدا، واحد من أبطال المسلسل داخل الشاشة وليس مشاهدا أمامها مع الآخرين. تحتضنه صالحين، تضع وجهه بين كفيها تحيله بعيدا عن الشاشة فيلتف بإصرار، تدور الحوارات الزاعقة من حوله وتتكدس الغرفة والساحة الخارجية بالبشر، بينما يسبح هو في ملكوت بعيد لا يشعر به سواه.

"أبو المعاطي شمروخ يخرج من المطار دون حقائب، تعاتبه أمه وإخوته بينما أحمد أفندي جوز أخته يندب بخته الذي ورطه مع هذه العائلة المنحوسة" يحاولون إسكاته، التواصل معه، تجسير المسافة بين عالمهم وعالمه، لكنه غائب تماما. تتحول ملامح السعادة المشوبة بالقلق إلى قلق مذعور واضح وشفاف، ليته لم ينطق فالأخرس خير من الأهل. عفريت آخر يلبس واحدا من إخوة صالحين. يفصل علي مشبكي البطارية عن التلفاز فينقطع التيار وتعود الشاشة مظلمة قاتمة السواد. الصمت. لحظات تعود فيها خير الله إلى سيرتها الأولى قبل أن يطأها الضيع الكبير وجاهدة السودا والشيخ يونس، أرض خرساء إلا من نباح كلاب وهدير طائرة تمر بين السحاب. مسابقة من ينطق أولا. محمد يستكمل حواراته التليفزيونية، برغم إغلاق التلفاز، وأبو المعاطي

شمروخ يجمع أفراد أسرته الغاضبة ليطلب منهم مرافقته إلى أرض صحراوية بعيدة يساعده في تعميرها والتصدي لعصابات البدو التي تسرق الأراضي.

\*\*\*

سامح الله الشيخ يونس، هو من قال أن القناة الثانية مسيحية لا أذان فيها ولا شيخ شعرواي ولا خطبة جمعة، أفلام انجليزي وأغان كرزع أغطية حلال النحاس في جهاز عروس من بيت عمدة. هل رأى أحدكم مذبة بالحجاب في هذه القناة؟ وهل رأيت أنت مذبة بالحجاب في قناة أخرى يا شيخ يونس. حتى قنوات الأقاليم يا مؤمن!

الآن لا تشاهد صالحين سوى "الثانية"، حلقات وإعلانات وأفلام أجنبية تطلب من ناجي أو علي ترجمتها، لأن ولاد الكلب يحذفون الترجمة قبل أن تتمكن من قراءتها. القناة التي حلت عقدة الغلبان محمد، وأطلقت لسانه ديزل بلا مكابح، مشاهد تمثيلية وأخرى حقيقية يمكنه اجترارها من الذاكرة مقلدا أبطالها في براعة، محطات مرّت في حياتهم كان فيها صغيرا لا يعي، لكنه كان يدون تفاصيلها كرقيب سينمائي يعد تقريرا مفصلا حول فيلم تجاري جديد. ستفتح له ملفا في مدرسة الفيروز يتعلم أن يبني حوارا

مع الآخرين وتساعدته المنظمة بالكشاكيل والمصاريف، ولو أخذوه  
لتنصيره سيعيدونه لشقاوته، ورغائه الذي لا يكبجه كايح.

\*\*\*

## القسم الثاني





# 1

## ترشم صليباً فوق إبهام يمناها

وتجيد صنع الحلوى وكعك العيد  
والغريبة أفضل من جاراتها



لم تلاحظ صالحين قبلا أن لبطرس صليبا على ظهر إبهام كفها الأيمن. كانت تراه دوما على الرسغ، ويوما سألتها لماذا لا ترى أجنبا من أفلام القناة الثانية بصليب منحوت في جلده مثلكم. أخبرتها أنهم المصريون فقط "يرشمون"

"عادة من أيام الشهداء، لما كان الرومان بيقتلونا كان المسيحيين بيرشمو ولادهم عشان يعرفو نفسهم لما يكبرو"

وتتنزع صالحين "تصعبية" تعاطف من بين شفاهها تحاول أن تكسوها بقدر ملائم من التضامن والصدق. رومان وشهدا وصلبان. تستغفر في سرّها وتتشهد "اللهم ثبتنا على الإيمان"

يقول الشيخ الضابط عبر ميكروفون المسجد، يوم جمعة، إنهم ضالون، بينما اليهود مغضوب عليهم. وكلاهما مشركون، والمشركون نجس، ويدعو إخوانه في الله إلى عدم محبتهم لأن المرء يُحشر يوم القيامة مع من أحب، والمرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال.

سألت الشيخ يونس فأخبرها أنه "مش هايعرف قد الشيخ الطابط". سألت الشيخ عدوي الذي اشترى نصف بيت الشيخ يونس وأنشأ زاوية لصلاته وبعض السننية، فأخبرها "إنما المشركون نجس". وأيده أبو ياسين وحكى أبو تيتو إنه مرّ على بائع العصير أسفل مطلع العزبة، وعندما ناوله الأخير كوبا من عصير القصب ولمح على كفه صليبا أحمر تقياً، وكان العصير ماسخا كأنه عُصِر من أطراف الأعواد. الزعازيع.

وانتبه عليّ إلى أن "عاطف سرور" الولد الأسمر الذي يجاوره دائما في لجان الامتحانات آخر العام بحكم تسلسل الحروف الأبجدية هو أيضا مسيحي. بارعا، كان، في الجبر. بينما هو بارع في الهندسة، يتبادلان أوراق الإجابة قبل نهاية الامتحان ليحصل كل منهما على الدرجة الكاملة في الرياضيات، المادة التي حالت دون التحاق عليّ بقسم العلمي. تذكّر كم مسيحيا مر به في مطعم التحرير وأعطاه بقشيشا.

صارت صالحين تتحاشى بطرسة، وعندما تخرج كانت تضطر للدوران حول مجموعة بيوت في شارع مجاور، حتى لا تمر أمام بيت جارها المسيحية في الشارع الخلفي فتتبادل معها التحية التي حتما ستتطور إلى جلسة محبة تجلب فيها بطرسة ترمس مملح وسوداني تجيد تحميمه وتحكي لها عن ابنها صلاح الذي يعمل في

محل جابريال في شارع الفيوم ولا تراه إلا عندما تذهب لتنظيف المحل وغسل أرضيته الموزاييك بممسحة "الشريف" ذات اليد الخشبية أو عندما يعود، نهاية كل أسبوع، ليقضي عدة أيام في حفر التراب بحثا عن الخبيثة. أو تحكي عن "كبر" زوجة الضبع التي تعرفت بها في محل جابريال أيضا تبتاع كردانا ذهبيا عيار واحد وعشرين. كبر التي حكى لها عن فتحة زوجة حنفي، وقالت دون خجل إنها تعمل خادمة في بيتها وخادمة لسرير زوجها.

تتجنب صالحين بطرسة وتفتقد تلك الحكايات وحكايات أخرى عن سكان في العزبة وأقارب مسيحيين لبطرسة لا تقابلهم إلا في الأكاليل وأنصاف الأكاليل بالكنيسة. كانت تراهم من حكايات بطرسة نماذج متطابقة لأشخاص تعرفهم أو عرفتهم لكنهم يرشمون صلبانا فوق أرساغهم أو مناطق أخرى من أجسادهم. وعندما طال غيابها طرقت بطرسة باب غرفتها، فأشارت صالحين لمصطفى أن ينكر وجودها. فعل. ولم يفارقها ذلك الإحساس بالذنب ووخز الضمير.

وفي محاولة أخيرة للإبقاء على نافذتها المطلة على الشارع الخلفي - حيث بيت بطرسة - مفتوحة، سألت الأستاذ عجمي، هو أيضا شيخ له لحية قصيرة بيضاء لا يتناسب لونها وعمره الثلاثيني. سألته إذا هي أحببت الشيخ أبو عصام والشيخ يونس والشيخ صابر والشيخ عدوي وأمة لا إله إلا الله، طيبها وخبيثها،

ثم أحببت معهم مسيحية واحدة تجيد صناعة أنواع من الحلوى وكعك العيد والغريبة أفضل من بقية جاراتها، هل يحشرها الله مع المسيحية دون المسلمين؟

يقول عجمي إن نجاسة المشركين هي نجاسة الاعتقاد وليست نجاسة الجسد. يقول إن النبي تزوج بمسيحية وأنه استقبل وفودهم في المسجد. يقول إنهم أهل ذمة. يقول:

"لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ". وصدق الله العظيم.

يثير الرجل عجمي فتنة بأرائه المبتدعة، ويمنعه أبو عصام الضابط من الإمامة، بعد أن يذكره "اسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" ويدعو له الشيخ يونس بالهداية، بينما تقول صالحين "أبو عصام ضلالي".

\*\*\*

في ذلك اليوم الذي لاحظت فيه صالحين الصليب خلف إبهام بطرسة، كانت الأخيرة تبلغها برغبة أحد معارفها في شراء غرفة من منزلها، غرفة تطل على الشارع الخلفي حيث بيت بطرسة وزوجة شعبان.

قالت لا يريد سوى ثلاثة أمتار في ثلاثة يفتح بابها على الشارع الخلفي بعيدا عنها وعن إخوتها، مكتب محامي، حاجة محترمة، ستضمنه كابنها صلاح. اسمه مجدي السلاموني لا زوجة ولا عائلة. بطوله. لن يشاركها دورة مياه أو مدخل بيت. وسيدفع ألف جنيه كاملة. وهو من سيراضي الضيع ورجاله. ألف جنيه يا صالحين خالصة مخلصه، تعيدين بواسطتها هندسة حياتك وحياة الأربعة، كسوات ومعايش وثلاجة كثلاجة خليل، بها فريزر يصنع الثلج صيفا ويحفظ الطعام طوال العام. ستبنين سورا للبيت يحفظ سترك المفندق أمام الجميع، توافق ويوافق ناجي ويوافق علي والشيخ يونس والعسكري وأبوياسين وخليل وعجمي وأبوتيتو. لكن الشيوخ يرفضون، عدوي والضابط والسنية.

\*\*\*

مسيحيا، كان، مجدي السلاموني. لكنه يحفظ قرانا ويستغفر ولا يكاد أحد يرى صليبه. وضع لافتة كتب عليها "السلاموني لخدمات الحمامة"، ولم يستقبل ذبونا واحدا لأشهر متتالية. بعد صلاة عشاء في مسجد الغلام والراهب، دخل السلاموني المسجد قبل انصراف المصلين وفتح ماكينة الميكروفون وأعلن أن شركة المعادي تحركت قضائيا لهدم العزبة على رؤوس أصحابها مرة

أخرى. لكنها هذه المرة ستكون مسنودة بحكم محكمة، ولا بد من رفع دعوى متقابلة لتملك الأرض، وأنه مستعد لرفع الدعوى عن طريق الأستاذ المحامي الكبير الذي يعمل لديه صباحا، ودون أتعاب، فقط المصاريف والرسوم.

صادفت دعوته قبولا لدى الجميع. وكانت تلك المرة الأولى التي يبلغهم فيها أحدهم أنهم أصحاب حق وبإمكانهم تملك الأرض. بلغ الخبر الضيع فتعهد بالمساهمة في دفع التكاليف. وبينما ينشغل الجميع بتفاصيل المفردات الجديدة في حياة العزبة، تملك ومحكمة وتعويض وقضية، كان الشيخ يونس منشغلا بما فعله السلاموني الذي اقتحم المسجد وقبض على كريستالة الميكروفون الطاهرة بأصابعه النجسة. دكها بالتراب وبالرمل وسلك المواعين لكنه رأى أصابع السلاموني مطبوعة فوق حوافها. مندهشا تساءل لماذا لم يمنعه الشيخ أبو عصام الضابط عندما وطأت قدماه حصير المسجد "أليس المشركون نجس" بينما أبو عصام نفسه لم يلحظ شيئا شادا. وكان رضى الضيع عن السلاموني كفيلا بمنحه تأشيرة دخول للمسجد بل وتأشيرة عبور فابريكة إلى الجنة. بل قال الشيخ الضابط عندما أثار الشيخ يونس الموضوع على استحياء:

- "ده النبي بذات نفسه كان بيستقبل سفرا ملوك الكفر في المسجد يا شيخ يونس!"



وهي الكلمات التي قالها يوما الأستاذ عجمي وحرمته الإمامة في مسجد الغلام والراهب لزمن.

- عليك ألف صلاة وزيادة يا نبي!!، يقول الشيخ يونس.

بعد أشهر يعلن السلاموني عن جلسة أولى ستعقدتها المحكمة مطالباً الأهالي بالحضور. وفي صباح يوم الجلسة كان أغلب رجال العزبة قد استجابوا بعد شائعة جاست بينهم أن المتخلفين عن الذهاب لن يستفيدوا بالقرار الذي ستصدره المحكمة في حال قضت لصالحهم. عادوا دون أن يحمل أحدهم جملتين مفهومتين يمكن ترديدهما على مسامع زوجته، أو جاره الذي لم يذهب. فقط تم التأجيل. قال المحامون طلباتهم وقال القاضي اكتب طلباتك يا أستاذ. ثم قرر التأجيل ليقدم كل منهم مستنداته.

"قضايا النفقة بين الراجل ومراته بتاخذ سنين.. إشحال قضية زي دي مخاصمين فيها الحكومة".

وأضاف السلاموني أن العزبة الان في عهدة المحكمة وأن الحكومة بذاتها لن تستطيع هدم منازلها أو إجلاء سكانها إلا بعد صدور القرار "حلني بقى لو القرار ده طلع!" فيما أبدى سيد العسكري ندماً لوجود اسمه بين من اختصموا الحكومة. ونشبت مشاجرة بينه وبين زوجته غادرت على إثرها منزله إلى بيت أحد إخوتها في العبور، بعد أن اتهمها بأنها السبب في توريطه.

\*\*\*



2

أجنبي يلمع، يجيد الإنجليزية

هم اختاروا المال والجمال..

واخترنا نحن العلم والايمان!!



تنشغل العزبة بالمحكمة، وتصبح ركنا ركينا في يوم سكانها، ويتفرغ البعض للتردد عليها أو الجلوس إلى الأستاذ السلاموني لتلقي ثقافة قانونية بأفواه فاعرة، وعيون محدقة. بينما يمر الشيخ عجمي على البيوت حاملا دفترًا سميكا يدون به أسماء السكان وأرقام بطاقاتهم وأعمار أبنائهم. يقول إنها المنظمة، ستساعد في تعليم من لهم أبناء بالمدارس، ستمنح الحرفيين مساعدات مالية لتنمية أشغالهم، ستساعد في تسقيف المنازل وإكمال جدرانها، ستمد مواسير مياه عمومية وأنابيب صرف وعدادات كهرباء رسمية بأسماء أصحاب البيوت لتكون حجة ملكية في عين الحكومة، وتقيم ملعبا عند الإسطبل بمرميين بدلا من الملعب الذي أقيمت عليه المدرسة الابتدائية.

قال عجمي إن خير الله ستوضع على خريطة الحكومة. يسارعون بتسجيل أسمائهم وأسماء أبنائهم، وأسماء وهمية وأسماء أبناء مازالوا في بطون أمهاتهم على سبيل الاحتياط، ولولا ثقتهم

بالشيخ عجمي الذي لم يروا عليه يوما عيبا أو احتيالا، لا اعتبروها نصباية لتقليبهم في قرشين.

الحكومة لم تطلب يوما من أحدهم اسما أو صفة، ويوم أطلقت حملتها في إعلانات لوححة تسبق المسلسلات المسائية وتليها لتحث المواطنين على التعاون مع مندوبيها لإجراء إحصاء السكان، لم يشملهم الإحصاء أو يضم أسماءهم دفتر رسمي. لم ير العزباوية من الحكومة سوى بلدوزر "كاتربيلار" مهول برافعة تكنس البيوت وتدهس مستقبل أصحابها، ومرشدي مباحث وسيارات بوكس زرقاء ترابط من حين إلى آخر عند نهاية أحد مطالع العزبة لتخثير بعض الوجوه عشوانيا وتنفيذ أصحابها وتكديرهم، ثم اصطحابهم لأقسام الشرطة للاعتراف بجرائم لم تقع ببلاغات لم تقدم. أو عندما تأتي سياراتها في جوف الليل لالتقاط أحدهم والخروج به من ذاكرة من يعرفونه. حدث ذلك مع الشيخ صابر لعشر سنوات كاملة لم يرد على محكمة، وحربي وأبوتلاتة لشهور. وسيحدث مع صلاح ابن بطرسة الذي سيستطيع أن يصل حفرا ونبشا تحت أرض العزبة، من داخل غرفة سرية بمنزل بطرسة حتى يعبر الشارع البحري بحثا عن خبيئة فراعين أرشده إليها "معزم" جاء به من البدرشين. لم تستقبل العزبة يوما خطابا بالبريد، ولم تصل سيارة إسعاف لنقل محروقة أشعلت النيران في جسدها بعد أن رفض أبوها تزويجها بعماد عظمة وكان أكرمه الله وصار مطربا عاطفيا.

فماذا سيحنن الآن قلب الحكومة على العزبة وسكانها. وإن فعلت هل سيقاسمهم الضبع والأضيضه ما ستمنحهم إياه أم أنهم:  
"حكومة منهم في بعضهم.. يصطفلو مع بعض ويسيبونا في حالنا" كما قال خليل.

لكن الأستاذ عجمي يوقف تساؤلاتهم عندما يقول إن المنظمة ليست تابعة للحكومة، الحكومة نفسها لو طاللت لأدفعتها أرضية وجمارك وفواتير متأخرة! الأجنب هم من يمولونها من أكرة الباب إلى مصباح الإضاءة.

يقابله الشيخ يونس بنظرة مشفقة وقد أيقن أنه أصيب بعته متأخر. ويرجّح أبوياسين أن جماعة ما تضلل الرجل، ولأن عقل الأستاذ عجمي على قدّه سار وراءهم دون أن يكتشف نواياهم، فأى أجنب هؤلاء الذين يعرفون خيرالله وأهلها ويريدون الإحسان إليهم، وهل انقرض الفقراء والمحتاجون في بلادهم حتى يحسنوا في بلاد غيرهم؟ ويعبر خليل عن خشيته أن تكون نصبة من الأستاذ عجمي نفسه الذي لا يعرفون له أصلا ولا فصلا، إلا ما قاله بلسانه يوم جاء ليسأل عن غرفتين للسكن، أنه من بلبيس الشرقية جاء منقولا لوظيفة كاتب شباك في السجل المدني بالبساتين وأن أولاد الحلال أوصوه بالبحث في خيرالله عن سكنى رخيصة. اشترى جانبا طوليا من بيت سيد عضمة ولم يفلح الأخير في تدبيسه بزيجة

سريعة من ابنته اللعوب هدى. يشهد العسكري أن عجمي أفضاله على الجميع، أنت يا خليل ساعدك في إزالة حرفين من اسم زوجتك كانا يحرمانها صرف التموين ويجعل زواجكما باطلا وأولادك أولاد حرام، فأبدل اسمها في مستخرج شهادة الميلاد من السيدة موسى العميان إلى سيدة موسى عميان.

أما صالحين فسارعت، على غير عاداتها، بتسجيل أسماء إخوتها. كانت تثق بالأستاذ عجمي منذ استخرج لها بطاقة شخصية بصورة أربعة في ستة ذات خلفية حمراء دون أن تخطو عتبة السجل، وعندما عاتبها أبو ياسين لتسرعها قانلا:

"ماتبقيش مطيورة يا صالحين.. طول عمرك بتوزني الأمور"

قالت: "إيش ياخذوا من شختك غير ريحتها النتنة"

وأضافت: "يا عم أبو ياسين.. لو جالك الفرح طبل على الصفيح"

ويقرر الجميع بعدها التطبيل على صفيح العوز الصديء بالأيدي والأقدام والأعين الشاخصة المنتظرة، الانتظار الذي يورث الاصفار.

يسجلون أسمائهم وأسماء أبنائهم وأرقام بطاقاتهم وأرقام الكلوات لو أراد. يغدو الشيخ عجمي ملجأ وملاذآ، تشخص إليه الأبصار



في الرواح والمجيء، فقط أن تطأ قدمه شارعاً من شوارع العزبة فيستلب العيون وتتداعى أحلام مكرورة سبقهم إليها آخرون تحت الأرض وفوقها، ولم يطالوها. ملاكا كان عجمي يدق الأبواب ليبذر الخير على الأعتاب فيشتّموا شينا مما يشتهون.

\*\*\*

تكرّر الدعاء وتأخرت الإجابة، وليس عليهم سوى الانتظار.

استدعى الضبع عجمي، في حضرة الشيخ الضابط. قال إنه يحترمه كما يحترم المحترمين ويعطي كل ذي قدر قدره. هل عرف عنه يوماً أن أهان عزيزاً. واستشهد بأبو عصام الجالس قبالة يحرّك رأسه كعصا قائد أوركسترا مع كل نهاية جملة مفيدة ينطقها الضبع تصديقا لفحواها.

أنت يا أستاذ عجمي كم دفعت "حلوانا" يوم اشتريت غرفتين في بيت عظمة.. لم تدفع مليماً! البائع هو من دفع، إكراما لسمتك الحلو ولسانك الطيب وزبيبة الصلاة البارزة في جبهتك، لكنك تجاوزت الأصول ورمحت في العزبة كأن لا كبير يرجعون فيها إليه. جاهدة السودا تعاييره بطيبة قلبه لأنها تسخط من يخرج عن طوعها ويتصرف من تلقاء نفسه، تسخطه قردا أو كلبا أو تسلط عليه عفريتاً يلبسه.

سأله الضبع: هل يريد أن يتأذى. هاه؟ وأجاب عجمي، فيما بدا استسلاماً، أنه أخبر "الجماعة" أنه يجب الرجوع إليه باعتباره عمدتهم، لكنهم قالوا إنهم يعملون تحت مظلة الحكومة. والحكومة التي تضمنهم وتضمن أعمالهم ليست ضابط المباحث في تسم البساتين ولا سعد الدمام مرشح مجلس الشعب الذي يورد له الضبع أسطولا من السيارات المحملة بالرؤوس الأدمية في كل انتخابات برلمانية، وليست مرشد مباحث هنا أو هناك. وإنما الحكومة الأخرى التي تشغل كل هؤلاء لديها ويأتمرون بأمرها، قريبا سيفتح "الجماعة" مكتبهم في العزبة ويزورونه!

ونزلت كلمات عجمي حميما وغساقا في آذان الضبع، استشعر في إثرها قرعا مزعجا يهدد سكون خير الله في قبضته التي ناخت قليلا لكنها مازالت قادرة على الخنق. وصمت أبو عصام الضابط وبقية رجاله بانتظار شارة يرفعون بعدها عجمي جثة يلقون بها من حافة مطلع الزهراء. لكن الضبع صرف عجمي بهدوء بالغ في إظهاره، وصرف الجميع بعده. ثم استدعى فتحية زوجة حنفي لتغيير المياه في قارورة الشيشة التي تعكرت.

\*\*\*

الضبع من الحكومة والحكومة من الضبع. "كلهم منهم ف بعضهم" كما قال الشيخ يونس مرارا. ذكّرهم بيوم ضرب ميكروباص الولد ياسين أمام مدرسته فأصيب بكسور في القدم والحوض أقدته طريح الفراش شهرين كاملين. يوم نقلوا الصبي مغشيا عليه إلى مستشفى هرمل، واحتجزوا السائق والميكروباص، حتى فوجئ أبو ياسين بحنفي وصندل وأبوتلاتة يطرقون بابه ويخبرونه أن المعلم الضبع يبلغه أنه تنازل عن المحضر حتى لا يخرب بيت صاحب الميكروباص المحتجز لدى الحكومة لأن الله لا يرضى بخراب البيوت، وأخرج صندل المحضر المحزر في قسم الشرطة والذي سبق أن وقعه أمام الضابط النوبتجي، من جيب الجاكت معلنا أن: "المحضر أهه في جيبى.. والمعلم هايراضيك"

الضبع عنده صندل المرشد والشيخ الضابط ويعرف رئيس المباحث الجديد أسعد السجيلي ويعرف عضو مجلس الشعب وبينهم مصالح. الحكومة تعرف ماذا تريد، ومن يملك ما تريده، وتعرف كيف تصل إليه وتحفزه أو تدفعه لأن يعطيها.

ذات يوم قال حسن الكتبي لعلي إن الحكومة تعتبر أن الناس في حاجة إلى قدر مناسب من الجريمة، كما هم في حاجة إلى قدر من الفقر والتلوث والعشوائية والمرض. القدر الذي يمكن التعامل معه

بألية تختارها وتنفذها الحكومة بوسائلها. جريمة تشعرهم بالخوف. فقر يدفعهم للعدو لها خلف لقمة العيش. تلوث يشل حركتهم. عشوائية تكبل تفكيرهم وتحيل بينهم وبين أي قدرة على التنظيم. ثم مرض يهدم ما تبقى من قدرة على الصمود بعد لهث طويل خلف ما يقيم الأواد.

الجريمة والفقر والتلوث والمرض، والإرهاب أحيانا، خيالات مفزعة لتهديد آخرين، لا يعانونها، إذا لم يُبَدُوا حرصا كافيا على أمن الوطن الذي تحرص عليه الحكومة. والحكومة حين توالس مع الضيع وجاهدة السودا وغيرهما في عموم الزمام، فلأنها تعلم أن في سرانهم ما يحب الوطن وأنها وحدها القادرة على انتزاعه وإظهاره للعلن!!

\*\*\*

في فترة وجيزة يصبح بيت عجمي الذي يتخذ جانبا طوليا ضيقا من بيت عضمة من طابقين مبنيين بالخرسانة الأسمنتية. توضع على الأول لافتة مكتوبة بلاقيه أسود على لوح مستطيل من الأبلكاش "تنمية المجتمع المحلي - منظمة بلان"، ويتحول الطابق العلوي لمسكن لعجمي مع أمه وأخيه الأصغر بعد جلبهم من بلبيس. وجوه نظيفة تظهر في شوارع العزبة، سيارة بيجو بلوحة أرقام ملاكي

تحمل الشيخ عجمي مع ثلاثة آخرين وما أن تتوقف أمام المقر الجديد حتى يرفع عماد عربي عقيرته بالدندنة بموال كتاب حياتي يا عين. بينما تمارس هدى هوايتها، فتتحرك بتودة مبرزة خلفية بضرة مستديرة تدعو الغرباء للاقتراب والتصوُّر. يسارع أبوهما سيد عضمة بجر الكارو باتجاه بيت الشيخ يونس، ليفسح مكانا لوقوف سيارة "المُلظمة" كمن يزيح عن نفسه تهمة مشينة، أو من يمسح حذائه قبل دخول مقابلة عمل.

يطلب الشيخ عجمي من عليّ مساعدته في تدوين الأسماء لأن خطه حلو، وأبوتيتو لأن باله طويل. يتكدس المقر بعد افتتاحه بصناديق كرتونية ممتلئة ببطاقات حمراء كبطاقات التموين متعددة الصفحات. يحمل غلافها شعار المنظمة، مسجل بها بيانات الأهالي والمساعدات التي سيحصلون عليها. يقوم عجمي ومساعداه بتوزيعها على أصحابها، وإبلاغهم، رسمياً، أن المنظمة ستتبني طفلاً واحداً فقط من كل أسرة لاستكمال تعليمه على أن يكون الأكثر هزلاً واستثارة للشفقة. وحبذا إن كان مريضاً أو معاقاً أو هزلاً.

الكشاكيل المسطرة والكراسات صفحة وصفحة والأقلام ومصاريف المدارس وصلت، بعد بداية السنة الدراسية، في سيارات نقل لم تستطع دخول الشارع بعد ضموره نتيجة خروج أصحاب البيوت بجدرانها أمتاراً للأمام توسعة على أنفسهم وأولادهم. أنزلت

السيارات حمولاتها عند مفترق الشارع البحري مع شارع الصيانة ليتولى بعضهم نقلها إلى المقر. المقر الذي دفن بيت عضمة تحته فأصبح كآثر بعد عين.

كان منسوب الشارع البحري، كبقية شوارع العزبة، قد ارتفع بشكل ملحوظ حتى غطست عتبات البيوت القديمة على جانبيه. وصار الخروج للشارع من هذه البيوت صعودا لدرجة أو درجتين. كان الرجال، مدفوعين بإلحاح زوجاتهم، يجلبون عربات التراب الجيري أو الردم ويلقونها أمام بيوتهم لتغطية منسوبها حتى لا تتجمع المياه المتسخة قريبا من الجدران، بل تسح بعيدا إلى وسط الشارع، خاصة المياه النتنة ومياه الحموم والغسيل التي لا يتخلصون منها في طرنشات الصرف حتى لا تمتلئ سريعا ويضطرون لنزحها. فارتفعت مناسيب الشوارع وانخفضت البيوت، وهو ما وضع في حسيان كل واقد جديد أن يبني بيته مرتفعا بشكل كاف حتى لا يجده مستقبلا وقد غطس في باطن الأرض. بيت عجمي ومقر منظمته ارتفعا إلى جانب بيت عضمة الذي بدا كمقبرة قديمة.

في ذات اليوم بدأ بتوزيع الأدوات الدراسية، للطفل المسجل خمسة كشاكيل مائة صفحة، وعشرة ستون صفحة. إضافة إلى دسنة كراسات وأقلام، مع إعانة نقدية جيدة لدفع المصاريف المدرسية. أختير مصطفى من بين أخوة صالحين لتسجيله، لكنها لجأت إلى شراء عدد إضافي من الكشاكيل التي باعها أصحابها بنصف قيمتها

بمجرد استلامها من المنظمة، لتغطية استهلاكات اخواتها الأربعة طوال العام.

\*\*\*

بدأت أنشطة منظمة "بلان" التي دعورها "الملزمة" بمفاجآت سارة، ثم لم يمر أسبوع دون توزيع منح عينية كأحذية أو أدوات مدرسية أو ملابس أو غيرها، إما عن طريق متطوعين غرباء تبدو عليهم أمارات النظافة، أو عن طريق مستفيدين من جهات العزبة المختلفة.

كل زيارة لمندوب من مندوبي "الملزمة" تأتي محملة بعطايا، عدا زيارة وحيدة كانوا يعتقدونها الأكثر سخاء، بما تحمله من خيرات الدنيا والآخرة، ومن بلاد برة، حاجات أصلية لا يتلفها الزمن، وأوراق نقدية خضراء قليلة لو فكها ستملاً "مشنة" بالجنيهات المصرية. في هذه البلاد فقيرهم باشا بسيارة كسيارات الإسعاف كبيرة عالية وواسعة وفيللا ذات حدائق، وكلب نظيف يبول في مرحاض كالأدميين، ولا يضع بوزه في أطباق طعامهم.

تلك كانت الزيارة التي جاء فيها ملونون بعيون زرقاء وشعر أشقر ناعم لامع كأنه مغسول بسمن البقرة الحلوب الذي يستخدمه أبو عصام الطابط في طعامه، وملابس بسيطة غير متكلفة تشي

بأناقة أصحابها ولا تكشف بحبوحة من فاقة.

"هم اختاروا المال والجمال.. واحنا اختارنا العلم والإيمان"

قال ذلك الشيخ عدوي. وكانت زاويته قد صارت مقصدا للصلاة والعبادة والاستزادة من العلم.

قال الشيخ عدوي أيضا إن "الحمد لصاحب الحمد، عندهم فلوس بس احنا عندنا الدين، هم اختارو الدنيا واحنا اختارنا الآخرة، كفرة مايعرفوش غير علم الدنيا، مايعرفوش رب ولا سما، إحنا عندنا علم الآخرة"

وعندما سألت صالحين عن مالهم حلال أم حرام، وهل يجوز لهم كموحدين بالواحد أن يمدوا أيديهم إلى هؤلاء الكفرة طالبين الحسنة، هل يقدم الكفرة حسنات تُسجّل في ميزانهم، قال الشيخ عدوي بيقين:

حسناتهم هايخدو حقها في الدنيا، أول بأول، إنما احنا هناخد ثواب الآخرة.

وأكد الشيخ عدوي أن مالهم الحرام حلال للمسلمين لأنهم يستخدمونه في الخيرات!

\*\*\*



قيل إنهم الأوصياء. الرعايا. المنظمين، وقد جاءوا لمعاينة أبنائهم بالتبني. وكان الزائر لبيت صالحين للقاء مصطفى، ابنه بالتبني، إنجليزيًا أشقر في نحو الخمسين من العمر يرافقه الأستاذ عجمي مع آخر غريب عن خير الله يجيد لغتهم، كان المترجم.

وقف الأستاذ عجمي مبتهجا عند الباب وأدخل الرجل كمن جلب هدية قيمة يخشى إتلاف غلافها قبل أن يراها أصحابها، استقبلهم علي لدى الباب، فبادره الرجل الأشقر بسؤاله وكان في الثاني الإعدادي:

**you are mostafa?**

وقبل أن يهم مرافقهم بالترجمة أجاب علي: No.. Him! مشيرا إلى مصطفى المشدوه نحو الرجل كأنه يشاهد كائنا خرافيا هرب من قصة قديمة. وكان رد "علي" التلقائي مفاجأة للدكتور سوتشيك، الإنجليزي من أصل تشيكوسلوفاكي، أن يخرج من زروع الصبار نبتة ذات رائحة زكية.

واستطاع "علي" إجراء حوار طويل مع الرجل مستعينا بما يحفظ من كتاب "Teacher" و"تحدث الإنجليزية بدون معلم"، وتمكن من الرد على أسئلة سوتشيك بكلمات بسيطة مباشرة تشوبها بعض أخطاء تلاميذ الإعدادي وفي خضم حديثهما ربت سوتشيك على كتف الصغير مشجعا، وقال "touch wood" وهو يضع أصابع

يسراه في فتحة قميصه ليلمس سلسلة تتدلى من رقبتة بصليب خشبي صغير لمح علي فتسمرت عيناه لثوان قبل أن يودعهم الرجل ويخرج سعيدا. ومنذ تلك الساعة لن يسمح علي لآخر بأن يقول أمامه "امسك الخشب" بعد اكتشافه أنه مثل إنجليزي يقصد به استعن بالصليب!

صار علي أعجوبة العزبة والعزباوية. كرامة جديدة من كرامات هؤلاء الشياطين، إخوة صالحين "الواد في مدرسة حكومي وبيتكلم انجليزي زي الخواجات".

وسبت أم ياسين وهدى وزوجة خليل وبطرسه الخواجة الأشقر الإنجليزي، واعتبرنه معفنا، فقد توقعن أن يخرج الرجل رزمة دولارات محترمة ويدسها في جيب علي بعد حوار ودي طال. ورقتان أو ثلاث سيثرون صالحين ولا يفقرونه. حتى الشخادون الخواجات هناك أفقرهم أغنى من الضبع وجاهدة السودا، فلماذا بخلوا حين زاروا خير الله؟

لكن سوتشيك لم يكن معفنا، فقد أمر أمين المنظمة أمامهم بتزويد صالحين بمواد بناء لإنشاء غرفة خاصة بها منعا لنكاح المحارم وفتش فمه مقهقها، فيما لم يجد المترجم كلمة مناسبة ليشرح بها مبرر ضحكه لبقيتهم، بينما ظل علي يبحث بعدها عن معنى الكلمة التي ضحك في إثرها، "إنيسيست"، في قاموس إلياس للجيب ولم يجد، وفي حديثهما الودي أخبر علي الدكتور سوتشيك إنه

لا يحب بريطانيا لأنها احتلت مصر عام 1882، وأنه لا يعرف الفارق بينها وبين إنجلترا، ورد سوتشيك ضاحكا أنه أيضا لا يحبها لنفس الأسباب وأسباب أخرى سيشرحها فيما بعد في مراسلاتهما. يترك عنوانا مفصلا على ورقة غلاف كشكول داخلية ليخاطبه عليّ مراسلة. ويتفقان أن يرسل له خطابا كل شهر من ورقة واحدة فيعيدها إليه مصحّحة لغويا ومعها دولاران عن كل سطر لا يشتمل على خطأ لغوي!

يقضون بقية النهار في إحصاء عدد أسطر الصفحة العادية ومقارنتها بالصفحة الفلوسكاب ذات الحجم الكبير، لحساب المبلغ المتوقع من دولارات اللغة بعد تحويلها إلى جنيهات وقروش. اثنان وثلاثون سطرا تحتويها الورقة "الفلوسكاب" إذا استنصح علي وأنجز نصفها صحيحا لحصل على 32 دولارا. نواة بلحة كبيرة تسند واحدا من أزيار صالحين الأربعة، وتترك بقيتها مائلة آيلة للسقوط مع أول هبة ربح غادرة!

"جود أفتر نون" جملة قيلت في الأيام التالية بكافة الطرق على السنة العيال وأبانهم في محاولة لنطقها صحيحا، "جون أفطر جون" "جود أفطر فول"

- ينعن ابوسيدك.. بينطقوها ازاي اللغوة دي؟

وظلت هدى بنت عضمة تحلم بـ"حبة شعر من شعور الراجل

بتاعكو يا صالحين!!" لو نالت شعر الرجل لوقف العرسان على أبواب عظمة بالمهور وقوائم العفش.

\*\*\*

يمر مندوبو المنظمة "بلان" على البيوت لتسجيل الاحتياجات. أسوار من الطوب، أسقف خشبية، مواسير مياه، عدادات كهرباء، معدات نجارة، أدوات بياض. وتسري شائعة يطلقها رجال الضبع بأن المسجلين لدى المنظمة من العزباوية قد وقّعوا بمحض إرادتهم على تنازل رسمي عن أحد أبنائهم ليسافر إلى بلاد الخواجات لتنصيره.

وعلى الرغم من أن كثيرا من العزباوية صدّقوا الشائعة، إلا أنهم لم يبدوا رفضا للفكرة، بل منهم من عرض أن يسجل أكثر من طفل. وكانت زبيبة الأستاذ عجمي دافعا لطمأنتهم. قال عجمي إن المنظمة ستتكلّف بدفع نصف تكاليف الاحتياجات الإنشائية التي سجّلها المندوبون شريطة أن يُبادر المستفيد بإنفاق نصفه أولا وأن يقدم ما يثبت نفقاته. دخل الموضوع في الجد. وبدأت بارقات أمل تتبدى في عيون النساء، وأحلام تداعبهن نوما ويقظة. وصارت تحلم صالحين بصنبور مياه يخرج من جدار غرفتها ليصب في حوض صيني أبيض تشطف تحته أطباقها دون عناء استخدام

الجران. لكنها سرعان ما تستيقظ على صوت رصاص يفتال الأحلام الوليدة في مهدها.

سيارة البيجو التي تنقل المندوبين من حيث هم إلى خير الله تتلقى عدة رصاصات طائشة لا أحد يعلم بمصدرها. اعتبرها البعض شائعة. لكن الشائعة تعزرت رسوخا بعد انقطاع الأخبار، وغياب الأستاذ عجمي أسابيع متتالية وظهور جاهدة السودا وقزمها "راضي" في منطقة المفارق حيث منزل عظيم الضبع، بل وخروج أمين المجذوب من طاحوته التي تدانت منها البيوت حتى كادت تلاصقها.

\*\*\*



3

## سوءاء معفرتة تجلب النحس

"انجبت قزما بعد حمل أربعة عشر شهرا"





لا أحد يتذكر أن دخلت أم الشهور للضبع، أب أو ابن، بيتا. هو إذن يوم أسود كطاحونة المجذوب ليلا في نهاية شهر عربي. "الولية" التي تقيم ليالي الذكر والدروشة وتسير عارية الشعر بصدر مفتوح نصف عار، ها هي تسير في طريقها إلى بيت الضبع مكشوفة النحر كذئب التهم لتوه خروفا ضالا. مناسبة تعيسة ألفت بها في خير الله وأخرجت المجذوب من طاحونته المسكونة ولا شك. يتحفز الجميع وتصمت الألسنة لكن العيون كثيرة الكلام والبوح.

تقول صالحين إنهم "زي عروق الطيز ساعة الخرية يتجمعوا".  
 فينتفض أبو ياسين مشيرا بسبابته لإسكاتها "هسسسس!"  
 وحين ترى جاراتها يتقطعن على الخبر يتناقلن تخميناتهن  
 تقول:

"اللي تحبل في مكة يجيبوا خبرها المجاورين" غدا سيأتي  
 الخبر وإن كان خيرا فخير، أو شرا فنفسه.

\*\*\*

منذ متى لم تصعد جاهدة السودا خير الله، لا أحد يتذكر. لكن الواقعة حاضرة في أذهان كثيرين قدامى، بينهم الشيخ يونس.

شوهدت يوما بشارب عريض ولحية طويلة فوق الجبل، قبل أن تلتئم شوارع خير الله وحواريها، لتقول للضبع الكبير "الزم هذه الحدود ولا تتجاوزها" قالت إنها تعرف حاله، وأن الرجل ليس بشارب ولحية كثة، فصار هناك اتفاق لم يكتبه أحد بينهما، أن يلزم كل منهما حدودا.

ولم يرها أحدًا تاليا إلا في واقعة أخرى رآها الشيخ يونس وأعاد قصها على مسامع كل ساكن جديد. يوم جاء ضابط المباحث من قسم البوليس لمعاينة جثة فاحت رائحتها داخل مبنى الإسطنبول، وبعد المعاينة ترك سيارة البوكس مع اثنين من عساكره ليلا حتى مجيء وكيل النيابة صباحا، ولم يحل الفجر حتى كانت السيارة "شاسيه" فقط يقف على أربعة حجارة بدون إطارات أو أبواب أو هيكل خارجي. ذهبت يومها جاهدة السودا بجوقتها إلى بيت للضبع  
تبلغه:

**"لو مالكشي كلمة على رجالتك أسيبك راضي يمشيهمك"**

وكان راضي ابنها القزم الذي حملت به في السجن. يومها أخرج الضبع فَرْدَهُ من جيب الصديري وأطلق رصاصة باتجاه أحد رجاله وهو يسأله "لي كلمة عليكم ولا لاه يا واد؟" ويرد الواد

متألماً كاتماً صراخه "كلنا خدامينك يا معلم"، ولم يكن "الواد" ذاك سوى غيضان الذي نالت الرصاصة ثلاثة أصابع من كفه العريضة فجعلتهم ذكرى ليوم أغبر ظهرت فيه جاهدة السودا المعروفة بأم الشهور. وذكرى لاسم غيضان الذي عرف تاليا بأبوتلاتة، ونسي اسمه الذي انولد به في مكان لا يهم أحداً.

وكانت السرقات الكبيرة وتجارة السلاح وحوادث القتل من المحظورات التي حرمت جاهدة وقوعها في منطقتها، واستطاعت أن تفرض التزاماً على الضبع في خير الله وعلى غيره في المناطق المحيطة حتى يظل الزمام كله بعيداً عن سطوة الحكومة.

علم - إذن - الضبع بسرقة سيارة الحكومة في الإسطنبول عن طريق جاهدة التي يفصلها عنه مشي يقطع الأنفاس. سُرقت السيارة وفي الأسبوع التالي كانت تباع كقطع غيار في أسواق الجمعة والثلاث والاثنين ووكالة البلح، بعد أن تفانى سريحة نظرة في عمل ليلي شاق لم يزعج العسكريين النائمين هنيئاً في بوابة الإسطنبول إلى جوار سيارة الحكومة.

أما نظرة فسيندم سنين حياته المتبقية جراء ما فعل. فما أن علم الضبع بالواقعة حتى استدعاه من الشونة بعد انصراف السودا. لم ينطق نظرة بحرف، وقد رأى في عين الضبع الدامية كقطعة فحم ملتهبة غلاً أخرسه. وهو من أطلقوا عليه منذ زمن اسم نظرة

لخروج الرزاز من فمه وهو يتحدث سريعا متواصلا بلا توقف.  
أخصاه الضبع. ربطوه في بوابة منزل المفارق وخلعوا عنه  
لباسه وقطعوا عضوه، ثم تركوه ليعود لأجفان مسلوب الذكورة  
كبغال سيد عضمة التي يخصيها قبل بلوغها حتى تتفرغ للسير  
والجر وليس للنكاح والنط. وكانت أجفان مصابة بالسوداء، لا  
ينتهي شبقها بانتهاء الجماع. يعمل معها المرة فتظل على وضعيتها  
بانتظار المرة التالية حتى انهد نظرة وصار مسلولا كعود كبريت.  
عانى نظرة من شبقها وعينها "الجِخْرَة" التي تطلب دون خجل.  
أراحه عظيم الضبع فعاد بدينا ثقيلًا تملؤه الصحة. وكان الضبع  
يقصد بإخصاء نظرة إعلان رسالة مفادها أن الضبع الكبير لم  
يمت، وأن خليفته قادر على حمل الأمانة وأداء الرسالة، وكان  
حديث العهد بالرسالة.

\*\*\*

يؤكد أبوياسين أن جاهدة اسمها أم الشعور وليس أم الشهور،  
ويؤيده خليل وأحمد الفران والعسكري، باعتبار أن الأول ذو مغزى  
بخلاف الثاني. ويرد الشيخ يونس ساخرا:

"أعمى يقول لأعمى، سنة سودا ان اتجمعنا!"

## تسأله صالحين "أمال يا شيخ يونس؟"

فيحكي الشيخ أن للحكاية أصل وفصل. جاهدة كانت قمرا يخوت من يطالعه ولو من بعيد. تضيء - على سمرتها - ظلام الألباب وتوقظ نائم الرجل، وتُخَيِّبُه إن كان ميتا. طلبها الضبع الكبير فأسقته الدَّلَّ قناطر حتى هدّه المرض والحسرة. اختارت آخر غلبان لجأ إليها بزوجته وعياله يطلب شبرا يأويهم. تزوجته، وبعد أشهر وجدوه جثة منفوخة في بئر أم سلطان. اتهموها بقتله فأنكرت أن الجثة لزوجها. قضوا بإعدامها، وقبل تنفيذ الحكم، قَبَّتْ بطنها كسمن ناقة ممتلئة. قالوا إنه لا يجوز إعدام الحُبلى حتى تضع وانتظروا. تسعة، اثنا عشر، أربعة عشر شهرا يا مؤمنين يتحرك الصبي في أحشائها ولا يفكر في الخروج. أرادوا فتح بطنها وإنزاله عنوة، فرفضت. حتى أطلقوا سراحها بعد ظهور براءتها، لتضع "راضى" قزما جسده في حجم رأسه. لا هو ابن المقتول ولا ابن مأمور السجن أو أحد ضباطه أو حراسه، جاهدة أم الشهور فقط تعرف أب الصبي.

## "الكلام ده حصل بصحيح يا شيخ يونس؟"

يقسم بكتاب الله أن هذا حصل وأكثر. مخاوية، عفرتت زوجها، فاخفتى لسنوات حتى ظهر من جديد، فاصطفاه الضبع وأسكنه إحدى طواحين العزبة البحرية وحظر على الآخرين دخولها.

"أنهي طاحونة يا شيخ يونس؟"

"طاحونة أمين المجذوب، ما هو أمين كان جوز جاهدة  
يا ولاد!!".

أما مراته وعياله.. فماز الوافي كنف أم الشهور، جاهدة السودا  
ترعاهم كابنائها.

\*\*\*

صعدت جاهدة إلى خير الله بعد إطلاق النار على سيارة  
مندوبي المنظمة. أبلغت الضبع أن المولظمة تعمل في خير الله  
بإذن الحكومة، وأنها في حمايتها وحماية أسعد السجيلي رئيس  
المباحث، أبلغته أن يتخير واحدا ابن حلال من عيال العزبة أو  
ابن حرام من بين رجاله ليقدمه متهما بإطلاق نار على السيارة  
حتى لا تفتح الحكومة تحقيقات. فعل. وعاد الأستاذ عجمي سريعا  
بالموافقة على طلبات المساعدات التي حررها السكان باحتياجاتهم،  
وجدولا زمنيا لتنفيذها.

\*\*\*

4

## كتاب حياتي يا عين

"سطران من الفرح تم تدوينهما سهوا"





يضرب عماد عضمه شعره بصبغة الأوكسجين ليبدو كعش حمامة بيّاضة فوق شجرة معمرة. يرتدي قميصا ارتداه حسن الأسمر في فيلم بوابة إبليس وهو يغني "سألوني.. أنا مين؟"، يصطحب أخته هدى إلى بيت عجمي طالبا دعم "المولظمة" لمشروعه. شريط كاسيت ألعانه جاهزة وكلماته قيد الإعداد، فقط ثلاثة آلاف لطلوح يمكنه الحصول عليها على سبيل القرض الحسن ويكتب لهم بها ورقة ضد، شيكات أو إيصالات أمانة، ولو أرادوا يمكنهم الدخول كمنتج ولن يشاركهم الأرباح.

يجيب عجمي أن بيت أبيه سيد عضمة مسجل كطالب مساهمة استكمال بناء غرف داخلية وأدوات حدادة. يثور عماد. يشخر، يخلع قميصه المشجر ويلقي به أرضا، بلبوصا، يختفي داخل منزله ويعود سريعا بسيف ذى أسنان خلفية كأسنان المنشار، يتجمع سكان الشارع على وقع خواره المزعج. يخرج ناجي ويسارع بتكثيفه ليشل حركته. يساعده أبوتيتو وخلييل وبيتعدون به عن مدخل المقر، بينما يصيح عاليا أن "ابن المتن.." أخذ "المولظمة" لحسابه.

يقول عماد عظمة إن ابن امبارح يتحكم في أهل العزبة ويذلهم. يقسم أن يشج رأسه فلفتين لو يتركوه.

في العادة يكون للثائر غضبا - خاصة في المشاجرات - مساحة واسعة من الحرية ينفث بها ثورته، ومساحة احترام للحالة التي وصل إليها حتى إن كان الشخص نفسه تافها حقيرا. دقائق معدودة يُمنح خلالها حق السب والتلطيش في الجميع، وعندما تنتهي الحالة سيجلبه أحدهم ليعتذر عن أخطائه في "قعدة رجالة" في بيت محايد. وكممثل مسرحي محترف استلبه الدور فتقمصه حتى الثمالة، صاح عماد عظمة إن عمي "ابن الشرموطة سجل لصالحين عداد كهريا ومباني عشان حبيبة قلبه".

ولم يكذب يتم جملة حتى نالته صفة قفا انتزعت من موضعه وألقت به عدة أمتار خارج نطاق الزمن، وقبل أن يعي أحدهم شيئا مما وقع، كانت كف ناجي تنزل مجددا هذه المرة فوق رأس عربي أخيه والذي لم يكن ينوي التدخل لنجدة أخيه بأي حال، ذلك أن تغييرا حادا طرأ على طباعه في تلك الأونة فكانت بداية مشيه مع سنية الشيخ عدوي.

ولولا صياح صالحين الذي استطاع ناجي تمييزه وسط الجلبة لسطر صفحة جديدة من تاريخ العزبة في وجهي الأخوين عربي، واغتال حلم الشهرة والنجومية بعاهة دائمة في ملامح عماد.

في المشاجرات، نسائية كانت أو رجالية، تطفو خفايا النفوس وتتكشف أسرار البيوت وخباياها، وما يتداول في النطاقات الضيقة والجلسات الخاصة تصيح بأقبحه الألسنة أسلحة مباحة في معارك الشوارع والحارات، فتفضح الأسرار وتتكشف الخفايا التي ظن أصحابها أنها في آبار سحيقة، بل كان ما تقذف به إحداهن في مشجرة ما، تتلقفه أخرى ليظل سلاحا احتياطيا في يدها ضد جاريتها حال تبدلت الظروف وتقلبت القلوب واحتالت المودة شقاقا.

زوجة العسكري: "شحتي كوز زيت ورجعتيه ف كوباية شاي  
يا منتنة"

أم ضحى زوجة أحمد الفران: "بنتك اللي ماطلعتش م البيضة  
روحي شوفي محمد الأزعة بيزنقها فين يا علة"

صباح زوجة شعبان: "ياللي زكريا فتح عليك الحمام يا مرة  
يا وسخة"

هدى عضمة "ياللاه يا بناعة الجدعان.. ياللي مالكيش راجل  
يلمك"

نماذج مختلفة لمشاجرات بدأت بإلقاء مياه معبقة بصابون الاستحمام في الشارع وانتهت بمعركة نذفت فيها الدماء والسمعة الطبية.

ولم يكن ادعاء عماد عضمة بمحاباة عجمي لصالحين محض افتراء كامل، فقد كانت صالحين أول أسماء "الكراسة" والكراسة هي دفتر المسجلين الذي يحوي الأحلام المؤجلة للعزباوية سكان خيرالله. لصالحين عداد كهرباء وبناء غرفة مسقوفة بالخشب تدفع المنظمة نصف تكلفتها، لكن سوتشيك دفع تكلفة إضافية، ليغفيها من نسبة تحملها.

لخليل سلفة نقدية تسترد خلال عام لتوسعة دكانه وتحويله إلى تجارة "جملة"

ولأبوتيتو مساعدة في افتتاح "سِرْجَة" لبيع الأجبان واللانшон والرنجة والمعلبات.

سيد العسكري سبيني سورا حول منزله.

سيد عضمة سيحصل على مبلغ نقدي لشراء أدوات حدادة لكنه سيتراجع ويقرر - مخالفا اتفاقه مع المنظمة - فتح دكان للعب الأتاري، مواسير مجارير يخرج منها "سوبر ماريو" يتقافز في مخيلات أطفال العزبة وصبيانها، يقفز من مكان إلى مكان يجتاز المراحل الواحدة تلو الأخرى. محمد صالحين كان دائما يصل إلى الوحش في نهاية "الجيم"، ويتجاوزه ليتزوج بالعروس بعد أن نجح في فك شفرات اللعبة.

بينما الشيخ يونس لن يستفيد من المنظمة فلا عيل له ولا امرأة، فضلا عن رفضه أن يتكلف مليما في بناء طوبية.

\*\*\*

هنالك تشرف الأستاذ عجمي بطلب يد صالحين، وحمل أبو ياسين وزوجته لها البشارة بعد أن أعطيا الرجل كلمة وربما قرأ فاتحة. لكن الأخيرة ذات "دقة العبط" قالت إنها لن تثبت تهمة عماد عضمة على نفسها، وقالت إنها زوجة لأربعة، كرجل حريص على تطبيق الكتاب يرى أن الأصل في الزواج التعدد. قالت إنها لن تزرع كافورة بين شتلات لبلاب فتشرب مياهها وتأكّل من خصب ترابها. أن صوت محمد متلاهثا خلف صوت محمود مرسي في مسلسل أبو العلا البشري بمائة رجل.

يعلنها أبو ياسين قطيعة بينه وبينها لأنها سوّدت وجهه في وجه عجمي. ولا تنتهي قطيعته إلا عندما يجلب عجمي، سريعا، عروسا دسمة بيضاء كالحليب بعيون قططية ملونة تخلب الأبواب وتستلب الأنظار، أقرب شبها بأولئك الذين جاءوا من أطراف الدنيا إلى خير الله ليتفرجوا على سكانها. ليست بلدياته من بليس، لكنها من بلدة أخرى قريبة اختلطت أنسابها بالفرنسيين قبل مائتي عام فأثبتت زروعا ملونة جذابة، تخلب الأنظار إلى أن تتحدث، فإن فعلت

عثروا على وعاء العبط الذي نهلت منه صالحين دقتها.  
أي بقرة نتعت ذلك السطل من القشطة يا أستاذ عجمي؟

\*\*\*

جلب ناجي قالب حديد مجوف بكابس متحرك. ذو فتحتين. يقوم  
بملئهما بخلطة تحتوي أسمنتاً ورملاً وقليلاً من الجبس والزلط أو  
الحصى الأبيض. ثم يقوم بدك الخلطة داخل فتحتي القالب الحديدي  
بضربها بظهر "الكوريك" حتى تتماسك الخلطة داخل القالب، يحمل  
ناجي القالب ممتلئاً بالخلطة ويقبله على الأرض، لإفراغه ويضغط  
عليه بكابس متحرك، ثم يرفع القالب تاركاً الخلطة الأسمنتية  
للجوء، لتخرج في صورة مكعبات مستقيمة بديلة لقوالب الطوب  
الأحمر الذي يتجاوز سعر الألف منه سبعين جنيهاً. بينما ثلاث  
شكائر أسمنت وثلاثة أمتار مكعبة من الرمل مضاف إليها كميات  
من الحصى الأبيض أو الظلط تعطي هذه الألف طوبة بنحو ثلاث  
المبلغ فقط.

ما أن يستخدم ناجي القوالب الأسمنتية التي صنعها في بناء سور  
للبيت أمامي وخلفي، حتى يطلبها آخرون باعتبارها أكبر حجماً  
وأكثر قوة ووزناً وأقل تكلفة.

يضرب ناجي أعداداً أخرى كبيرة من الطوب الأسمنتي فوق

غطاء "مشمع" بلاستيك مفروش فوق الأرض. ويتركها تحت الشمس ليومين متتاليين يقوم بعدها بقلبها على أحد جانبيها لتعريض الجزء السفلي للشمس حتى تجف وتتصلب، ليقوم بجمعها تاليا في صفوف منتظمة تمكنه من إحصائها.

صارت مهنة جديدة سرعان ما انتشرت بعد أن وجد فيها آخرون وسيلة جيدة للاستعاضة عن الحجارة الصخرية التي تستهلك في بنائها كميات كبيرة من "المونة" وعن الطوب الأحمر والبلوكات غالية الثمن. لكن قليلين جدا من استطاعوا إخراج قوالب مستقيمة ذات سيمتريّة واحدة متناسقة كتلك التي خرجت من تحت يد ناجي. ذلك أن الجزء الأصعب في مهمة تصنيعها كان هو إفراغ محتوى القالب الحديدي من الخلطة الأسمنتية على الأرض حيث كان أغلب المحتوى يخرج مفتتا غير متماسك.

بهذه الطوبة الأسمنتية والحمراء والجيرية والبلوكات المفرّغة، تحوّلت خير الله إلى معسكر إشغالات، وبدأت للمرة الأولى وكأنها ترهّلت بين يدي الضبع ورجاله، وللمرة الأولى يمتنع الكثيرون عن دفع "المعلوم" بحجة أن الفلوس في يد مندوبي المنظمة وهم من يتولون الإنفاق.

\*\*\*

يشبّ الصبي في خير الله وسرعان ما تنمو له مخالب حادة  
ولسان أطول من عمر أجداده، لم يرثوا طبائع آبائهم إلا قليلا. لم  
يفدوا من أطراف قرى ريفية بعيدة مسطحين فوق قطارات السكك  
الحديدية. لم يأكلوا ترابا في رحلة بحث عن وظيفة في مصنع  
حربي، أو شركة أسمنت، أو جهة حكومية أو عملا منقطعاً في  
البناء. ولم يسكنوا جبلا متحملين مشقة الانتقال صعودا إليه وهبوطا  
من أجل جدران أربعة تأوي أهلهم. بل نشأوا في قلب خير الله،  
بعد أن صار الجبل الأجرد أتونا تنصهر فيه أصناف البشر، فشب  
بعضهم مساطيل ومدمنين ومشردين ومتسولين. قليلون للغاية من  
صاروا أبناء مدارس، بينهم إخوة صالحين أربعة.

ولم تُعدّ "الزُقلة" المدبّبة في يد أي من رجال الضبع وسيلة  
إفناع كافية لهم، كما كانت لأبائهم منذ سنوات. حتى الحلبي الذي لا  
ظهير له يرد عنه الأذى، كان حين ينضرب قفا لا يبتلعه بسهولة  
وأريحية كما كان أبوه، وإنما ببرطمة مسموعة اعترضا معلنا،  
وإيدانا بصدام وشيك حال تكرار الإهانة. وكانت صفعات ناجي  
لصنديل وأبوتلاتة في مطلع أبوقرن حاضرة في الأذهان دوما.  
اعتبرها كُتْرُ مَفْصَلا في علاقة العزباوية برجال الضبع الذين  
كسروهم نفر بطوله ولم يخش سوء عاقبة.

وكان حضور هذه الواقعة في الأذهان سببا مباشرا في تجرؤ  
أحمد الفران لأن يفتح محضرا في قسم الشرطة ضد أحد رجال



الضبع يتهمه فيه بالتعدي والسب والسرقة، ليسجل سابقة أولى في تاريخ خير الله، سابقة تلقفها السجيلي رئيس المباحث لينزل منطقة المفارق على حصان بني لامع، من خيول الحكومة بطبنجته الميري في حزام بنطاله، ولاسلكي الراديو معلنا في تظاهرة قوة أن الحكومة جاءت لتبسط سيادتها هنا في خير الله.

وقبض السجيلي على رجل الضبع من داخل بيت الشيخ الضابط الذي يوجره بالغرفة. ثم تكرر نزوله تاليا للسؤال عن أسماء بعضها يعرفونه وأكثرها لم يسمع به أحد.

وبعد أيام قليلة يطلب الضبعُ أحمدَ الفران ليوقع محضرا بالتنازل عن البلاغ. ولا تمر أسابيع معدودة حتى يبيع الفران بيته الصغير منتقلا ببناته وزوجته للمرج بعد أيام مريرة عاشها كنصف رجل عجز عن استرداد حقه بيده فلجأ للحكومة كالعويل فلا نفعته الحكومة ولا ظل رجلا بين جيرانه.

قال الشيخ يونس "السجيلي واقع مع الضبع عشان المصالح"، وأنه لم يحبس رجل الضبع حبا في عيون الفران أو تعاطفا معه، وإنما نكاية بالضبع حتى ينصلح حاله، وعندما زال الخلاف وعادت المياه لقناتها الجارية راح الفران تحت نعالهم.

كانت الخلافات بين الجيران على حدتها تنتهي بأن يخلع أحدهم الملابس عن نصفه العلوي ويلوح بشيء حاد يهدد به خصمه

حتى يتدخل طرف ثالث للتهنئة، أو يستدعي آخرين من أقاربه أو بلدياته للاستقواء بهم واحتلال مكانة مناسبة في السلم الاجتماعي العزباوي. أو تنتهي المشاجرة قبل بدنها بأن تنتسب به زوجته لتمنعه من الخروج فيستجيب وقد أقنع أهل بيته أنه قادر على حمايتهم فقط إذا تركوه يحصل على فرصته في عراقك خصمه. أما إبلاغ البوليس فكان العار الذي اتقاه الجميع. فضلا عن خوف فطري استوطن قلوب العزباوية منذ انتهت عملية الهدم الفاشلة وكتبت صحيفة أن سكان المنطقة واضعو يد وبلطجية..

**"ولما يسألوك ع العلوان هاتقول ايه؟"**

بنات الفران كن سبب خلافه مع رجل الضبع. لا أحد يتذكر شجارا زاعقا كان الفران أحد طرفيه، باستثناء تلك المشادات العابرة بينه وبين خصوم "الدومينو" على قهوة مجاهد عند قيام المهزوم بدفع الحساب.

بعد أن خرطهن خراط البنات صرن مطمعا للجميع، خاصة بعدما سرت شائعة بأن زوجة شعبان مرافقة أحمد الفران الذي يستأجر غرفتين في بيت زوجها. لم يعلم أحد مصدر الشائعة وما إذا كانت ذات أصل أم فرع زائد من خيال مريض. لكن زوجة شعبان خرجت عارية الرأس تولول صارخة لزوجها الذي ألقى عليها يمين الطلاق يتهمها في شرفها، مذكرا إياها بكلمة عابرة قالتها ذات مضاجعة "العدة بتاعتك صغيرة كدة ليه يا راجل؟"

ومعها ضحكة لم يتبين جوهرها. يومها أكمل مرَّته السريعة وانكب على وجهه يغط غطيظ جمل بكر. ولم يتذكر كلمتها القاسية سوى الخميس التالي عندما حان موعد المضاجعة الأسبوعية، لكنه لم يجد ما يكفي من الدم المتدفق إلى شينه الصغير لنفخ حياة في شرايينه، فسألها غاضبا: "وعرفت ازاى يا مرة إن بتاعي صغير؟" فردت سريعا:

انا بضحك معاك يا راجل.. هو أنا مكفياها؟

ليعود الدم، تواء، نهرا متفقا في أوصاله يبعث في نفسه السعادة والرضا.

قالت زوجة شعبان أن زوجة زكريا هي التي أطلقت الشائعة، فأقسمت الأخيرة على الكتاب أنها لم تفعل. لكن زوجة شعبان لم تقنع بالقسم، وأصررت أن تتبشع، ولم يكن من مبشع يعرفونه سوى أمين المجذوب الذي كان يخرج من طاحونته البعيدة على فترات متباعدة تتبرك به النساء باعتباره وليا كاشفا للأسرار.

جىء بالمجذوب وقد طالت لحيته حتى السرة كلوف نخيل ملبّد، وملابس قذرة ورائحة نتنّة. جلبوا له "أروانة" ملاًها بالتراب ووضع قطعتي خشب جاف فوقها، أشعلهما ودس بينهما طاسته الحديدية، وعندما احمرت ملتبهة دعاهم لقراءة الفاتحة، لكن زوجة زكريا أعلنت فجأة إنها لن تتبشع وحدها، واشترطت أن تتبشع

زوجة شعبان معها على أن أحمد الفران لم يلمسها. صرخت زوجة شعبان مفتعلة شجارا مدويا لإنهاء الجلسة دون أن تضع إحداهما البشعة تحرق لسانها.

كانت زوجة زكريا مشاءة بنميم، لم تؤتمن على سر إلا وفضحته، بل كانت تضي على نميمتها ما يجعلها تسترعي الانتباه وتنطلق في سماء خير الله كغراب محوصل. ولم يكن ما بين زوجة شعبان والفران سوى إعجاب منها بعضوه الذي شاهدته يوما وهو يجلس بجلابيته الواسعة مضطجعا على الأرض دون لباس داخلي يستر أشياءه. وذلك عندما كان يستأجر الفران غرفتين متقابلتين في منزلها، وكانت الزيارات متبادلة بين سكان البيت الواحد بشكل شبه يومي، يومها أسرت زوجة شعبان بما رأت لزوجة زكريا على سبيل الدعابة، فسارعت الأخيرة بدورها إلى زيارة زوجة الفران ومعها أخرى وأيضا رأت ذلك الشيء الأسود كثعبان يتململ في جحر مظلم تحت جلابية خفيفة، وتبادلتا نظرة صفيقة وخرجتا تضحكان، ولأن الحكاية كانت بلا إثارة أضافت إليها زوجة زكريا فلفها الحار، فصارت أن "الفران مرافق زوجة شعبان لأن اللي عنده أكبر من اللي عند جوزها".

وعاد شعبان بزوجته وأولاده إلى الفشن بعد أن باع البيت بالرخص، في وقت كانت أنباء الدائري الذي سيقسم خير الله إلى ضفتين تطلان على نهر طريق سريع تتداعى كزخات مطر

تتتابع بلا توقف. بينما ظل أحمد الفران يخطر في مشيئة كديك  
شركسي ذي سمعة تلقيح طيبة لبعض الوقت، قبل أن يشاع أنه  
نجس الذيل، والبعد عنه مغنم، وصار الفران وبناته مطمعا، يتجرا  
عليهن الطائشون كأن لا رجل لهن. ولم تكن مثلبة الفران وحدها  
هي سبب النظرة الدونية التي كان ينالها من البعض، فقد كان لكل  
منهم مثلبة، والجميع معايير ومثالبهم، لكن الفران، شأن صالحين  
والشيخ يونس وخليل وأبوياسين وآخرين، لم يكن مقصدا لزائرين  
يعودونه من بلاد بعيدة واصلين رحمه.

الزائرون الأقارب والمعارف هم مفخرة مضيفهم بين جيرانه  
الأقربين والأبعدين، يمنحون مضيفهم السيرة الممتدة والجذور  
البعيدة. فلان زاره أقارب إذن ففلان ليس مقطوعا من شجرة  
شيطانية روتها سحابة عابرة، بل هو من جذر أصيل نبت في سهل  
خصيب مفعم بالفروع التي يتوق بعضها لبعض. أقارب الدم ليسوا  
معارف مقاهي يحمل كل منهم للآخر جميلا قد يرده في مشاجرة  
وقد لا يفعل. الفران كان أكثرهم أصدقاء ولم يجد حوله منهم، أمام  
رجل الضبع، واحدا يقف في ظهره. حتى الحكومة التي لجأ إليها  
محنيا لم تفعل.

\*\*\*

لا أحد يتذكر كيف تسَلَّت، كحبة رقطاء، إلى أذهانهم فكرة أن سكان العزبة جميعا مطلوبون بتهمة الاستيلاء على أرض الحكومة ومقاومة الأمن، وأن الحكومة بانتظار حضور أي منهم لتحرير محضر أو شكوى أو عمل "فيس وتشبيه" ما أن يدوّن به عنوانه بعزبة خير الله حتى يتم القبض عليه وإلقاءه في الليمان.

كان شعورا جمعيا عميقا بأنهم متورطون بجريمة ما، أو مخالفة قانونية تدفع كل منهم لتسوية أموره بعيدا عن سلطة القانون والدولة. كانت نظرة واحد منهم إلى الزبي الميري نظرة الهارب من دين مستحق قديم. تجربة مريرة كانت تجربة الفران وشتت في نهايتها بأن أسعد السجيلي، ضابط المباحث، دخل عب الضبع من جديد ولم يخرج، وإن سمح له الضبع باختبار قوة خيول الحكومة في اجتياز شوارع العزبة من حين لآخر واصطياد أحد المطلوبين أو موزعي الحشيش أو عائري الحظ الذين يمكن أن يقرأ رجالات الأمن في وجوههم مخالفات قانونية محتملة.

\*\*\*

لم ينمُ عدد رجال الضبع كما نمت العزبة سكانا وبيوتا وخرابات وأفرادا. فقط أبناء الضبع وأبناء رجاله وبعض حلفائه. ولم يبق من أمجاد من تبفوا من رجاله سوى أشباح لذكريات غابرة وظلال لمسحات شريرة لم تفقد صيتها لدى من خبروها. أما أجيال مواليد

العزبة فلم تر من هذه الأمجاد سوى قصص خطها الخوف وأبقت عليها الخرافة.

دكاكين تنتشر وورش تفتح وبيوت تنطلق لأعلى دون أعمدة أو أساسات تدعمها. تضيق الشوارع بسكانها وتصبح حارات وأزقة. أحدهم يقرر قطع شارع من منتصفه بغرفتين بناهما أمام منزله ليصبح الشارع شارعين مغلقين من الجهتين، دون أن يكلفه ذلك سوى مشاجرة مع جاره المقابل الذي وجد نوافذ بيته المطللة على الشارع قد أوصلت بحوائط بيت جاره التي قفزت في وجهه فجأة دون مقدمات.

ولم يعد مدخول العزبة يملاً سيالة الضبع بعد أن اتسعت إنفاقاته. لكنه ومع ذلك كان ينفق من وسع، ولم يبذ عليه عَوَز للمال أو احتياج. أعاد بناء منزل المفارق أربعة طوابق من الخرسانة تحيطه حديقة صغيرة ذات بوابة حديدية هائلة لها مطرقة في شكل رأس أسد. وابتنى منزلاً جديداً في شارع الصيانة، أعطى طابقه الأول للشيخ الضابط لجعله محلاً لبيع الإلكترونيات بالتقسيط. المحل الذي اشترت منه صالحين تليفزيون الشارب الجديد. ولم يتوقف كيف الضبع، بل تنوع، فلا يضع مبسماً في فمه إلا مغموساً بقرص حشيش "على أبوه"، وكانت هديته المعتادة لمعازيم الأعراس التي يحضرها "طربة" كاملة يسطل دخانها الجن في طاحونة المجذوب.

"ماحنا عارفين انه بيتاجر في الهباب الازرق يا شيخ يونس"  
خليل.

\*\*\*

دخلت "عدادات" الكهرباء، وكانت لها - بالأخص - مكانة  
ورمزية، ذات وقع في النفوس.

ألن تأتي فاتورة نهاية كل شهر أفرنجي باسم صاحب البيت  
ممهورة بخاتم شركة حكومية تعترف رسمياً بوجوده وسيادته على  
هذه القطعة من العالم. مناطق عديدة شهيرة بها عمارات عالية  
يسكنها بكوات وتستطيع الحكومة كنسهم بورقة بالية من رئاسة  
الحي، فلا عقود يمتلكونها ولا فاتورة كهرباء بأسمائهم.

أما خير الله!!

خير الله أرض تعترف بها الحكومة بإيصالات زرقاء يأتي بها  
محصلو شركة الكهرباء ولا يتعتعون حتى يحصلوا قيمتها. وإلى  
أن تقضي المحكمة بتمليكها لهم أو طردهم فإنهم راكبوها. والفواتير  
لن تكون عالية بعد أن يجد كل ساكن طريقة لإصابة عداده بالكسل،  
فيضع أبوياسين، مغناطيس معدني ينزعه من سماعة راديو فوق  
صندوق العداد ليبطئ حركته، فتأتي الفاتورة نهاية الشهر قروشاً  
معدودة يدفعها للشركة على الجزمة.



وأولئك الذين لم يكثرثوا بتركيب العدادات، قانعين بسرقة أسلاك 12 مللي من الكابلات العمومية لإنارة بيوتهم، فيعلمون أن حسنة الحكومة حين تأتي ستشمل الكافة، تماما مثلما يلتهم وباؤها الكافة أيضا.

وعلى الرغم مما ستتسبب به سرقة الكهرباء من إشعال لحرائق وإتلاف لخطوط كابلات لكنها ستظل عادة لا تنقطع. عادة سيبقى عليها سخاء عمال شركة الكهرباء الذين اعتادوا تركيب الكابلات الجديدة وترك الكابلات التالفة مطمورة تحت التراب يقتتل في سبيلها سريحة نظرة وجامعي الروبايكيكيا وأصحاب البيوت التي تمر أمامها هذه الكابلات. يتركونها مقابل مبالغ نقدية تجمع لهم من سكان البيوت المتضررة من انقطاع الكهرباء، ومقابل زجاجات ساقع وعلب سجائر تنثر عليهم طوال فترة عملهم في تركيب الكابلات الجديدة.

وستظل استجابة عمال شركات الكهرباء للبلاغات التي ترد من العزبة أسرع من تلك التي تأتيهم من مناطق أكثر تحضرا، ذلك أن العزباوية يجزلون العطاء ويدفعون ثمن إعادة التيار. العزباوية لم يعتادوا الحصول على خدمة دون مقابل. وكانت المياه المبردة وهواء المراوح وأجهزة التلفاز والملابس المكوية والطماطم المضروبة في الخلاطات الكهربائية من كماليات الحياة التي لم يعتادوا عليها بعد، ومن ثم كان الحرمان منها لبعض الوقت

أمرا يمكن التعايش معه بسهولة، باستثناء مسلسلات المساء التي لن تعاد في اليوم التالي. ومن ثم، أيضا، فإن مجيء عمال لإصلاح تلف الكهرباء سيكون أمرا محمودا يستحقون عليه الإثابة. بينما في مناطق أخرى، خدمات الكهرباء والمياه والصرف هي حقوق تضمنها الحكومة ولا يجوز تعطيلها. يأتي عمال الكهرباء بمعداتهم فيقضون النهارات تحت أشعة الشمس في إصلاح الأعطال دون أن يتفضل واحد من سكان العمارات الفارحة بإرسال صينية شاي تضبط أمزجتهم الخربة، أو يقول "خَلِّي عَنْهُ".

لكنّ عددا من العزباوية يجعلون منها صناعة وتجارة مضمونة الربح. حربي وعربي وغيرهم سيبدرون تحت إلحاح الكيف وقلة منتج التوزيع لابتكار وسيلة استرزاق جديدة على أافية الغلابة بفصل التيار الكهربائي عن الصندوق الرئيسي أو تدمير أحد الكابلات المغذية، ليقوموا بجمع جنيه من كل بيت بحجة استئجار سيارة لجلب عمال الشركة لإصلاح العطل. بل والاستيلاء على الكابلات الرئيسية وإذابة ما تحتوية من ألومنيوم ونحاس وبيعها خاما.

خير الله الجبل متنفس لأصحاب الميول نحو اللصوصية ومعسكر جيد للتدريب على جرائم صغيرة، قبل احتراف المتدربين خارجها.

سرعان ما تلحق أنابيب المياه بعدادات الكهرباء فتمر أمام بيوت شوارع العزبة الرئيسية. يتشارك كل مجموعة جيران في شراء مواسير بلاستيك وأفيزات ومحابس لعمل وصلات من هذه الأنابيب الرئيسية إلى الشوارع والحارات الجانبية. لتصير شبكة مياه بدائية كبكرة صوف بين قدمي قط شيرازي مهجن.

كذلك صارت مواسير الصرف. صارت لخير الله شبكة صرف معقدة لا يستطيع أحد تتبع أطرافها سوى متولي الخرار الذي أحال العربة الطنبور خاصته من نزح الطرنشات إلى فنتاس صغير لنقل مياه الشرب يقودها ابنه حسين إلى البيوت التي لم تطلها أنابيب المياه، بينما يتفرغ الخرار نفسه لصيد مخلفات السكان من تقاطعات الأنابيب والمواسير وفوهات البالوعات التي كانت كلما انسدت أغرقت الشوارع في برك سوداء برائحة غازات متحللة.

وصار بمقدور صالحين أن تفتح صنبورا مثبتا تحت عداد الكهرباء لتغسل أوانيها وملابسها وتملأ زجاجات بلاستيكية ترصها في فريزر ثلاجتها الإيديال، التي اشترتها كاش، دفعة واحدة، بما تبقى من ثمن الغرفة التي اشترتها الأستاذ مجدي السلاموني.

\*\*\*



5

## برانيط لا تقي حرارة الشمس

"لكنها مجانية ومن الكرتون ولن يضر ارتداؤها"



بعد شهر قليلة من وصول المياه، تستقبل خير الله خطابا مرسلا بالبريد، سيأتي "البوسطجي" باحثا عن صاحبه لتسليمه ورقة "التنسيق" وقبوله في كلية الحقوق. يستقبل ناجي الخطاب وسط دهشة وفضول.

وفي العام التالي سيحمل البوسطجي نفسه ورقة تنسيق "علي" المقبول بكلية الإعلام، ولا يتنازل في كل مرة عن "ريال" كبير ورقة واحدة لم تنثن. مؤكدا أنه لا يحمل بريدا مماثلا كل يوم.

وفي العام الثالث سيعود حاملا ورقة جديدة لناجي تفيد بقبوله مجددا في كلية الألسن جامعة عين شمس، ويساوم هذه المرة لنيل "حلاوة" أكبر كأنه يحمل مفاجأة يستطيع إفسادها إن هو قرر عدم تسليمهم ورقة التنسيق. يتسلم ناجي ورقته وقد أيقن ساعي البريد أن شيئا شاذا يدور في هذه الأسرة العزباوية.

كان ناجي قد قرّر - مدفوعا بإلحاح جارهم حسن الكتبي - الاستفادة بفرصة تحسين المجموع التي أتاحت لآخر دفعات النظام

القديم بالثانوية العامة ليدخل الامتحان مجددا مقابل رسوم قدرها مائة جنيه، ويحصل درجات تؤهله للالتحاق بأية كلية يختارها. وعلى الرغم من اعتراض صالحين ورفضها، حتى لا تضيق عليه سنتان دراستان في كلية الحقوق، إلا أنه استكمل امتحاناته دون أن يخبرها. ودون أن يضطر لإهدار عامين قضاهما ناجحا في كلية الحقوق، بلا محاضرات أو مجهود كبير يذكر. التحق بقسم اللغة الصينية في كلية الألسن. القسم الذي يرسل كامل الدفعة للدراسة في بكين في السنة الثالثة.

تجربة يقول حسن الكتبي أنها دليل أدمغ ليس على قدرات ناجي الخارقة، وإنما على فشل مناهج التعليم التي يحشون بها الرؤوس لإفراغها حبرا ملونا في أوراق بيضاء نهاية كل فصل دراسي.

سافر ناجي وسافر علي، بعد انقضاء امتحاناتهم طويلة وثقيلة. وعاد محمد ومصطفى جنينين نائمين في رحم فراش صالحين، بعد أن كانت قد انفردت بغرفة خاصة من الطوب الأسمنتي مسقوفة بخشب جديد تتخلله بعض الفراغات الضيقة. غرفة ساعدت المنظمة في بنائها، لها باب تسمح تفاريجه بمراقبة باب الغرفة المقابلة حيث ينام إخوتها.

كان غياب أخويها نادرا، وغياب ناجي كان أكثر وطأة شعرت به ثقيلًا على صدرها في كل مرة سمعت فيها دبيبا لأقدام مترددة



تمر في الشارع ليلا أمام منزلها، أو كلما سمعت نباح كلبين شبقيين انتفخ قضيب الذكر داخل أنثاه فتعذر عليه الخروج فنبحا إعلانا للفضيحة وإثارة لفرعها، أو مواء قطة تعبت في بقايا صفيحة قمامة مكدسة بما لا يمنح شبعاً لحيوان.

كان غياباً قهرياً لم تستطع منعه رغم محاولتها. ناجي سيدفع تكاليف جامعتين ولن يتمكن غالباً في هذه المرة - وكما اعتاد - من العمل أثناء الدراسة. صالحين ستدعمه ولو قرر الالتحاق بجامعة مصر كافة. ترك سفرهما خواءً لم تشعر به في موت المرحوم والمرحومة قبل زمن. لم تكن أي من الأعمال التي امتنهاها قبلاً تتطلب غيابهما لأكثر من ليلة واحدة أو ليلتين خارج البيت، وكان الوقت كالضيف الثقيل لكنه - بأي حال - يمضي.

عمل ناجي رخامياً بإحدى الورش في "شق التبعان" لعدة أشهر، وسرعان ما أجاد الإمساك "بالصاروخ" الذي يرتد بين يدي صاحبه عند تشغيله كسلاح متعدد الطلقات يجب القبض عليه بطريقة خاصة تتطلب تدريباً وممارسة. أصبح ناجي قادراً على تقطيع "طاولات" الرخام الواسعة إلى "درَج" وترايع صغيرة وتلميعها وتشميعها بمهارة رسام واقعي يعشق ريشته، مهارة أصابت بقية "الأسطوانات" بالدهشة. كان ناجي منذ يومه الأول يبدي إجلالاً غريباً للكثلة الرخامية التي تأتي بها التريلات من الموانئ لتقطيعها إلى طاولات أقل سُمكاً. يستقبلها بإعجاب محب،

يتحسّسُها، يتتبع مواضع العروق الملونة فوق سطحها، تماما كما فعل منذ سنوات بعيدة عندما سمحت له صخور خيرالله بفك شفراتها وتفتيتها إلى مكعبات ليتم استخدامها في البناء. أصبح في فترة وجيزة قادرا على فرز أنواع الرخام وأنواع الجرانيت وتحديد درجاته وألوانه وبلد مصدره. ذات مرة سأله أحد المهندسين عن سبب تحسّسه لكثّل الرخام الجديدة التي يتم جلبها من الموانئ إلى الورش لتقطيعها وجلبها، فقال إن عروق صفحات الرخام الملتوية، إن قاموا بتوصيلها بطريقة متوازية سترسم لوحة حقيقية مذهشة بألوان لا تنمحي. وأضاف شارحا، عن طريق تثبيت الطاولات ذات التدرجات بحيث تصبح عروقها امتدادا للعروق في الطاولات الأخرى. وراقت الفكرة للرجل وخطها فوق لوحة ورقية وعرض على ناجي المشاركة في تنفيذها بقرية سياحية يجري إنشاؤها على البحر الأحمر. قَبِلَ ناجي، وكانت يومية العاملين في هذه المناطق ثلاثة أضعاف نظيرتها لأنها تتطلب السفر والإقامة في أماكن العمل، ما يعني أن عمل شهري الإجازة سيكافئ عمله لسنة أشهر كاملة. أجر محترم سيساعده على توفير نفقات إخوته ونفقات دراسته. بعد أيام قليلة كان يعتلي عريشة سيارة الورشة النصف نقل مع كمية كبيرة من رخام "سربجنت" و"سيسيليا" إيطالي في طريقها إلى "الغرقانة" في شرم الشيخ.

\*\*\*

سافر علي إلى الخطارة. أرض زراعية استصلحت ذات زمن وأنتجت من ثمار الجنان ألوانا ثم صارت بوارا. قريبة من بلبيس عاصمة الشرقية. سافر للعمل ساعدا اجتماعيا في واحد من معسكرات وزارة الشباب الصيفية، بعد أن نجح أبوتيتو في حشر اسمه واسم ابنه ضمن قائمة العاملين في هذه المعسكرات، طوال مدة الإجازة، ليفتقد أبوتيتو اثنين من أهم لاعبي فريق خير الله لكرة القدم. وكان قد نصب أبوتيتو نفسه مديرا فنيا لفريق كان من نجومه الأستاذ عجمي والشيخ عدوي وحربي وعربي عضمة وأشرف الكهربائي وآخرون صغار وكبار، متدينون وشمامون. مقتنعا بقدرته على منافسة الترسانة وجمهورية شبين وأسمنت السويس والدخول بدلا منهم للمنافسة في دوري ممتاز ينقلونه على الهواء مباشرة وتحت الأضواء الكاشفة.

كانت أمنية قديمة لم يتخل عنها بتخطيه الخمسين وانتقاله للعزبة، أقام دورات رمضانوية ومباريات تنافسية مع مراكز شباب رسمية أيام الجمع، فاز في بعضها وهزم في أغلبها. ذات مباراة كان نصب نفسه فيها حكما بين متنافسين تلقى لطفة بنصل مطواه قرن غزال مدبب جسرت المسافة بين خده الأيمن وأسفل الرقبة بسبب "فاول" احتسبه ضد بائع تين شوكي يلعب لفريق من "الجيارة". وتسببت اللطفة بما تركته من عاهة ظاهرة في نقله من مكتب الوزير ككبير مقدمي الشاي والقهوة إلى مديرية الشباب في قليوب مع خصم بدلات التغذية وطبيعة العمل وبقايا جاتوهات الاجتماعات والأجندات والصحف والمجلات ورزم الأوراق البيضاء والأقلام التي تحمل شعار الوزارة ومزايا أخرى كانت من مكملات وظيفته ذات المكانة المرموقة. لينتهي بتسوية معاشه مبكرا والتفرغ لإدارة الفريق ومحل السرجة الذي افتتحه بمساعدة "المنظمة"

كان نجاح أبوتيتو في تشغيل ابنه وعلي معا في معسكرات الوزارة الإنجاز الأوحد الذي استطاع تحقيقه من وراء عمله في المنصب الرفيع، فيما فشل في استخراج عضوية لابنه في أي من الأندية المقابلة لمبنى الوزارة في ميت عقبة، الزمالك أو الترسانة.

استوفيا، علي وتيتو، شرطا العمل في معسكرات الوزارة تلك، وهي الانتساب لجامعة والحصول على عضوية الحزب،

ولم يكن لدى "علي" ما يمنعه من الحصول على عضوية الحزب الذي يرأسه الزعيم الطيار رئيس البلاد لقاء أربعة جنيئات قيمة اشتراك سنوي، سيحصل مقابلها على أجر أسبوعي ثلاثين جنيها وإقامة كاملة وانتقال مجاني بواسطة باصات الوزارة المكيفة، التي تتحرك بعد صلاة الجمعة من أمام مقر أمانة الحزب في عابدين، تحمل فوجا قوامه نحو مائتي شاب من أعمار متقاربة، من كافة المحافظات، إلى معسكر الخطارة، ثم تعود مجددا يوم الخميس لإرجاع نفس الرؤوس. وفي اليوم التالي، الجمعة، تحمل فوجا جديدا من أمانة عابدين إلى المعسكر.

ثمانية أفواج وثمانية أسابيع استطاع علي خلالها تكوين صداقات، واكتساب مهارات خاصة من بينها القدرة على معرفة الانتماءات الجغرافية للأشخاص عن طريق اللهجات وطرائق التحدث. تعلم حياة الخيام والناموس والسفر، وطبائع شخصية لنماذج أخرى من البشر لم تفصح عنها روايات محفوظ والحكيم وإحسان والسباعي التي كان يعثر عليها من حين لآخر بين أكوام الدشت لدى حسن الكتبي. ولا روايات الغيطاني والقعيد والبساطي التي سمحت ماما سوزان بنشرها في مكتبة الأسرة والقراءة للجميع بأربعين قرشا للكتاب.

\*\*\*

كانت الباصات تدخل مباشرة إلى المعسكر البعيد عن أي مظهر عمراني إلا من بعض بقايا الزراعات وأشجار الكافور ومساحات واسعة خالية قيل إنها كانت مستصلحة يوما، تنتج أنواعا من الخضراوات والحبوب قبل أن تدخل البلد عصر الاستقرار.

تتوقف الباصات في ساحة مظلمة معدة لإقامة الندوات، ينزل الشبان وبينهم علي ويتخذون أماكنهم للاستماع إلى ندوة تعريفية قبل التسكين وتناول وجبة العشاء. يقدّم علي نفسه لمدير المعسكر قبل بداية الندوة باعتباره ساعدا اجتماعيا جديدا فيرحب به الرجل ويجلسه مع بقية أفراد الإدارة فوق المنصة رغم صغر سنه. وما أن تتمدد نظراته فوق عشرات الجالسين قسرا أمام المنصة للاستماع للندوة التعريفية وتبدأ كلمة المدير التي يعرف فيها الوافدين بأفراد الإدارة ومناصبهم، حتى يدخل علي في نوبة ضحك لا يستطيع كبحها، وتنتقل نوبة الضحك من فمه سريعا إلى الجالسين قبالة، وتصيب المنصة حالة اضطراب بالغة ممتزجة بالحيرة حول سبب ضحكهم دون مبرر ودون أن يعلموا أن الجالس إلى جوارهم يقهقه مفرغا شحنة دهشته في ضحك مجلجل. ولا تتوقف نوبة الضحك إلا عندما يستطيع علي لجم ضحكه والاستقرار في جلسته الجديدة.

\*\*\*

يستقبل المعسكر أسبوعيا واعضا دينيا منتدبا من الأوقاف لإلقاء محاضرات خلال مدة إقامة الفوج، أزهريا. غالبا، تنحسر المحاضرات إلى واحدة أو اثنتين أقرب إلى خطب الجُمع، لا تخرج عن موضوعات البناء والعمل والطاعة. وللوعاظ خيمة خاصة لتلقي استفسارات الشباب والإجابة عنها، لكن إقامة أغلبهم لم تجاوز المسافة بين خيمة الإقامة و"ميز" الطعام، كانوا - دون استثناءات تُذكر - كمن هرب لتوه من مجاعة إفريقية إلى مادية عرس بدوي موسر. قدرة مدهشة على امتصاص وهضم كميات كبيرة من اللحوم والخضار والأرز في وجبة واحدة، والانتظار حول نفس المنضدة حتى الوجبة التالية، وكان إداريو المعسكر يزودون الوعاظ الدينيين بوجبات خاصة مضاعفة ويسمحون لهم بإعادة ملئ "السرافيس"، بل ودخول المطبخ في أية ساعة من ساعات النهار والليل، لمتابعة مراحل الطبخ والتذوق والتزوّد. وفي أحد الأيام حمل "علي" سؤال صالحين القديم حول تفسير "يحشر المرء مع من أحب" إلى خيمة الشيخ وكان يجلس في معية "سوباطة" موز غير ناضج، فقال الشيخ:

"روح يا بني العب مع صحابك.. سيبك م الكلام داهوتي!!"

فرد علي بغیظ ظاهر:

"هم ليه الشيوخ بيحبو الأكل يا مولانا؟"

وأجاب مولانا بأريحية مطلقة متلمظا بإصبع موز أخضر كبير:

"عشان متعة حلال يابني، زي الجواز كدة.. ربنا محللهالنا مثنى وثلاث ورباع"

أما الندوة الثقافية الوحيدة المخصصة لكل فوج فكان يقبها موظف بالعلاقات العامة يحمل شهادة من معهد البريد. يأتي الثلاثاء مساءً ويمضي مع باصات الوزارة صباح الخميس، بينما يحصل على بدلات إقامة كما تنص اللائحة، عن فترة الصيف كاملة، إضافة إلى راتبه الشهري المعتاد. ولم تكن محاضراته تستغرق أكثر من ثلاثين دقيقة إذا انعقدت، حول توعية الشباب وتحصينهم ضد الفكر الديني المتطرف والتيارات السياسية والجماعات التي تسعى للوصول للحكم باستغلال الديمقراطية لخلق الفوضى والقضاء على الدولة.

يتضمن البرنامج اليومي للمعسكر الإفطار، طابور رياضي، زراعة مساحات من الأرض البائرة وتسجيل المنجز في تقرير، الغداء، أنشطة رياضية وثقافية، عشاء، فيلم فيديو، نوم. بينما البرنامج الفعلي: الإفطار، النوم خارج المعسكر، العودة للغداء، أفلام نادي الجندي ونبيلة عبيد في قاعة الفيديو، لعب الكرة، العشاء، حفلات سمر ليلية، النوم.



ثمانية أسابيع كان خلالها علي مسؤولا عن المكتبة، ومشرفا على الأنشطة الاجتماعية لأكثر من ألف وخمسمائة شاب يكبرونه سنا، بعضهم من المتمرسين في النشاط الحزبي، وكثيرون لا يعلمون اسم الحزب الذي يحملون بطاقة عضويته.

انتهت فترة المعسكر وفي عودته بالباص المكيف في اليوم الأخير مزق بطاقة عضوية الحزب، ناثرا بقاياها عبر نافذة الباص المفتوحة، عازما ألا يكرر التجربة لو سنحت فرصتها، باحثا عن وسيلة مثلى لإبلاغ السيد رئيس الدولة بما يدور في حزبه من فساد.

\*\*\*

سيارة النقل التي تقل ناجي تصل "الغرقانة" في شرم الشيخ بعد سبع ساعات قضاها متدثرا ببطانية جيش صوفية لم تقيه سياط هواء ملتهبة صمّت أذانه وخدرت وجهه وأطرافه. هناك استقبله مشرف العمال وصعد به إلى سطح مطعم يقومون بإنشاء "بار" رخامي في أحد أركانه مطلا على شاطئ خاص بفندق كبير ليشاهد ناجي بعضا من جمال المدينة قبل الانتقال للسكن داخل الجبل. تلتقط مسامعه صراخ أنثى قادمة من مياه الشاطئ، يطل برأسه عبر سور "الرووف" للبحث عن غارقة تستغيث، فيرى شقراء عارية

عارمة الصدر بين ذراعي شاب بلامح أوروبية تصعد وتهبط متسارعة وقد قصت غلقتها في مياه الشاطئ على مرأى ومسمع من العالمين. مشهد يصيبه بالفزع ولا يحرك شهوته. يخبرونه أنه سيعمل بقرية شاليهات بين شاطئ البحر وطريق أسفلتي سريع ليس به إنارة. قرية تحتوي عددا من المسابح تحت الإنشاء سيقومون بترخيمها بالسيسيليا والكرارة والفلتو بميزانية تزن بيته وبيوت الشارع البحري بالدولارات الخضراء.

ينتقل سيرا لسكن العمال في الجهة المقابلة من الطريق الأسفلتي داخل الصحراء، بمسافة لا تسمح لمستخدمي الطريق برويته كي لا تتأذى أعينهم بعشش فقيرة من الخشب والكرتون والورق المقوى، أقامها العمال والصناعية ومساعدوهم. بنائون وكهربائيون وحدادون ونجارون ونقاشون ومبلطون وزراعيون وغيرهم، مجموعات مهنية أقام كل منها عددا من العشش باستخدام مواد بناء أولية من بقايا إنشآت الشاليهات، تتسع العشة لنحو خمسة صناعية ومشرفين، أو عشرين عاملا ومساعدًا. ولدى كل عشة موقد جاز وأواني طبخ بدائية وعدة شاي. كل منهم يشارك بعدة جنيهات أسبوعيا لتكليف أحدهم بإعداد وجبات غداء حسبما اتفق، على أن يُعفى من الدفع من يجيد الطبخ. أرز متلبد، أو عجينة مكرونة بالصلصة ونوع من الخضار لتعبئة البطون بما يقع معدتها بالاستمرار في العمل. لا كهرباء أو حمامات أو أماكن

مخصصة لقضاء الحاجة، فقط الصحراء الواسعة.

في الصباح يتحرك العمال من سكناهم لاستلام مهامهم تحت أشعة شمس قانظة ودرجة حرارة تناهز الخامسة والأربعين. كل منهم يضع واحدا من صناديق السيراميك الكرتونية الخالية كـ"برانيط" تقي الرؤوس أشعة الشمس وسياتها الحارقة.

يبدأ ناجي بتركيب أرضية الرخام حول المسبح بمساعدة آخرين، حتى ينتهي يوم العمل بغياب الشمس والعودة إلى السكن ليبحث كل منهم عن وعاء يملأه من خزان مياه يتم تعبئته يوميا عن طريق فنتاس، وصابونة استحمام تزيل طبقة سميكة من الملح والعرق والطين عن جلده المتفحم.

بعد أسابيع تبدأ أرضية المسبح التي يعمل ناجي في تركيبها في الظهور كشعب مرجانية ممتدة، ما أن يراها صاحب السيارة الباجيرو ذات الدفع الرباعي الذي يمر صباحا بنظاراته الشمسية القاتمة حتى يطلب من ناجي تبليط بقية المسابح بنفس الطريقة. لكن الرجل لا يفعل فعلة الحاج محمود المصري في "ذئاب الجبل" عندما اصطفى البدري بدار من بين عمال شركته وزوجه ابنته وعينه مديرا للشركة وأبدل جلبابه الصعيدي بدلة منشأة ورابطة عنق. فقط قال لناجي بعد أن بدأ الأخير عمله "انت بطيء له ياد. سهّل شوية!". وعندما مر تاليا وأمره بالانتقال إلى موقع عمل

آخر لتركيب أرضية صالة استقبال بقاعة فندق كبرى، أخبره ناجي حانقا إنه رجل "عنطوز" لن يعمل لديه أطول مما فعل. فشكاه المهندس إلى مشرف العمال طالبا أن يمنع عنه مستحقاته. ثم ندم شديدا أنه فعل، ولم يتعنظ ما تبقى له حيا.

\*\*\*

أغلقت صالحين باب الشارع الحديدي الجديد الذي أصر ناجي وعلي على تركيبه قبل سفرهما، واطمأنت إلى نوم محمد ومصطفى وأغلقت الشاشة في وجه "ريدج فوريستر" و"بروك لوجان" الجريء والجميلات، وراحت تتقلب في نوم قلق متردد. وتسلسل صندل إلى سطح الغرفة القديمة عبر سور البيت الخلفي، قاصدا اقتحام نومتها تحت تأثير قرصي "مينادون" انتقاما لإهانة قديمة لم يبتلعها، فيما انتظره أبوتلاثة أمام البوابة ليفتح له صندل من الداخل كي يشاركه صالحين التي، بلا شك، ترتدي قميص نوم شفاف قصير يكشف فخذين ممتلئين اشتهاهما من رأهما مبتلين في صعودها ونزولها مطلع أبو قرن، والتي، حتما، ستكفي بخيرها شرها وتتركهما يتبادلانها، دون أن تشكو لأخيها الغائب أو ترفع صوتها حتى لا تتفضح بين السكان.

لكن قدمي صندل تتعثر في كراكيب سطح الغرفة المكسدة بعشوائية، فيتسبب بجلبة لا تكفي لإيقاظ صالحين أو أخويها

الصغيرين أو أي من سكان الشارع البحري المستغرقين نومًا. يحاول صندل مرة أخرى مواصلة الخطو فوق سطح الغرفة، مترنحا، فوق جوال بلاستيكي مهترئ مطمور تحت أرتال من تراب، فيتمزق الجوال جراء اصطكاك عرضي، تبدو بداخله كرات حجرية غير مستوية. يتعلّق صندل بطرف الحائط ويدلي قدميه لأسفل وما أن تلامسا أرضية مدخل البيت غير المسقوف بين الغرفتين المتقابلتين حتى تسقط الكرات الحجرية متهشمة محدثة صوتا مدويا. يمسك برأسه متألما ويتبين جماجم وعظام آدمية تتناثر حوله في كل اتجاه. يحدّق مذهولا ويفرك عينيه ويعيد التحديق. يتقافز مذعورا ويفتح الباب الحديدي عفويا ليجد أمامه أبو ثلاثة متحفزا، يصرخ:

"قُتِلِي قُتِلِي".

يخرج عدوا تاركا باب صالحين خلفه مفتوحا، ويلحق به أبو ثلاثة باتجاه المفارق. فيما تظل نوافذ البيوت مغلقة لا تستفزها حركة مفاجئة أو صوت زاعق اخترق هدأة الليل القلقة.

يقسم صندل أن صالحين وإخوتها "قتالين قتلتي"، وأن ما رآه لم يكن سوى بقايا جنث آدمية مدفونة في أجولة بين كراكيب السطح، بينما يرد أبو ثلاثة بيمين طلاق أنه كان "مُدْرُوخ" بسبب قرصي الميتادون ويحذره من البوح بما حاولا فعله حتى لا ينفخهما عظيم الضبع الذي - بالكاد - قبل عودتها بين رجاله بعد نفور طويل.

صباحا تزعق صالحين في مصطفى الذي أقسم أنه لم ينس إغلاق باب الشارع ولم تصدقه، تضع كيسين من البلاستيك في كفيها كقفازين وتجمع الجماجم في نفس الجوال المهترئ، لاعنة القلط والكلاب الضالة التي أسقطتها. تقرّر أن تستغل غياب علي لتتخلص من "بلوته" التي أخفاها منذ عشر سنوات كاملة فوق رؤوسهم ورفض حرقها بجاز مرات عدة. الجماجم التي عثر عليها في طاحونة المجذوب في بحثه عن كنز خيرالله المحروس بالعفريت الأزرق.

\*\*\*

يعود ناجي مُسَوِّدًا، تبرز عظام جمجمته تحت جلد أسود خشن كسجين هارب من حكم مؤبد بأشغال شاقة بعد أن قضى نصف المدة. تفتس صالحين ضحكا كلما نظرت في وجهه لتخفي شفقة لا يحبها. تقول: "بنات الجامعة هايخافو منك يا ناجي!"

وتطلق ضحكة مشفقة وتساله "هم كانوا مشغلينك فحمة شواية يا قلب أختك؟"

يفتعل ناجي نظرة عابسة حتى يُرَبِّي ضحكتها. هكذا كانوا يفعلون جميعا، ما أن يرى أحدهم بادرة سعادة في وجهها الصبح حتى تنتفتح بشراتهم إشراقا، ولا يُفَلِّت أي منهم هذه اللحظة حتى

يعتصرها، وحتى يرى عيونها الواسعة وقد التمعت ببريق سعادة. حتى محمد الصغير، يعرف كيف يثير ضحكاتها. يدغدغها بأصابعه الصغيرة، ويخفي عنها حماقات أطفال يرتكبها. جميعهم يفعلون، ولا يخفون حماقاتهم خوفا من عقاب أو لوم، وإنما خوفا من دموع تتلأأ حزنا وعجزا في أجفانها تُنطقُ الحجر. الحزن في عيون صالحين مثير للحب والشجن. مرة أبلغتها زوجة عمي الشقراء وقد صارتا صديقتين، أن عمي دائما في سيرتها، وكانت تعرف أنها رفضت زواجه بها. تقول إنه يطلب منها أن تحبس دموعها عندما تبكي، ولا تسمح لها بالسحّ عمال على بطال، تكبها كصالحين التي تثير دموعها المحبوسة شهوته كما أثارت غيره. فتحرضها صالحين ألا تسمح لزوجها بالتحدث عن غيرها، وتحلف ألا يرى رجل دمعتها.

\*\*\*

فصل دراسي كامل اجتازه ناجي بسهولة، عدا امتحانين تزامن ميعادهما في الكليتين معا فاختر الحضور في الألسن حتى لا تضع فرصة مكافأة "الجيد جدا" التي سبق أن ضاعت في الحقوق، ثمانون جنيتها كاملة تصرفها الجامعة للمتفوقين، وحصل عليها كاملة.



عاد علي من معسكره "بالخطارة"، وفي نهاية نهاره الجامعي الأول رآته صالحين مختلفا، أكثر طولا وبشاشة ووجما، وشيء من بريق يضيء عينيه الخبيثتين دائما. يقصُ تفاصيل تجاوز تفاصيل ثمانية أسابيع سبقتها في سفره.

يحكي علي عن البنت التي يصل شعرها إلى أسفل مؤخرتها. ناعمة جدا، جدا جدا، ولا معة أيضا. لا تخجل من الحديث إليه والنظر مباشرة في عينيه، تسأله عن اسمه ومجموعه في الثانوية، عن السكاشن ودكاترة الجامعة، عن طريق عودته إلى منزله. يخلق خلال حكيه محاولا أن ينقل إلى مستمعيه دهشته، وناجي أيضا ينصت إليه مع صالحين كأنه بدوره لا ينتسب إلى جامعتين إحداهما التحق بها منذ عامين كاملين.

ويحكي عن فتيات ملونات لسن كفتيات ثانوية حلوان المجاورة لثانويته، أو ربما هن أنفسهن بعد إضافتهن مساحيق تجميل وارتداء هن استريتشات فيزون وتوبات برقبة حرف سبعة. كعادته، أخبر الأقرباء من زملائه أنه يسكن دار السلام، الملاءة. وأنه سيأخذ باصا إلى محطة مترو السيدة زينب ومنها إلى هناك. الكذبة البيضاء التي لن تضير أحدا. لن يذكر خير الله لأي "زفت" قريبا كان أو بعيدا حتى لا يدعي غر ساذج إنها جبل للمطاريد، وعندما سيرد ذكرها عرضا في سياق حديث فيبدو أنه على علم بها، ستسأله

إحدى زميلاته إن كان يعرف أيا من سكانها، لأن أحدهم أخبرها أن تبحث عن كلبها المسروق هناك، كلب لولو أبيض بسلسلة فضية. وعندما يهتم علي مدافعا، تخبره في ثقة العليم الخبير إنه "ما يعرفش حاجة.. دول كل اللي فيها حرامية يابني، اسأل أي حد؟" يعود علي مغتما ناقما على البننت وكلبها الأبيض واليوم الأسود الذي جمعه بها. لكنه ومع ذلك يتذكر أن سريحة نظرة سبق أن سرقوا فلنكات سكة حديد وعواميد كهرياء وأبواب بيوت من عمارات المعادي وشتلات أشجار وقصاري زرع، ومرايا سيارات متوقفة، وسيارة شرطة بوكس سعدت ذات يوم إلى مبنى الإسطبل لالتقاط جثة فتاة عثر عليها داخل مبنى الإسطبل وعندما استيقظ حراسها لم يجدوا من السيارة سوى الشاسيه وبعض المكونات الثقيلة. لكنه - وللحق - لم ير في شونة نظرة حيوانات ككلب زميلته الأليف. ولم يعلم علي أن صبيا من أبناء شارع الصيانة هو من سرق الكلب وأطلق سراحه بعد أن سلبه طوقه الجلدي المتصل بسلسلة فضية طويلة.

سيكتب قصة من سبعة أسطر، قصيرة، تفوز في المسابقة الأدبية بالجامعة ويصير نجما، ومع ذلك لن يكتسب ما يكفي من الثقة للمضي في علاقة عاطفية ظل يحلم بتفاصيلها طوال سنوات مرافقته، حتى تفاجئه رباب عبيد إبراهيم بدقات أولى علي باب قلبه الصغير بأناملها اللينة، تقتحم هدأته بعد أن تراه - مصادفة - يقف

على فرشاة يبيع الكتب القديمة إلى جوار باعة الفاكهة والأطعمة الجائلين، قريبا من محطة الملك الصالح، ذاك النهار الذي قضاه باكيا يدفس رأسه تحت مخدة حشيتها صالحين بالملابس القديمة الممزقة، كما حشيت مراتب الأسيرة بكل قطعة ملابس مرت فوق جسد أحدهم يوما. كانت المراتب تاريخا لمراحل حياتهم المختلفة. كل قطعة ملابس بالية توارثها الصبيان الأربعة عن بعضهم البعض، كما يفعل الإخوة في عموم خير الله، تنبئُ بذكريات قديمة لأيام حلوة يحبونها. كل قطعة ملابس استهلكها زمن ترك بصماته في نفوسهم.

رَبَّتْ صالحين رأسه في صدرها وألحت حتى أفرغ أسباب بكاءه في حجرها. قالت:

"البت دي لو ماتعرفش انك راجل وبتصرف على نفسك تبقى عيلة هايفة سيبك منها". يُسِرُّ لها، منتشيا، في اليوم التالي أن رباب عبيد إبراهيم لم تكن "عيلة هايفة"

وتمارس صالحين هوايتها لحض ناجي على الاعتراف بـ "حاجة كدة ولا كدة" ينكر ناجي صادقا، فتصدقه. وكانت تمنّي أسمعها بقصة حب شبيهة بقصة علي تملأ روحها الخاوية وتشعرها بدفاء آخر يتسلسل إليها كما يتسلل من أفلام شادية القديمة وأغنيات محمد فؤاد وعمرو دياب التي تحرص هدى عضمة على اقتراض شرائطهما من سائق ميكروباص تعرفه، وتعيروها إياها.



6

الله معك ومحمد وعلي

ولم يمكث في مستشفى الأمراض العقلية سوى أيام قليلة



هل ضُبط حسن الكتبي متشاجرا رافعا صوته سابا أو لاعنا؟ لا أحد يتذكر. الكتبي يخاف ظله، ويخاف ظلّه ظلال الآخريين. يقول إن عضمته لا تحتمل خبطة يد شاكوش أو ضربة مفتاح إنجليزي. وأنها دائما ساعة الشيطان وتنتهي. وما أكثر ساعات الشيطان في خير الله. حيث لا يكبرون فيها كبيرا أو يوقرون موقرا.

لم يخالط أحدا منذ نبت ذات ليلة في الشارع البحري مرتديا "كاسكتة" رمادية. تحمل عزاله عربة كارو، كان في أغلبه كتبا وصحفا قديمة أثارَت فضول جيرانه حول طبيعة عمله. وعندما سكنت صالحين وإخوتها، فتح لهم خزائن كتبه ومجلداته فنهل كل منهم رشقات من حواشيتها دون غوص في قيعانها المعتمة. لم يستهوَ عليّ منها سوى قصص خرافية في كليلّة ودمنة، وألف ليلة، وكتاب في أخبار الحمقى والمغفلين قرأ على جلده: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي أبو الفرج، وانطبع اسم الرجل كاملا في ذهنه دون سبب واضح. فيما لم يستهوَ

ناجي سوى مقدمات كتب تراثية كالبخلاء والأذكياء ورحلة بن جبير، دون الولوج إلى أكثر من مقدماتها الطويلة لصعوبة لغتها وجزالة صياغتها. لم يكن لناجي ما كان لعلي من متسع يبحث فيه عن معاني الكلمات ومدلولاتها، حتى لو حاول الكتبي مساعدته.

دائما يتحدث الكتبي متكلفا بلغة لا يفهم تراكيبها غير أبناء طائفته، أولئك الذين يزورونه في مواقيت الموالد على مدار العام، يقيمون لديه بعد الليالي الختامية أياما يمتلئ فيها أخوة صالحين وأبناء الشارع البحري بالحمص والسسمية والفوليات والمشبك وأنواع من ملبن ملون يجلبها زوارُه. أيام يصلي خلالها الكتبي في المسجد ملتزما بالجماعة وتكبيرة الإحرام. لا يستوقف سريحة نظرة لشراء ما يحملون من الدشت والكتب القديمة. وعندما يختفي زائروه يعود لعادته في تجميع صلواته الخمس في مرتين أو ثلاثا يوميا دون نوافل.

يعرفه الجميع بتقويمه الخاص الذي يحترف احتسابه، تبدأ لديه التواريخ أو تنتهي بموعد مولد، سيدي الشاذلي في ذي الحجة، رجبية علي زين العابدين في محرم، المولد النبوي في ربيع الأول، مولد فاطمة النبوية، حولية سيدي فخر الدين والشيخ إبراهيم في جماد أول، مولد السيدة الرئيسية المشيرة أخت الحسنين في الثلاثاء الأخير من رجب، والإمام الشافعي في رجب أيضا، ومولد الحسين في شعبان ومولد الإمام الحسن في رمضان، ومولد السيدة نفيسة



وإبراهيم الدسوقي في ذي الحجة. يعرف متى تبدأ الاحتفالية وليلة خاتمها وأماكن إقامتها، لكنه لا يجرؤ على التردد على أغلبها خوفاً من الدهس تحت أقدام الأتباع والمريدين والنشالين، يكتفي باستقبال معارفه الذين لا يعلم أحد متى عرفهم أو عرفوه، يودّعهم: "الله معكم ومحمد وعلي"

وذات مرة يقولها علي لصالحين على سبيل المزاح وهي تدعك سلسلة ظهره بليفة النخيل، جالسا وسط الطشت الصاج ذي الصرة في منتصفه، فتعاجله بصفعة تترك بصمة يد خماسية فوق جلده تجبره على النوم على أحد جانبيه ليلتين متتاليتين. وعندما سألها عن السبب عجزت عن إجابته، لكن يقينا وقر داخلها بأن هناك ثمة خطأ لا تعرف مصدره أو تحديده، ربما لأن أذنها لم تعتد مزوجة الله ورسوله بطرف ثالث لا يرد اسمه في التشهد الأخير من الصلاة، ولو كان علي الذي أحبه النبي.

الكتبي فقط يستطيع التسبيب وشرح حيثيات الاسم ولماذا هو عليّ وليس عثمان أو عمر أو أبوبكر الذين يصلي عليهم الشيخ أبو عصام الضابط في خطبة الجمعة.

لا يشغل الكتبي - حسبما يعرف العزباوية - وظيفة بالحكومة، وإن كان سمته سمتهم، بلوفر صوف يرتديه صيفا وشتاءً، كاسكيتة "بيريه" مسطحة، عصا معقوفة تسبقه بخطوة لاكتشاف الألغام

والحصى وأكوام القمامة، جريدة يومية تستدفي بأحد إبطيه في الجبنة والرواح، عدا أنه لا يترك سريحا بعربة كاروا يمر على مقربة منه دون استيقافه لشراء ما جمعه وسط الكراكيب من جرائد ممزقة وكتب بالية ليعيد تصنيفها وإرسال السليم منها إلى باعة الكتب في سور الأزبكية، وتستيف الورق الدشت مرة أخرى لبيعه موزونا وإرساله إلى مصانع الورق في منطقة أكتوبر.

لديه أرفف عالية تراصت بها مجلدات قديمة وكتب مجزئة لم يبعها بين ما باع، وأوراق مهالكة قال إنها تدويناته، يحفظ عناوين وأسماء كتاب ومؤلفين وأسانيد وسير، يقول إنه أعد بحوثا ورسائل دكتوراه لمشاهير مقابل فتات، وأنه يوما سيطبق اسمه الأفاق بعد موته عندما يطالع الناس تدويناته.

وهو من أوحى لعلي ببيع الكتب، نصحه بفرش ملاءة قديمة أمام أحد محال المشاوي قريبا من محطة المترو، ليرص فوقها مجموعة من المجلات الفنية كسيدتي والشبكة ونادين والموعود وكتابات مصطفى محمود وأنيس منصور وروايات رجل المستحيل وملف المستقبل وما وراء الطبيعة، كان الكتبي قد منحها لعلي خلال سنوات عندما كان علي يبادر لمساعدته في تريبط جزم الكتب والجرائد بالدوبار وأحبال البلاستيك، وكانت روايات الجيب الأكثر مبيعا فرشة علي. الفرشة التي رآته بجوارها رباب عبيد إبراهيم واعترفت له بحبها في اليوم التالي. بل نصحه الكتبي أيضا عندما

فرغ مخزونه من هذه الروايات أن يبحث عنها في سوق التونسي يوم الجمعة وسوق المنيب يوم الاثنين، وسوق إمبابة الثلاثاء. إلى أن عاد علي، ذات مرة، حاملاً هدية له كانت سبباً في مشاجرة أولى بينه وبين العسكري رفع الكتبي خلالها صوته سائماً ولاعناً.

\*\*\*

في عودته من سوق الجمعة إلى المطبعة عبر البساتين وصقر قريش اشترى علي للكتبي "أرضة"، قطعة طوب مسطحة شبه دائرية في حجم راحة يد صغيرة، التقطها الكتبي كعقيم يستعيد وليدا رزق به على كبر من حضّانة مشفى. سأله كيف حصل عليها فأجاب:

- "من ورش السليد في صقر"

- صقر إزاي يابني، دي مش من النجف؟

- هو فيه نجف بيتركبله حجر يا عم حسن؟

- مش نجف الكهربا يا علي، أنا قصدي نجف العراق.

ثم لا يمهل عليّ برهة ليرد. يلتقط عصاه ونظاراته الطبية الغليظة ذات الإطار البلاستيكي الأسود مسرعاً بالخروج دون أن يرتدي، للمرة الأولى، الكاسكيتة، ليبدو أصلع برأس عريض كفضائي.

يقسم بالله ومحمد وعليّ أن يقطع دابر المُفْسِد في الأرض سيد العسكري. يقتحم على الأخير جلسته لدى دكان خليل مطبقا على رقبته في ذهول من الجميع.

وقد اكتشف الكتبي أن صلاته كل تلك السنوات الفاتنة كانت باطلة، ذلك أن "الأرضة" التي باعه إياها سيد العسكري يوما، والتي كان يثبّتها تحت جبهته أثناء السجود لم تكن من حسينيات النجف الأشرف حيث دفن خيرة الأئمة خليفة الله علي.

حاولوا إفهامه أن الجهل بالحكم يعني من العقوبة، وأنه لم يكن يعلم حقيقة "الأرضة"، كما أن سيد العسكري لم يكن يعلم بحقيقتها أيضا. قال إن له على العسكري يمين قسامة بأنه لم يقرطسه، فأذاها العسكري مبتهجا طانا أنها الفرج. وأقسم العسكري أنه جلبها من أحد زوار المقام الزينبي في الليلة الكبيرة خلال نوبتجية حراسة له أمام سينما الشرق. زائر جلبها في عودته من العراق بعد حرب الكويت حيث كان يعمل نساجا في مصنع يدوي.

أصرّ الكتبي على استعادة جنيهاً عشرة منحها هدية لسعيد ابن العسكري كتمنّ مُقتنّ لقطعة الأرضة التي قال العسكري أنها هدية، فيما أقسم العسكري أنها كانت فقط "خمساية ملزوقة بشريط لحام كهربيا صرفوها بالعافية"، ولم يمنح خليل والشيخ يونس العسكري فرصة للتلمص، فاتخذا صفّ الكتبي لسابقة بينهم ظهر فيها الكتبي حقانيا كريما لا يأكل حق غيره.

فقد عثر الشيخ يونس لدى خليل ذات مرة، على كتاب قديم وسط كومة أوراق تستخدم لفائف لقطع الجبن والحلاوة الطحينية واللانثون البقري، فعرضه على الكتبي الذي أخبره أنه نسخة أصلية من كتاب "الإيضاح في علم النكاح" للشيخ العلامة سيدي محمد النفزاوي، وأنه سيعثر له على زبون يقدر ثمنه. أعطوه الكتاب بعد أن قرأوا بعض سطوره ولم يصدقوا أن من كتبها كان شيخا يعرف ربنا.

وبعد أيام يمرّ الكتبي ليخبر الشيخ يونس أن الكتاب بيع بتسعين جنيها، وهم بإرسال المبلغ مع أحد أبناء خليل، ضحك الشيخ يونس ضحكته ونعت الكتبي بأنه هو كمان "غلبااان" مؤكدا أن خليل لو مسك مبلغ تسعين جنيها دفعة واحدة سيسقط من طوله مغشيا عليه، مقررا أن يوصل المبلغ بنفسه لأن له طريقته. ويذهب الشيخ يونس إلى الدكانة ويأمر خليل بفتح زجاجة فانتا مثلجة ويسأله واثقا:

"هاتعمل إيه يا خليل لو ربنا بعثك تسعين جنيه م الهوا كداهه؟"

فيسارع خليل بقسمة بالطلاق وحرمانية الولية أن يعطيه نصفها، وما أن يسمعها الشيخ يونس حتى يسقط مغشيا عليه.

يتذكر الجميع الواقعة. تسعون جنيها يوم كان الجنيه يشتري أربعة سندويشات خبز شامي كبير ومعها المخللات والبادنجان المقلي.

ولم يكن أمام سيد العسكري سوى أن يدفع الجنيهاً العشرة كاملة. تلقاها الكتبي ودفعها مباشرة لصندوق مسجد الغلام والراهب. وانحسرت القصة بعد أن خلفت وراءها شوائب طففت في أذهان بعضهم، خاصة أولئك الذين أطلقوا لحاهم تقرباً وزلفى، وأسدلوا الجلابيب القصيرة استئناساً واسترحاماً، وانطلقوا بالدعوة في أنحاء خير الله وخارجها، في القاهرة وخارجها، في مصر وخارجها.

\*\*\*

"أصلي علمت مهدي" قالها الكتبي وصمّت لثوانٍ صبّ خلالها الشاي في كوبين صغيرين يحملان نقشة ورقة شجر، ناول أحدهما ناجي المنصت منتبهاً. اعتبرها ناجي للوهلة الأولى تعبيراً مجازياً ما، من تلك التي اعتاد الكتبي ترديدها متكلفاً ألفاظاً جزلة مازالت عصية على أذنيه رغم انتسابه لكليتين إحداهما سيتخرج فيها محامياً يفقه القانون والشرع.

لكن الكتبي أردف وهو يمد يده لناجي بكوبه الممتلئ شايًا مسكراً، إنه لم يطق الكتمان فصرّح بما يضمّر فاتهم بالجنون، قال إنه حفظ القرآن والتحق بجامعة الأزهر، وبعد تخرجه عاد إلى قريته في إحدى محافظات الدلتا، ليفيد بما تعلم. مدرس في أحد معاهدها الأزهرية.

كانت ليلة النصف من شعبان، ليلة موعودة ستمتلي الأرض فيها بفيض النور، ويخرج من أحشائها من يملؤها خيرا وعدلا، بعد أن فاضت ظلما وجورا. حجة الله في أرضه وعلامته على الطريق. يهاتفه الهاتف من بين دفتي كتاب، في شعاع نوراني نفذ بين ضلوعه، يصرخ داخله "يا حسن.. الجد والكذ ولزوم الحد حتى تنقد"، فيجيب بنصف وعي: اجتهدت والتزمت الحدود فمن ينقد النفس من شوائبها، فيرد الصوت: "الاجتماع والاستماع والاتباع حتى يحصل الانتفاع".

يقول إنه قد جمع حقيبة صغيرة وزوادة أصغر. جاس في ربوعها، فجاب أولها إلى آخرها، شرقها وغربها، طلبا لمجاورة الكرماء المكرمين، الأولياء الصالحين، أرباب الفضل المكاشفين. ينهل من بطون الأمهات وحواشي تراث السلف، باحثا عن النقاء والضياء، فتعلم الشريعة واتخذ الطريقة، وصولا إلى الحقيقة...

"فجأة سُفّت الحقيقة زي طاقة نور في صفحة عتمة، ومضة برق بين غيوم سود. كل شيء في جوهره شيء واحد، مادة واحدة، أصل واحد، انت وانا والناس والتراب والورق والترابيزة دي، كوباية المية، المعلقة الصغيرة، تكعيبة الزرع اللي فوقك، الضوء اللي حوالينا، هوا اللي بيخس صدرك، الريحه اللي بتشمها" وترتفع حدة صوته "توب أبيض كبيبيير ومليان بروزات، وكل بروز بيكون شكل من أشكال الحي والجما، والتوب على

بعضه هو في حقيقته جزء صغير منه، هو حقيقة الوجود وأصله ومنتهاه".

ناجي: "هو مين يا عم حسن الكتبي؟"

الكتبي: هو.. اللي مفيش غيره، واحد مش من قلة، موجود بلا علة، وعشان تعرفه وتوصله، لابد تتجرد وتتسامى لحد ما تتوحد، وتستمد طاقتك من طاقته، وروحك من روحه وتخلفه في ملكوته، فتبقى على راس زمانك هادي ومهدي يرشد من الضلام للنور ويدحر الظلم والجور، مهدي تنتظره الخليفة من يوم ماتوجدت.

يقنص ناجي لحظات غياب الرجل المؤقت خارج الزمان والمكان في ملكوت غرائبي لا يراه غيره. يتسلل على أطراف أصابعه خارجا عن المجال المغناطيسي المحيط بكوكب الكتبي الفسيح، وقد أيقن أن بالرجل مُلَمّة تمتلك بعضا من عقله وكثيرا من وجدانه. لم يحاول الاستزادة من قصته.. المهدي والكذ والاتباع والجوهر والمعلقة والهواء الذي يدخل الصدر. اختفى، وشبح ابتسامة أسى يظهر على شفاهه ويتخلق، إلى أن يصير قهقهة عالية تلفت أنظار الآخرين.

بينما الكتبي يكمل حكايةً ظلت خافية، دفينه صدره، منذ دخل خير الله وإلى أن يُحرقَ فيها قلبه ومنزله وترائه الأثير...



عاد الكتبي إلى قريته جديدا، بعد رحلة جواله في ربوع البلاد بحثا عن الجواهر، كأنه آخر. وبعد فترة انقطاع لم يبرخ فيها منزله، خرج بيده اليسرى تتحرك كبندول ساعة معلق بعيدا عن جسمه، كأنها مقيدة إلى فراغ بحلقة صلبة غير مرئية، تجرّ صاحبها إلى حيث تريد، بدت لا تنتمي إلى هذا الجسد، حرة، مرنة، سريعة كمروحة، ينظر إليها صاحب الجسد بين الفينة والأخرى كأنها كائن حي مستقل ذو سطوة، يتحدث إليها هامسا، ثم يخرج ليعلن فيمن حوله أنه الإمام قد جاء الناس بالحق. مُعدّدا العلامات التي تؤيده وتعبّد له طريقه.

هو المهدي لا كذب.

ولم يمكث الكتبي داخل مشفى الأمراض العقلية سوى أيام قليلة استطاع بعدها الهرب خارج الأسوار، لكنه لم يستطع العودة إلى قريته أو عمله، خاصة بعدما ظهرت صورته فوق صفحة الحوادث بإحدى الصحف اليومية كمحتال يدعي النبوة، فلم يكن أمامه سوى خير الله كهف جبلي للاختباء.

\*\*\*



7

لأن يهدي بهم الله رجالا

"ومن أراد الله به خيرا يفتهه في الدين.."



فاجأت دعوة الشيخ عدوي سكان البيوت القريبة والقريبة منها فاعتقدوا أن نداءه عبر ميكروفون زاويته يتعلق بقضية التمليك بين العزبة وبين الشركة، رغم أن ميكروفون زاويته لم يستخدم يوماً كإذاعة لأخبار أو لنداءات فردية طالما كان مسجد الغلام والراهب في الخدمة.

بدأ الشيخ عدوي نداءه بطرقات قليلة بظفر سبابته فوق حديدة الميكروفون، ثم نفخة طويلة كأنه يخلي مكانا واسعا لصوته، طالب بضرورة حضور السكان القريبين من المسجد والشوارع المحيطة من فورهم. تزامم الأهالي داخل الزاوية، إلى أن اكتظت لأخرها. صلى الشيخ على سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمي الصادق الوعد الأمين، فصلوا عليه وسلّموا منتظرين إعلانه.

وتعالى صوته خاطبا كأنه ينادي من فوق قمة جبل، لينبئهم بظهور علامة كبرى من علامات الساعة، التي سبقتها علامات

أخرى بينها عودة اليهود إلى فلسطين، وجفاف بحيرة طبرية، وعلو  
بنيان الحفافة العرابة. أما العلامة الجديدة التي بشر بها الشيخ عدوي  
فكانت عودة الإسلام غريبا كما ولد غريبا.

قال إن الضالين يشترون بيوت العزباوية حول الطاحونة القديمة  
في تل الطواحين أعلى مطلع الزهراء. وكانت تلك المنطقة أكثر  
مناطق خيرالله احتفاظا ببقايا طواحين أثرية، من بينها طاحونة لا  
زالت مكتملة لم يمتد إليها معول هدم أو يسكنها غريب.

تقول بطرسة أن البابا كيرلس السادس، والذي يعرفونه باسم  
القس مينا المتوحد، كان يقيم ويتعبد في هذه الطاحونة لسنوات  
طويلة قبل أن تولد هي أو من خلفوها.

وقال عدوي أن الكفاتسة يرممون الطاحونة ويشترون ما حولها،  
ما حولها بيوت وشوارع وحارات، أبالسة يدفعون كمن لا يخشون  
فقرا أو فاقة، "فلوسهم كثير" الجنيه بثلاثة، في أسابيع سيأكلون  
نصف العزبة أو أكثرها ويصير الإسلام غريبا في خيرالله إن لم  
يفق المسلمون ويستعيدون السبيل. طالب الشيخ عدوي كل شاب  
مؤمن بأن يغضب لله، ويسعى لنصرته بدفع زكاة من عمره  
وصحته ثلاثة أيام شهريا على أن تكون في منتصف الشهر العربي  
يخرجون فيها للدعوة، ويُغَبِّرون أقدامهم في سبيل الله مقترحا أن  
تكون منطقة تل الطواحين بكاملها مربوط البداية لإعادة سكانها

إلى الصراط، واسترداد البيوت التي استولى عليها الكفاتسة. ناشد عدوي الشيخ أبو عصام الضابط، وكان الأخير قد جاء الزاوية فيمن جاءوا، أن يصعد المنبر ليلقي كلمة لإرشاد الناس، لأنه من أهل الذكر الذين هم أدرى ببواطن الأمور. كان عدوي يعلم أن دعوته ستظل بلا قيمة حتى تؤيد بفتوى من الكبير وأن الكبير لن يستجيب إلا بإكباره وإجلاله علنا وجهرا، يستجيب الشيخ الضابط، ويعتلي المنبر بتواضع مصطنع، وما أن يصعد حتى يلتقط موجة الراديو من الشيخ عدوي ليعلو صوته غاضبا للدين، صارخا أنه لا خير في أمة تقاعست عن النصر واستسلمت للفتنة.

يدعو الشيخ الضابط الصبية والشباب لإجابة الشيخ عدوي مذكرا بأسامة بن زيد الذي قاد جيوش المسلمين ضد الروم قبل أن يتم الثامنة عشر، وما أن ينتهي حتى يسارع بعض من تزاموا حول الزاوية إلى حيث أشار الشيخ عدوي باحثين عن أولئك الذين يشترون الأرض بأضعاف ثمنها، عارضين أراضيهم وبيوتهم للبيع لمسيحين أو يهود أو كفرة لا رب لهم. بيعها ولو جعلها الكفاتسة حقولا لزرع الصليبان وتساوير القديسين. لأنه - كما قال بعضهم - لا تذر وازرة وزر أخرى، ومن اضطر غير باغ ولا عاد لا إثم عليه كما قالها الشيخ أبو عصام الضابط نفسه مرات ومرات، وهم مضطرون، وأموال النصارى رابية..!

لكنهم يعودون من تل الطواحين خاويين بعدما يكتشفون أن

عملية الشراء اقتصرت على المربع المحيط بتلك الطاحونة التي سكنها كيراس قبل ميلاد بطرسه وأبيها، دون غيره. وبعد عدة أشهر يظهر هيكل خرساني حول الطاحونة هائلا كالقلعة والأبراج والأهرامات. هيكل خراساني لم يروا له مثيلا من قبل. عواميد سميكة يكفي واحدها لحمل بيت من عدة طوابق، حتى الحوائط الخرسانية للهيكل سميكة ومستوية، تتحدى الزمن والزلازل والعين الحاسدة، لكن البناء لا يحمل أية علامة تشير إلى ماهيته!

\*\*\*

يصير الشيخ عدوي مرجعا ويلتف حوله بعض ممن رضى الله عنهم فرضوا عنه فأطلقوا اللحي وقصروا الجلابيب وحلقوا الرؤوس وصاروا سُنيّة. وراح السُنيّة يتقصّون حول أصحاب هذا البناء المهول وسبب بنائه فلا يصلون لمعرفة. وبعد أسابيع تظهر أربع قباب تحيطها منارات يقسم أحدهم أنّ أقصرها أطول من مآذن مسجد السيدة الطاهرة زينب ذاته. بعد أسابيع أخرى يصبح البناء مكتملا، وفي يوم مشهود سعدت فيه باصات وسيارات محملة برجال وأطفال ونساء يرتدون ملابس جديدة نظيفة، وأفرغت حمولاتها في ساحات أمام بوابة المبنى الرئيسية، رُفعت صُلبان معدنية ضخمة أعلى القباب والمنارات والأبواب الثلاثة، القبلية



والبحرية والغربية وباب آخر صغير للخدمات يطل على شارع ضيق. ورفعت الأجراس ودقّت عالية مدوية معلنة إقامة مجمع كنائس كامل مكمل، يحوي وحدة صحية ومركز ترفيه ومحاريب وهيكل وساحة تدخلها السيارات التي تحمل زوّاره.

مزارا سياحيا صار. سفينة عملاقة زاهية غرست في مياه بحيرة ضحلة راكدة فبدت نتوءا غريبا يستلب الأنظار والعقول والصلاة على النبي محمد.

\*\*\*

زاد عدد الباصات التي تحمل مسيحيين إلى الكنيسة. فتح مسلمون موحدون دكاكين مجاورة، بقالات، وكى ملابس، ودراجات هوائية وغيرها. وفتحت الكنيسة خدمات لمن يطلبها، مسيحيين كانوا أو مسلمين. وتكرر اعتلاء الشيخ عدوي لمنبر زاويته ونداءاته التي تعلن أن التنصير "شغال على ودنه" والمسلمون نيام. قال إنهم يستغلون فقر الفقراء وعوز المحتاجين لتبشيرهم، وناس خير الله جهلاء ضعفاء الإيمان لا يعرفون صحيح دينهم. دعا عدوي الأستاذ عجمي والشيخ يونس وأشرف الكهربي والشيخ رمضان، رمضان الذي فتح دكانا خلف بيت صالحين مجاورا لبيت بطرسة، نصب فيه منضدة بلياردو وأخرى للبينج بونج منافسا دكان الأتاري الذي فتحه

سيد عظمة مستعينا بالمساعدة المالية من المنظمة. دعاهم عدوي لتحمل مسؤوليتهم باعتبارهم الأكثر مواظبة على صلاة الجماعة، الاعتكاف لثلاثة أيام متواصلة داخل المسجد صياما وقياما لتوطين النفس على العبادة والطاعة وتأهिला لها لممارسة الدعوة.

استجابوا عدا الشيخ عجمي الذي لم يستطع التغيب عن السجل المدني أو إغلاق مقر المنظمة لثلاثة أيام متتالية.

الشيخ رمضان أوكل ترابيزة البلياردو والبينج بونج لزوجته. أشرف الكهربائي أغلق دكانه في وجه الزبائن متيقنا من انتظارهم المراوح والغسالات والتلفزيونات سنوات طويلة حتى يكتشف أعطالها وينبئهم بحلها. الشيخ يونس قضى أيام الاعتكاف الثلاثة متنقلا بين زاوية عدوي ومسجد الغلام والراهب ومنزله ودكانة خليل. قرأوا أجزاء من القرآن، وفصول الجهاد والاعتكاف في كتاب رياض الصالحين، وفسر الشيخ عدوي آية من سورة التوبة: "انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله" قال إنه الأمر البليغ بالخروج للدعوة، مؤكدا أنهم طالما قد بلغهم العلم أصبحوا مكلفين. قرأ حديثا متفقا عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها، وعندما سأله عما قصد بأن الحديث متفق عليه قال:

الله ورسوله أعلم، ومن قال لا أعلم فقد أفتى.

وقبل أذان مغرب اليوم الثالث لا اعتكافهم ارتدوا جلابيهم البيضاء وخرجوا يطرقون أبواب المنازل في الشوارع القريبة يدعون أصحابها للصلاة، يتقدمهم الشيخ عدوي بلحيته الطويلة وعصا معقوفة لم يكن في حاجة ليتوكأ عليها. يطرق الباب ويطلب ممن يفتحه التحدث إلى رجل البيت، وعندما يخرج وخلفه أولاده يبادر بسؤاله، لماذا خلقنا الله يا عم فلان، وعلى اختلاف الإجابات وتنوعها إلا أن إحداها لا تصادف الصحيحة. يقول الشيخ عدوي باسم كمن أوتي مجامع الكلم: وما خلقنا الجن والإنس إلا ليعبدون، ويسأل عن سبب خلق الرجلين واليدين واللسان والأعين فتأتي الإجابات خاطئة أيضا، فقد خلق الله الرجلين لتسعيا في سبيل دعوته، وخلق اليدين لترتفعا له بالدعاء، وخلق اللسان ليترطب دائما بذكر الله، وخلق الأعين للتأمل في عظمة خلقه.

وعندما كان يصادف أحدهم إجابة صحيحة كان يقابلها الشيخ عدوي بالتكبير والتهليل داعيا "الله يفتح عليك يا شيبخ.. اللهم صل ع النبي"، ولا يتركه حتى يصطحبهم في جولاتهم التي تتحول قبل انتهائها عند الزاوية إلى موكب كبير يبعث بنفحات إيمانية في نفوس السكان بالإحياء.

\*\*\*

ثم تحولت جولات الشيخ عدوي إلى عادة يومية لا يتغيب عنها إلا لأسباب قاهرة، بعد أن استطاعت مجموعته إقناع عدد لا بأس به بأداء فريضة الخروج في سبيل الله من بينهم عربي عضمة وحربي الحرامى الذي وجد في مرافقة هذه الجوقة الإيمانية تغييرا حتميا في طريقة تحصيل ضريبة المرور من مطلع العزبة التي ظل يحصلها شهريا بحجة رفع القمامة وتنظيف المطلع، وكذلك كان عربي عضمة الذي ترك، مؤقتا، طبيلته "السومباتي" ذات الكيلوجرامات الخمسة، وموقعه في فرقة أخيه عماد عضمة الموسيقية وأوكل إلى الشيخ عدوي قياده، حتى فتح الله عليه بالحسنى.

وعندما تيقن الشيخ عدوي أن عربي أتقن دخلته على زبائن الرحمن بأحاديثها وآياتها البينات، أوكل إليه مهمة الاستفتاح عند التحدث إلى عامة المسلمين برهانا على "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء"، فها هو عربي عضمة طبال الفرقة الذي شربَ وشمَّ وعقَّ والديه وشارك أخيه سرقة ورشة أبيه سيد عضمة ذات يوم، ها هو يهتدي ويصبح سببا لمن اهتدى.

يمر الشيخ عربي ببيت صالحين وخلفه بعض السنية الجدد من صغار السن والمراهقين، فيتفاجأ ناجي بمظهره الجديد ولا يبذل جهدا لكبح ضحكة ساخرة استقبل بها ذبيبة الصلاة الحمراء التي بدت كملصق دعائي ثلاثي الأبعاد فوق جبهة عربي يتناسب والبضاعة التي يروج لها. يدعو عربي للاعتكاف فيسأله ناجي

كيف يخرج للدعوة من لا يجيد قراءة آية قراءة صحيحة، وكيف سيدعو للإسلام غير المسلمين بنصف لسان وعدة أحاديث أكثرها ضعيف ولا يعرف أسانيدھا، فيجيب الشيخ عدوي بثقة العارفين بالله أصحاب المقامات "أن من يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين" هكذا قال سيدنا النبي! ويؤكد أن الله أراد بهؤلاء الشباب خيرا، ليكبر بقية المجموعة للشيخ عدوي الذي أتاه الله من الحجة واليقين ما يبهت به المجادلين بالباطل. يحاول ناجي إيضاح معنى التفقه في الدين بأنه حسن الفهم وليس الفتوى فيبتعدون عنه مشفقين داعين له بالهداية.

يقول عدوي "أن المسلمين المجادلين المتعلمين أكثر خطرا على الدين من الكفرة الفجرة" وعندما يستهوي مصطفى، الذي كان قد تجاوز الحادية عشرة آنذاك، شرائط خطب الشيخ يعقوب وحسان، وصوت جبريل في سورة "ق" التي يهديها إليه أحد أبناء أبو ياسين ويبدأ في التردد على زاوية الشيخ عدوي، تلدغه صالحين بقرصة أليمة كان قد كفت عنها منذ سنوات اعتقادا منها أنهم شبوا، وقد قررت أنها لا تريد أحدهم شيئا كيونس الخائف في نفسه وأبو عصام الضابط الضلالي والمفتي بالقطعة، وعدوي الكاره لنفسه وللناس أجمعين، تريده متعلما يعرف ربنا بلا جلباب يطيح به الهواء فيظهر ركبتيه الناشفتين كالشيخ عجمي.

\*\*\*

لكن الشيخ عدوي يكف، فجأة، عن الحديث عن "الكفاتسة"

وعندما يطلب منه بعض السنية الخروج للدعوة لدى كنيسة الطاحونة يمنعهم مؤكداً أن لهم دينهم ولنا دين. ولا يعلم أيّ منهم باستدعاء تلقاه عدوي من أمن الدولة يحدد له السياج المسموح له بالسير ضمن حدوده، ولم تكن كنيسة الطاحونة داخل هذا السياج.

كثيرون أطلقوا لحاهم وأسدلوا الجلابيب البيضاء وسرعان ما حلقوا وخلعوا. يمر الشيخ عدوي بالدكاكين والمحال والورش قبل صلاة المغرب أو العشاء ليذكر بقوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون"، ويستجيبون - أغلبهم - لدعوته فهما واقتناعاً أو اضطراراً واستحياء. بينما آخرون يجيبون بحسم "اطلع من دماغنا يا عم الشيخ والنبي!" فيطلع سريعاً.

مرة، تجرأ خليل وطلب من جماعة الشيخ عدوي أن يسبقوه للمسجد حتى ينتهي من استلام كراتين الشيبسي من سيارة الجملة على أن يلحق بهم قبل إقامة الصلاة. كانت وصمة في جبينه لم تُنَس، وظلت نظرات ما بين الاستهجان والإشفاق تطارده أينما حل. رأى البعض أن جهله بالدين الصحيح هو ما دفعه لتأجيل الصلاة وأنه لا يعرف أن الله لا يبارك في عمل يلهي عنها، خاصة وقد كانت مغرباً، والمغرب غريب لا يقبل التأجيل! ورأى آخرون أنه صار كلب فلوس بدليل أنه لم يعد يبيع برقع جنيه لانشون أو بنصف

جنه بسطرمه ولا يبيع الزيت سائبا في أكياس البلاستيك مثل بقية  
الدكاكين التي انتشرت في شوارع أخرى.

ثم أن قَلَّتْ جولات الشيخ عدوي والسنية وانخفض عدد  
المتحمسين شيئا فشيئا، وفسّر الشيخ عدوي ذلك بالحديث الشريف  
"لن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه" فقد رأى أن الشباب أنفسهم قصير.

\*\*\*





## 8

### قدیس سماوی یعانی البطالة

"لا احد یتشفع به، وهو تعذب أكثر منهم جميعاً"



أخبره أحد طلاب علمه أن عماد عظمة يتردد على كنيسة الطاحونة ويقضي الساعات لدى دياكون الشماس. فاستدعى الشيخ عدوي عربي لإخباره بما وصله عن أخيه، مذكراً بالحدود التي أوصى الدين ألا تقربوها، ولم يكذب الأخير خيراً. انطلق مع آخرين وحملوا عماد مرابعة إلى دكانة الأتاري مهديين بإقامة الحد. بينما هو يسب لهم الدين والميتين والحد والسبت وكل أيام الأسبوع. صائحا أنه سيولع فيهم واحدا واحدا إن هم تركوه. يؤكد أنه سيفعل ما يعنُّ على مزاج مزاجه. وقال بين ما قال إن سيدنا محمد تزوج بثلاث عشرة امرأة بينهم طفلة وعجوز، وسيدنا المسيح لم يتزوج قط، وأنه حارب أهله ليعلنوا استسلامهم وسيدنا المسيح لم يحارب قط. ولم يستخلصه من بين أيديهم سوى ناجي وعجمي الذي نكّرهم بما فعل إبراهيم بأبيه ونوح بابنه والنبي مع عمه ولوط مع زوجته.

وفي المساء تداولوا الحكاية حول جوزة خليل. قال الشيخ يونس إنه مرتد ولو كان في السعودية كانوا قتلوه. وقال خليل:

"يقولك المرتد أما يكون هو أصلاً كافر ويدخل الإسلام وبعدين يرتد لملته"

وقال العسكري "عيل بايظ ابن كلب خسارته أحسن، مالوش غير في سب الدين، حد شافه بيركعها؟".

بل أفصح العسكري عن أمله أن يأخذ المسيحيون كل الصنيع وأرباب السوابق حلال عليهم، ليكفوا أيديهم عن أذية الخلق، لكن خليل أعاد على مسامعهم ما قاله عماد عظمة بين أيدي السنية أنه يذهب للكنيسة لاشتغالهم ليحصل على مساعدة مالية لتعبئة شريطه، ولم يعر أحد اهتماماً لادعائه فقد اعتبروه محاولة تملص فاشلة من أيدي السنية.

بينما كان أبو ياسين مهموماً بفكرة غرسها عماد الكلب في صياحه ولم تبرح ذهنه منذ سمعها، وعلى الرغم من إجادته فتح المواضيع لِمَأمّاً تاركاً لغيره الخوض في قيعانها، والاكتفاء بالمشاركة بهمهمات مشجعة تسبر الأغوار وتملأ شاغرات فضوله، إلا أنه هذه المرة بذل جهداً مضنياً لإثارة الموضوع دون أن يبدو جاهلاً أو خفيفاً متشككاً. ومع اقتراب زوجته بيراد شاي كبير ملقم بالسكر والنعناع، في جلابية جعلت منها متواز أضلاع صحيح الأبعاد تعلوه قبة دائرية تشبه رأس امرأة، قال:

الواد ابن الكلب يقولك النبي اتجوز ثلاثاشر مرة؟؟ وصمت  
متشاغلا بماشة الفحم يعيد رص النار فوق حجر الجوزة.

يصلي الجميع على الحبيب المصطفى ألف صلاة، يعبرون  
بعدها فترة صمت طويلة، بينما أبو ياسين يتقرّس الوجوه باحثاً  
عن شجيع صاحب رأي فلا يجد، يمد يده لانتزاع مبسم الجوزة من  
فم الشيخ يونس الذي ملأ به فمه حتى لا يسمح للكلمات بالانزلاق  
خارجة، يقول الشيخ يونس مستلباً أنظار الكافة: عيل غلباان.

خليل: ليه يا شيخ يونس؟

يونس: عشان سيدنا النبي اتجوز وهو عنده بتاع خمسة  
وعشرين ولا كان ليه قبلها في صنف النسوان واللي بيجي من  
وراهم.

أبوياسين: أيوة وبعدها اتجوز كام واحدة؟

يونس: ماعرفش بس قول هو اتجوز ستنا خديجة وكات أكبر  
منه بيجي خمستاشر، وقعد معاها بتاع خمسة وعشرين كمان لحد  
ما ماتت.

أبوياسين: أيوة ولما ماتت.. مش اتجوز ستنا عيشة

يونس: غلبااان.. قعد فترة من غير جواز. خاف بقية المسلمين  
ياخدوها سنّة ويبطلو جواز زي الرهبان راح متجوز ستنا سودة

خليل: على اسم جاهدة السودا..

أبوياسين: جاهدة اللي على اسمها يا جدع، وهي دي اللي كات  
عيلة يا شيخ يونس؟

يضحك يونس ضحكته المكررة ويضيف:

لأ دي كان عندها بتاع تمانين سنة.

أم ياسين: لا حول الله يا رب.. ودي اتجوز فيها ايه؟

ينظر لها أبوياسين شذرا فتكنُ في مكانها ولا تتنطق بكلمة

الشيخ يونس: اتجوزها رافة ورحمة مش حب في النسوان

خليل: أمال ستنا عيشة فين؟

يونس: اهي ستنا عيشة هي اللي كات عيلة، بس ما دخلش

بيها إلا أما بلغت

وينهض الشيخ يونس وقد أفرغ كل ما حوته ذاكرته من خطب

الشيخ أبو عصام الطاباط ودروس الشيخ عدوي، وأحاديث إذاعة

القران الكريم، قبل أن يتورط في معلومة يتبينون صحتها فيما

بعد.

\*\*\*

قرر عماد عضمة في ساعة سطل وسلطنة، مدفوعا بنصيحة حربي قبل انضمامه إلى سنية عدوي، الذهاب للكنيسة لمساومة قساوستها على التنصير مقابل مساعدته في تعبئة شريط كاسيت به ثمان أغان ألفها ولحنها منذ سنوات، بعد أن رأى فِرْطُ إنفاقهم على مسيحيي خيرالله، حتى أنهم أعطوا بطرسة راتباً شهريا أظهرت بعده ورعا لم يعتادوه، وصارت تستمع إلى شرائط تحكي قصصا تمثيلية لقديسين وشهداء لم تسمع بهم من قبل. منتويا العودة بعد توزيع شريطه وتحقيق مراده ليتوب ويحج ويعتمر.

ورغم محاولة عدوي إقناعه بأن ثمن القينة سُخت وغناؤها حرام والنظر إليها حرام وثمانها مثل ثمن الكلب حرام أيضا، لم يقتنع. استفتى الشيخ عجمي، بعد أن باس رأسه واستسمحه لما فعله به أيام المنظمة، فأخبره عجمي أن الأغاني ليست حراما على إطلاقها وإنما الحرام هو ما حرّك الشهوات منها، وقيل أن ينصرف بالفتوى فَرِحاً آملا، أردف عجمي أن ما يغنيه هو بالأخص حرام في حرام. لم يقتنع أيضا، بل طلب من الشيخ عجمي البحث عن آية أو حديث يضعه في عين عدوي وأخيه عربي و"له الحلوة".

وظل عماد يتردّد على دكانة حبشي المقابلة لبوابة الكنيسة الكبيرة إلى أن تعرّف بدياكون الشمس. وكان دياكون في نحو الثلاثين يقضي أغلب ساعات نهاره متنقلا بين بوابات الكنيسة متطلعا في وجوه المارة والجيران كمرشد مباحث مكلف بالإبلاغ

عن مطلوبين. يتحدث إلى الجميع بخطاب مسيحي لم يُجذّه مثل أبونا يوانس الطيب، يحكي من قشور قصص ومعجزات لكرامات قديسين ورسل وحواريين سمع بهم من أسقف الكنيسة وقساوستها، يتعفرت حين تنتهي حكايته لأحد جيرانه رجلا كان أو امرأة دون أن يعلن إيمانه بالرب يسوع المخلص، يقول إن "الشّرير عامي قلوبهم".

\*\*\*

ذات مرة، وخلال تواجد "دياكون" لدى دكانة حبشي، خلصوه من تحت مؤخرة إحدى جيرانه بعد أن بركت فوقه كبقرة تلد، وطبقت في زمارة رقبتة هي وأولادها، لأنه وصمها بالعبط والطرش معاً، بعد أن شككت بروايته لقصة حكاها عن شخص اسمه نبيل خليل منصور مسيحة كان يصلي في كنيسة المنصورة - حيث كان دياكون يخدم - يُشَفِّع القديس أبانوب في علاج ابنته العاقر وكبده المتليف بعد أن فشل الأطباء جميعاً، ولم يكد يتم طلبه حتى تمثّل له وجه القديس أبانوب منورا جدا جدا، ويرتدي رداءً أبيض جدا، ويضع على صدره صليباً كبيراً جدا، تماماً كما يبدو في صورة داخل الكنيسة راكبا فرسا بيضاء ليخبره أنه حمل طلبه إلى العدراء فاستجابت، وقبل أن يهم بالخروج من الكنيسة اتصلت به



ابنته لإبلاغه أنها صارت حامل، وشفى من مرضه توا ففرح فرحا عظيما جدا صائحا: شهدت لك يا قديس أبانوب، كم أنت عظيم يا قديس أبانوب. وعندما سألته جارته كيف علم الرجل أنه شفي قبل أن يبرح مكانه بالكنيسة انفلتت أعصاب دياكون فسبها، فما كان منها إلا أن سحبت إحدى كفتي ميزان دكانة حبشي ذي السنج الحديدية الثقيلة ونزلت بها على نافوخه.

وتكررت مشاجراته بسبب تشكيك أحدهم في معجزة قديس تمكّن من إشفاء مريض، أو إغناء فقير، أو تزويج عانس، أو إخراج جني من إصبع ملبوس. يحكي دياكون عن فضل الكنيسة في إيصال الأرضيين بالسمايين لكنه يفشل في تفسيرها. كثيرا أخبره أبونا يوانس الطيب أن عدد شعب الكنيسة لا ينقصه واحد، وأن عليه أن يوفر إرشاداته لإيقاد الإيمان في قلبه ليكون منارة يهتدي بها الناس، لكن دياكون تاق إلى إيقاد قلوب الآخرين، أو إيقادهم هم أنفسهم إذا لم يستجيبوا، وكانت معاناته التي قال إنها "عملت له تَرْبِنَة" في جيرانه أنهم يؤمنون برسول تزوج بثلاث عشرة امرأة ونشر رسالته بالسيف في حين أن رسالة يسوع هي رسالة السلام كما أنه لم يتزوج قط. وهي العبارات التي نقلها عنه عماد عضمة بعد صداقة لم تدم طويلا.

وجد دياكون عماد عضمة خروفا شاردا يبحث عن راعي. وعندما دعاه لدخول الكنيسة استجاب من فوره، وكان عماد عضمة

أول مسلم يدخل غرفته بالكنيسة ويطلب شايا، الجميع في ضيافته يطلبون "ساقع"، زجاجة مغلقة يُنَزَع غطاؤها أمامهم من الثلاجة إلى الفم وليس ماء مغليا داخل كنيسة يصنعه مسيحي يدق صليبا فوق المعصم وصليبا خلف الإبهام، حكى له عن الإسلام ومحمد وحروب المسلمين والخلفاء أكثر مما حكى عن يسوع والعدرا والإنجيل، وكان على عضمة أن يبدي شيئا من الاهتمام والفهم جبرا للخاطر، إلى أن تسنح الفرصة ليخبره بحلمه الفني الذي لا يستطيع تحقيقه لأن الغناء لدى المسلمين حرام، هكذا قرر أن يقولها عضمة ضاغطا على حرف الراء ومادا للألف إلى أقصى استطالتها، وعلى الرغم من عدم استقامة الفكرة في عقل دياكون إذ لم يعقل أن يكون مطربوه المفضلون عبد الحليم وعلي حميدة والبرنس مسيحيين، إلا أنه اقتنص الفرصة ليقول:

**"شوفت.. مش بقولك، عندنا بقى مش حرام.. عندنا نخليك تغني جوة الكنيسة"**

يؤكد له أن الشريط بمشيئة الله سيسجل، وإذا لم يكن لدى أبونا يوانس حل فسيجد له لدى آخرين حلولا، يسحبه إلى القس داخل الكنيسة وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها عماد كنيسة من الداخل ويشتم رائحة البخور الزكية تملأ جنباتها نظيفة لامعة هادئة كأنها في السماء، وعندما يلحظ دياكون دهشته، يقول:

"شفت يا عماد.. أهو لو المسلمين بيحبو ربنا زينا كانو خلو  
الجوامع حلوة جدا زي الكنائس"

فيجيب بعفوية "إحنا لأقيين ناكل يا عم دياجون"، ويضيف  
"الجوامع بتتوسخ عشان بنصلي خمس مرات ورا بعض.. انتو  
بتصلو كام مرة؟".

ويرى عضمة القسّ يوانس في ردائه الأسود يحمل في يده  
صليبا خشبيا بيد طويلة يبارك به طالبي البركة ويحرّكه من حين  
لآخر ليهش به ذبابة ثقيلة تسكن محيطه. يخبره دياكون أن ربنا  
أرشد عماد ويطلب المساعدة، فيطلب القس من عضمة العودة بعد  
ثلاثين يوما، يخرج دياكون غاضبا وقد أدرك مغزى ما قاله القس  
يوانس. يقول إن الأب يوانس هذا لا يعرف شيئا، ليس مثل الأب  
حنا أو الأب إسرائيل، و"هانشوف حد غيره".

ولكي يبرهن على رأيه بحق الرجل، يحكي أن الأب يوانس  
غضب من المصلين في القديس يوما لأن أحدا منهم لا يتشفع بالقديس  
أباسخيرون القليني. وكان يوانس قد أخبرهم ذات مرة أنه بينما  
كان ينادي الملاك ميخائيل والملاك مار جرجس طالبا الشفاء من  
ثلاث حصوات على الكلى إذ فجأة يأتيه القديس أباسخيرون حزينا  
مهموما يشكو له أن لا أحد يتشفع به حتى صار "قاعد في السما  
من غير شغل" مع أنه قد تعذب أكثر من القديس بشنونة وأكثر من

القدّيس أبانوب الذي يتشفّع بهما الجميع. وتساءل دياكون، هل يعقل أن يغضب قدّيس سمائي لأن الأرضيين يتشفعون بقدّيسين غيره؟ ويهزّ عظمة رأسه كجاموسة وقفت عصفورة فوق جبهتها.

بعد يومين يسحبه دياكون إلى الأستاذ نجيب الطويل، وكان يعرف مواعيد قدومه، رجل أعمال شهير يستطيع مساعدته بإشارة. لكن الطويل رفض شاكيا إلى الأب يوانس أن دياكون لا يكف عن إرسال أفراد غرباء إليه. وعندما شعر عماد عظمة بأن خطته باءت بالفشل وشاعت قصة تنصيره بين العزباوية انقطع عن دياكون والكنيسة وتل الطواحين كاملا. وعندما زاره الأخير في بيته سلط عليه أخاه الشيخ عربي ليصرفه بالتّي هي أحسن.

\*\*\*

9

الله أكبر والله الحمد

"ولتكن كلمة الله هي العليا"



لم يتحدث أبو تيتو يوماً عبر ميكروفون المسجد. والمرة التي تحدث فيها عبر ميكروفون كانت ذات رمضان بعيد، يوم أقام دورة رمضانبة شارك فيها ثمانية فرق، ثلاثة من العزبة والبقبة من العزب والمناطق المجاورة. كانت منظمة بلان قد بدأت العمل وانضم إليها أبو تيتو متطوعاً مع الشيخ عجمي أملاً أن يصيبه من فيضها شيء عيني أو نقدي، فاقترح على مسؤوليها تنظيم نشاط رياضي تحت شعار "لا للبانجو" ووافقت المنظمة وكلفته بشراء خمس شكاير جيس أبيض وعوارض حديدية وشباك لتخطيط ملعب في المساحة الخالية قرب مبنى الإسطبل، وكأس نحاسي تجاوز ثمنه عشرة جنيهات.

اشترى الجبس وخطط ملعباً مناسباً بمساعدة آخرين، اقترض ماكينة الميكروفون من مسجد الغلام والراهب بالاتفاق مع الشيخ يونس، ثبته فوق عرق خشبي طويل تم نصبه خلف أحد المرميين، مع لافتة عريضة من قماش البفتة الأبيض رسم عليها الشعار باللون الأحمر مع رسم بدائي لسجارة ملفوفة محشوة بالبانجو.

واختبر أبو تيتو عددا لا بأس به من الصبية واللاعبين للقيام بمهمة التعليق على المباريات ولم ينجح أحد، فقرر أن يتولى المهمة ليكتشف في نفسه موهبة أخرى إلى جانب موهبته في اللعب النظيف والتدريب المنهجي والتحكيم العادل.

وكان انتظارُ أبو تيتو انتهاء الشيخ أبو عصام الضابط من صلاة العشاء حيث قرأ سورتي الأعلى والغاشية لكي يتقدم ويعيد فتح ماكينة الميكروفون، أمرا استرعى انتباه الجميع، بمن فيهم الشيخ الضابط نفسه، الذي جعل الاقتراب من ميكروفون مسجده أحد محظورات ثلاثة لا يقبل فيها شُفَعَة: خطبة الجمعة، وصندوق التبرعات، والميكروفون.

ألقى أبو تيتو على الحاضرين سلاما سريعا طالبا إنصاتهم دون أن يفاجئه الصدى الصادر عن حديدة الميكروفون التي غالبا ما تصيب من يحملها للمرة الأولى بالتلعثم لثقل وزنها وصدى مغناطيسيا يرتد في أسمع من يتحدث خلالها. ثم أعلن بعد نحنة سريعة أن الفيومي عضو مجلس الشعب سيصلي العشاء غدا في مسجدهم.

قال إن مرسالا من سعادة النائب أبلغه أن يخبر سكان الجهة ليوفدوا من يتحدث عن مشاكلهم تمهيدا لحلها بعد انتهاء الانتخابات داعيا الشيخ الضابط لإلقاء كلمة يحض بها الناس على المجيء. ولم



يكذ ينتهي مجيبا على تعليقات انطلقت في أرجاء المسجد محبطة ومشجعة حتى كان الشيخ عدوي وبقية سُنِّيّة زاويته يتخطون عتبة مسجد الغلام والراهب إلى الداخل، بعد أن وصلهم نداء الميكروفون وهم يؤدّون الركعة الثالثة من صلاة العشاء لينتهوا من الرابعة كيفما اتفق، ويسارعوا لتأدية الشفع والوتر في مسجد الغلام والراهب بعد أن يتقصّوا الخبر.

قرّر عدوي أن يحمل مشكلة كنيسة الطاحونة إلى الفيومي باعتباره من "الإخوان" الذين فازوا في الانتخابات على الدمام مرشح حزب الحكومة. الإخوان الذين يكرههم الشيخ عدوي جميعا لله في الله، مؤكدا إنهم تخلوا عن الدعوة ولو ثا الذين بالسياسة عن جهل وقصر بصر وبصيرة. وعلى الرغم من رفضه والسُنِّيّة المشاركة في أية انتخابات كانت، إلا أنهم اعتبروا أنفسهم أصحاب الفضل في فوز الفيومي.

في اليوم التالي كانت العزبة تحنّشد حول مسجد الغلام والراهب وسيارة فارهة تخترق الحشود تتقدمها سيارة شرطة رباعية الدفع داخلها ضابط وثلاثة عساكر، خلفها سيارات خاصة تحمل ملتحين بلحي خفيفة لا يعترف بها الشيخ عدوي ولا بملابسهم التي لا تشبه ملابس السلف الصالح. يدخل الفيومي المسجد يربت بيديه فوق رأسه تحية لمستقبليه. تتعالى صيحات في أرجاء المسجد "الله أكبر

ولله الحمد". رفض صعود المنبر ووقف إلى جانبه قابضا على ميكروفون متصل بسماعات كبيرة بدون سلك شدةً أبصارهم.

طلب من الجميع الجلوس والهدوء. تحدث مهاجما الحكومة والحزب الحاكم والمسؤولين والداخلية والمحافظة والحي حتى ظنوا أن السيارة البوكس التي جاءت تصاحب موكبه ستقتحم بين لحظة وأخرى باحة المسجد لتقبض عليه ومن معه. قال إنه يعلم ما يعانيه السكان لأنه واحد منهم بينما المرشح الآخر ابن الحكومة لا يعرف.. المياه والكهرباء والعيش والبطالة والضرب في الأقسام والتعليق من الرجلين والصفع على القفا والتحريات والطوارئ والمخدرات والبلطجة وتمليك الأرض. قال إن الانتخابات مقبلة وأن الحكومة تتستر على الفساد، لكنه لن يترك فاسدا مرحرا في مقعده لو نجح في الدورة الجديدة، إنه سيكون شبحا يقض مضاجع الفاسدين ليلا ونهارا، وسيفا مسلولا على رقاب اللصوص، وجمرة تحت مقاعد الكسالى من الوزراء والمحافظين، ولم يكذبه أحد أو يعترض، بل أمن أغلب الحاضرين على كلماته الحماسية بصياح وحيد "الله أكبر والله الحمد"

بعد ساعات انصرف خلالها كثيرون، وبعد أن ياس الشيخ عدوي أن يمنحه الفيومي أو يمنح غيره فرصة للمساهمة بكلمة قرّر مقاطعته. نهض صائحا فتحوّلت إليه الأعناق بزواية حادة، طالب عدوي بنقل كنيسة الطاحونة أو إنشاء مسجد له منذنة أعلى من قبابها

لتكون كلمة الله هي العليا، وبعد مناقشات اختلطت فيها الأصوات وتداخلت الرؤى تعهد الفيومي بإجبار الحكومة على إصدار تصريح لإنشاء معهد أز هري له مئذنة يقام بالجهود الذاتية وأعلن تبرعه بأول مبلغ مالي لبناء الصرح، وتعالق مرة أخرى صيحات "الله أكبر والله الحمد" تنتقل حُمى إلى بقية الحاضرين داخل المسجد وخارجه كمجاميع كومبارس في مسلسل ديني يستعدون للخروج في غزوة حربية. يقول الفيومي إنه حمل مطالبهم في عنقه منها اللقاء بدعاء مسجّع لا يجيد الشيخ أبو عصام أو عدوي أو يونس أو بقية السنية مثله. وأمن خلفه الجميع صارخين كمن يريد إيقاظ رب نائم. وخرج الفيومي منتصرا ظافرا لينتقل بموكبه زائرا لكنيسة الطاحونة.

\*\*\*

لماذا يبدو اللصوص ظرفاء وألسنتهم حلوة، ولماذا هم محبوبون وكرماء، بينما الآخرون الذين لا يقبلون القرش الحرام ثقلاً، دمهم واقف ولا يجودون سوى بالقليل حتى لو كانوا أثرياء؟ تساءلت صالحين!!

\*\*\*



10

سبع تركبه القروء

"لكنه من برة رخام ومن جوه سخام"



لم يَبْدُ في ملامح فتحية ما يشي بأنها تنام مع غير حنفي زوجها. بها مسحة من جمال وقح، لكن سلوكها رصين وهادئ لا يتناسب وخدمة متزوجة بعرض. حاجباها منتوفان بعناية، وخيطا كحل أسود يمتدان إلى خارج محجري عينيها بدقة. لا تجعّر مثل بقيتهن بصوت ممطوط لكل شاردة وواردة. تتحدّث بحساب كزوجة مسؤول حكومي في زيارة مؤسسة خيرية. لا يمكن التكهّن بعمرها، تبدو أكبر من صالحين بسنوات قليلة، لكن التاريخ الشفهي لخير الله يقول أنها التحقت بالخدمة في بيت الضبع الكبير بينما كانت صالحين تحبو على أربع. صالحين نفسها حاولت التكهّن بعمرها وقشلت، أعطتها ثلاثين سنة ثم أربعين ثم نفضت الفكرة عن رأسها. وعندما انحسرت معها وبقية نساء الشارع البحري والشوارع القريبة في واحد من الأتوبيسات التي أرسلها مرشحو الانتخابات لشحن منات رؤوس آدمية إلى "سويقة" انتخابات المدرسة المعمارية، ومنها إلى سويقات أخرى في الجزيرة والملاة ومصر القديمة والبساتين، حاولت صالحين اختلاس نظرات متفرقة بين دفتي عباؤها ذات

الكباسين وبين كُلفة صدر العباءة التي تغطي النحر عدا مثلث صغير أسفل جيدها، لكنها لم تر جسدا عاريا لشرموطة تنام مع الضبع بعلم زوجها كما سبق أن أخبرتها بَطْرَسَة، والتي نقلت ذلك عن كَبْر زوجة الضبع نفسه، وظلت بعدها صورة المرأة اللعوب، ومذ ذاك، تجوس في مخيلتها كلما أتت سيرتها. صورة امرأة تكنس غرفة المعيشة في بيت كبير وعندما تنتهي تنتقل إلى غرفة نوم صاحب البيت لترتيبها فيدخل عليها الأخير عاضا على طرف جلابيته ومدليا كلسونه لأسفل لينط على المرأة التي اعتادت الركوبة على مرأى ومسمع من صاحبة البيت والرجل.

تحاول صالحين إعادة هندسة الصورة.. ربما كانت كَبْر تظن بزوجها سوء، أو ربما تحمل غلًا لفتحية باعتبارها ذات أقدامية داخل المنزل، أو ربما نجح زوجها الضبع، بطريقة ما، في محو آثار فعالة فبدت فتحية عادية لا دليل على إدانتها بجريمة الشرف، لكن حتى، سيظل حنفي عرصا مقرنا في نظر صالحين، هو النجس الذي يسعى للإيقاع بها وفي ذمته امرأة.

أما الضبع فلم تلحظ صالحين أيضا ما يشير إلى نجاسته عينا، وذلك حين تفاجأت به بين رجاله قبل أيام من الانتخابات يدق باب منزلها ليتحدث إليهم كما لم يفعل من قبل. حديث ودي هادئ تتخلله عبارات يا بني ويا بنتي، وربنا يصلح الأحوال، وعائزين الخير



للجميع. وكانت تلك معلومة جديدة أصابت من سمعها بالدهشة والأمل والرجاء، بل دفعت بعضهم لانتظار الخير الذي أراده الضبع للجميع، كانتظارهم طرود منظمة بلان القادمة من بلاد سكانها ملونون وشعورهم منسدلة بدون تمشيط.

في ذلك اليوم والأيام التي تلتها، طرق الضبع أبوابا أخرى لبيوت لم يبادر أصحابها بالخروج لمشاهدة موكبه نأيا عن مواطن الشر والشبهات. أعاد على سكانها ذات كلماته لصالحين بأشكال مختلفة، هي المرة الأولى التي يدور فيها على الأبواب مترجلا على قدمين كبقية الخلق، دون حصان ابن حرام مرتفع كرأس عامود لا يعلمون كيف يصعد على متنه الضبع بجسده المدكوك كجلمود صخر حطه القدر من جبل. هي المرة الأولى التي يترجل فيها الرجل باحثا عنهم لا ليمتص شيئا من دمهم وإنما ليحصل على أصواتهم وحناجرهم لحشدها في لجان الانتخابات موالاةً للامام. يطبع على وجهه ابتسامة مستعارة من صورة قديمة معلقة في برواز متآكل بصالة منزله بالمفارق، ابتسامة لا تشي بشيء سوى أنه لا يضمّر شرا. ولولا وجود وجوه قديمة مازالت أذهان السكان تحتفظ بنسخ قديمة لصورهم الباهتة، يلتفون حول الرجل لا اعتبروه وليا أو مهديا أو مرضيا عنه. كان ظهور حنفي وأبوتلاتة وصندل مع وجوه أخرى جديدة إلى جواره كفيلا بوادٍ أفكار طيبة حاول زرعها عنوة في نفوس السكان بعد بوارها، لإنتاج ثمار جديدة. لم

يحدث. لكن العزباوية استجابوا للرجل وخطوته العزيزة. وقالت صالحين عندما غادر الضبع عتبة بيتها مع رجاله "السبع لما يشيح تركبه القروء".

هل شاح الضبع يا صالحين؟ تتراجع وترد وقد استعادت شيئا من ذاكرتها، أي والله يا عم خليل، تقول: "من برة رخام ومن جوه سُخام"

يضحك الشيخ يونس ضحكته المعتادة متسائلا:

"أما هو سخام حلفتي على مصحف إنك هاتروحي تنتخبني ليه؟"

ترد بتحدي "من دق بابنا أكل لبابنا، يا شيخ يونس".

وتؤكد صالحين أنها ما كانت لترد طلبا لا يغضب ربنا ولا يحط من قدر ابن آدم قدام نفسه حتى لو كان طالبه ضبعا، ومثلها مثل بقية نسوان العزبة، هي ليست أفضل منهن، أم ياسين وزوجة خليل وهدى وزوجة عجمي وغيرهن كثيرات وضعن أديهن على المصحف وأقسمن، حتى بطرسة أرادت أن تضع يدها لولا أن تذكر الشيخ أبو عصام الضابط أنها ليست طاهرة لتلمس كتاب الله. كلهن سيذهبن قبل طلعة الشمس.

الشيخ الضابط الذي ظل الضبع يصطحبه لقضاء الجوانب

الدينية في الجولات التي يقوم بها داخل العزبة منذ ذلك اليوم الذي حملوا له فيه خبر الرجل وحقيقة رتبته في الجيش إلى الضبع. وعندما حلت مواعيد الانتخابات قام الشيخ أبو عصام بتخليف العزباوية فردا فردا على المصحف الشريف للذهاب إلى لجان الانتخابات، خاصة النساء، وأعاد المصحف إلى سيالته مطمئنا إلى أن الجميع سيشارك، كبير وصغير، رجل وامرأة، حتى من لا يحملون بطاقات انتخابية أو بطاقة شخصية، أو بطاقات تموين، سيؤيدون الرجلين الطيبين "أبو هلال وأبو جمل" بهتافات صادقة من حناجرهم الغليظة. الأتوبيس سيحملهم إلى هناك ويعود بهم دون أن يتكلف أي منهم سحتونا.

هي المرة الأولى التي يمد إليهم الضبع يده مبسوطة كل البسط ويعيدها إلى سيالته الواسعة مطمئنة لا تنفر عروقا حمراء من أثر صفة على قفا، أو ضربة فوق رأس، وخالية لم تقتصص مبلغا من قوت أحدهم، من أجل خليله الدمام مرشح الانتخابات الذي يعرفه بعضهم اسما فقط وسيارة سوداء جاءت مرات قليلة في أوقات غير مناسبة لزيارة خير الله الجبل وطواحينها، حتى طاحونة أمين المجذوب زارها الدمام تَقِيًا وَرِعًا لم يخشَ "بسم الله الرحمن الرحيم" وعندما كتب الضبع على كَبْرٍ بعد إعادتها لعصمته إثر عدة طلقات متتالية كان الدمام أول المهنيين. جاء يرقل في عباءة

واسعة نظيفة منشأة وأخرج رزمة أوراق مالية بدت في يده أوراق لعب ملونة لا نقودا.

\*\*\*

باصات مكيفة، لنوافذها ستائر سوداء نظيفة تابعة لوزارة الري ووزارة الأوقاف وإحدى الشركات الحكومية، ما أن تتوقف لدى مغلا الخشب حاملة بوسترات المرشحين على زجاجها الأمامي والجانبى برمزي الهلال والجمال، ملونين بأحمر فاقع إلى جوار صورة الرئيس، حتى يتوافد إليها السكان رجال ونساء وأطفال وعواجيز، لحجز مقعد "مؤبشن" بوجبة غذائية سريعة وعلبة عصير طازج محتفظ ببرودته وشفافات عصير بلاستيكية سيحتفظ بها أغلبهم لفترات طويلة كتذكارات لموسم انتخابي حصدوا منه مبالغ مالية كفتهم مؤونة أيام، وأحداث صغيرة كفتهم حواديت قعدات العصاري أمام البيوت لأسابيع.

تنطلق الباصات من أرض الملعب المجاور لمسجد الصديق بعد تكديسها وملء فراغاتها بكتلة بشرية يصعب تفكيكها أفرادا إلا بجهد. تتجه بتؤدة إلى لجان البساتين ودار السلام ومصر القديمة، تتهادى على وقع طبول وزغاريد تنطلق من النوافذ الزجاجية مع إشارات من ركابها لسائقي السيارات الملاكي المجاورة، إشارات

قبيحة أو مسالمة، أو بسمات ساذجة مندهشة توزعها العزباويات على مشاة عابرين تجذبهم أصوات الطبول وأغاني لا علاقة لها باللافات التي تزين نوافذ الباص من الخارج.

على رأس كل أتوبيس أحد رجال الضبع يجلس إلى جوار السائق كقائد سرية على شفير حرب يثق في إنهاؤها منتصرا، ومعه مندوب من أتباع الدمام، مرشد انتخابي خَبَرَ العملية وداسها مرات عدة مسبقا ويعرف الخطة جيدا، والخطة هي دُلُق الحمولة أمام اللجان حيث طوابير الناخبين، فقط.

يتحدث مرشد الأوتوبيس بخطاب دعائي مفتعل، مؤكدا أن الحكاية ليست قرشين سيحصلون عليها آخر النهار، الموضوع كبير، مستقبل بلد يشاركون في بنائه وأجيال تنتظر حياة أكرم. يقول إنها مهمة وطنية ومسؤولية. يوزع عليهم بطاقات حمراء تحمل أسمائهم يدعوها بطاقات انتخابية، واستمارات بيضاء تحمل قائمة بأسماء المرشحين ورموزهم الانتخابية وأمام اثنين منهم علامة "صح" بقلم جاف أزرق. أناب عنهم من قام بكتابتها تجنبا لحماقات سابقة كشفت عنها دورات انتخابية ماضية، وأدت إلى سقوط مرشحهم أمام مرشح المعارضة. يشرح أن كلا منهم مطالب بإعادة ورقة مماثلة نظيفة بدون أية علامات سيتم تسليمها لهم داخل لجان الاقتراع، وأن عليهم الاحتفاظ بالورقة الجديدة وإسقاط الورقة

التي سبق أن حصلوا عليها مدون بها اسم مرشحهم في الصندوق الخشبي بدلا منها.

"تَسَلَّمْنَا الورقة الغاضية تستلم النقدية!" ورقة دواراة بين مندوبي المرشحين والناخبين وصناديق الاقتراع.

\*\*\*

كانت باصات النساء أكثر حماسا. يرددن الهتافات التي تلقى على مسامعهن بإخلاص وتفان. وعندما يبدأ مرشدهن الانتخابي في إلقاء محاضرة حول "أولاد الوسخة" الذين يرغبون في خطف البلد، ولا يعرفون شيئا عن حنكة الإدارة وخفايا الدولة، ينصتن بإرهاف، وتطل من عيونهن نظرات الرهبة والاندهاش والوعيد. كل منهن تتوعد من ستقبله في طوابير النساء من داعمات المرشحين الآخرين بعضة تاكل قطعة من جسدها أو بنزع شعرها حتى آخر شعرة في نافوخها. يبلغهن أنها ستكون مباراة مفتوحة لا قواعد فيها ولا حكام، كل منهن تستطيع إفراغ "طقطانها" كما ترغب، الفائز بالمباراة سيحظى بالحماية من الحكومة ذات نفسها، ومبلغ نقدي محترم والخاسر يعود سيرا على قدميه خانبا.

هنالك، وعندما تحتدم المناوشات أمام لجنة المدرسة المعمارية تكتشف صالحين أن بعض العزباويات جنن فقط من أجل معارك

ستتدلع. وبدا أنهم استعدادن لها بشكل كاف. نساء تعرف بعضهن طبيبات وجدعات ولا يتورطن في مشاجرات فاجرة إلا اضطرارا، لكنهن يؤدين عملا وطنيا مدفوعا بتفان وإتقان وبأريحية مَنْ خَبَرَ تجارب مماثلة قبلا. كل ذات عافية جاءت. زوجات الأرزقية والبائعات والمتسولات. تعرف صالحين كثيرا منهن طبيبات ولا تخرج منهن العيبة، لكنهن يُعْمِلْنَ أسنانهن في الخصوم كالمناشير.

تعيد الباصات نقلهن من لجنة إلى أخرى وتعود بهن مجددا إلى اللجنة الأولى. أمام كل لجنة يتكرر السيناريو. مشاجرات تندلع وصراخ يدوي. تنخرط صالحين في نوبة بكاء هستيرية. تنجح في فض الالتحام بين بعضهن. تفصل جسد هدى عن جسد أخرى محجبة تحمل صورة مرشح منافس، لكن بعد أن تنجح هدى في نزع حجابها وتمزيق جزء من ملابسها العلوية ونشب مخالبتها في رقبتها ونحرها. ترمقها هدى بنظرة قاسية كقائد سريّة اكتشف لتوه عميلا خاننا بين صفوف جنوده. تنتقل هدى إلى فتاة أخرى كأكلة لحوم بشر هربت من شريط سينمائي لفيلم مرعب وتخلعها من الطابور خلعا وتبرك فوقها كأتان أجهدها ساقية قديمة في حقل أجدب.

زوجة زكريا تنزع نصف قالب طوب من الرصيف المكسور وتهب نافوخ امرأة ترتدي بنظالا ضيقا وحجابا لا يخفي رقبتها بعد أن بادرت الأخيرة بسبها بكلمة غريبة لا تتذكرها وإن تذكرتها

فلن تعرف معناها، بل ربما لم تكن سبابا. بينما تنتحي زوجة خليل بطفلها رضيعا فوق صدرها مكتفية بالدخول إلى اللجنة لوضع الاستمارة في الفتحة الطولية الضيقة لصندوق الاقتراع بعد أن يوجهها رجل محترم يرتدي رابطة عنق لما يجب أن تفعل. كانت تفاصيل المشهد أمام لجنة النساء بالمدرسة المعمارية متشابكة ولا يمكن تفصيل أجزاءها كاملة، أصوات الميكروفونات لم تكف عن الصباح، أغان وطنية حماسية وصور مرفوعة لزعماء مصر التاريخيين ورؤسائها، أناشيد دينية وشعارات يطلقها شبان مختلفو الأعمار بلا كلل. مشاجرات تندلع كالبرق دون مقدمات، خاطفة وسريعة ومفتعلة تندخل الشرطة في إثرها للقبض على مناصري مرشحين بعينهم.

لافتات تتساقط وسيارات تتوقف لتتابع ثم تفلص من بين الجموع لتستكمل مشوارها بمن داخلها. المحال التجارية تعلق لافتات التأييد لمرشح الحكومة ومقهى الرئيس المواجه لبوابة اللجنة والذي اتخذ مندوبو مرشحي الهلال والجمال مقرا انتخابيا يضع ثلاث صور مكبرة لناصر والسادات ومبارك. لافتات زرقاء داكنة تحمل عبارة "الإسلام هو الحل" تلح على العين وتجذبها. لافتات أخرى معدودة، شاذة، تختفي مقهورة أسفل عواميد الكهرباء وأسوار المدرسة المعمارية لمرشح حزب يساري ورث مقرا صغيرا في المنطقة ولافتة باهتة تحمل اسم الحزب فقرّر وكيله ترشيح نفسه مستفيدا



بأصوات أسرته وأصدقاء أحد أبنائه في مركز الشباب الذي يلعب به كمال الأجسام. رجال شرطة يستمتعون بمشاهدة أجساد نساء بيضاء كشفتها ملابس تمزقت، بعضهم ينحشر بين جسدين ليفصل بينهما محاولاً أن يقضي وطره أو اختبار ليونة الأجساد المؤيدة ومقارنتها بالمعارضة.

باصات الرجال أكثر هدوء كانت، وكان واضحاً أن أغلب ركابها غير متحمسين لترديد هتافات تمثيلية مفتعلة تقلل من حشمتهم أمام بعضهم البعض باستثناء الشيخ يونس الذي بدأ متعصباً يهتف بحرقه من مكنونات مشاعره.

**"يكونش الدمام من ربعك يا شيخ يونس!"**

ويرد الشيخ يونس بوجه أربد أن الرجل خيره على الكل وأفديه برقبتي، فيتبادل خليل وأبوياسين نظرات مستريية وقد تأكد لهما أن سرا يضمه الشيخ ولا بد من سبره، ولم يكن السر سوى وعد تلقاه الشيخ يونس، هو بالخصوص، بالحصول على خمسين جنيهاً وحده، فيما كان المبلغ المتفق عليه عشرين جنيهاً عن كل رأس، تقديراً لمكانته كإمام مسجد وحامل للكتاب. ظل خليل يحرك شفاهه بالهتاف دون أن يطلق صوتاً، وأبو ياسين يكتفي بضحكة بلهاء متفرساً وجوه من حوله لقراءة انطباعاتهم، وكل منهم في نفسه أنه يُحْمِلُ الضبعَ جميلاً، يوماً سيسترده.

\*\*\*



## مُؤَلِّدُ جَاهِدَةِ السُّودَانِ

"واقيم شاهد برأس كبير مغلف بأقمشة بيضاء نظيفة".



### "جاهدة السودا ماتت"

وفي احتضارها أرسلت في طلب الضبع فاستجاب، مندهشا، في رهطٍ من رجاله. أدخلوه غرفتها وحيدا وتركوهما. دخل القزم راضي ابنها، بالمبخرة يعبق أرجاء الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، ناشرا غيوم ضبابية من البخور حتى لا تكاد العين ترى إصبعها من كفي اليدين، ثم خرج بعد أن أخبر جاهدة أنهم "سَلَبُوا الرجالة" فطلبت منه ألا يدخل عليهما أحد.

وعندما سأل الضبع عن الرجال الذين تم تسليبهم أجابت:

**"ماتخذش في بالك.. دي دخليات بناتنا".**

قالت بنبرة واهنة وقد تمددت في فراشها متدثرة بأغطية ثقيلة رغم حرارة الغرفة، إنها تموت فقيرة ولن تترك إلا سيرتها، وأنه أيضا سيموت فقيرا وقريبا، قريبا جدا، ولكن بعيدا عن فراشه، ميتة مذلة، وليست ميتة كريمة كميبتها.

راقب الضبع حركة شفاهها بدهشة بادية في وجهه، وشفقة لم تعتد ملامحه. بدت جاهدة ضئيلة وقصيرة، لا تملأ نصف سريره،

بالأحرى كانت قزمة في طول ابنها راضي أو تتجاوزه قليلا. ودار السؤال بخلد الضبع عنيفا مُلخًا.. كيف بدت السودان كل تلك السنوات عملاقة، ترتج الأرض تحت وقع خطواتها، كيف أصابته وأصابت غيره بالخوف في كل مرة شاهدها، وكيف صكت أذانهم عندما كانت تتحدث، وأنفذت أوامرها على كامل الزمام قبلي وبحري. وقرأت جاهدة نظراته فضحكت واهنة، قالت:

"الشوف والسمع وهم يا عبد الرحمن، ماتصدقهمش على طول.. صدق قلبك لما ينصف يا خوآف"

قال: "بنقولي إيه يا ولية؟"

قالت: "مانت أعمى"

قال: "بقيتي كوم عضم في جُفة يا سودا".

لم تعره انتباها، وإنما قالت في حسم بلهجة أمرة: "احرق طاحونة أمين يا عظيم!!"

لم يسمعها للوهلة الأولى، أو ربما سمعها ولم يفهمها، فأعدت تكرارها. انتزع ضحكة عالية وقال إنها انهبلت وهي تودع الدنيا. وعندما قرر المغادرة متجاهلا أمرها، قالت إنه محبوس لديها لحين دفع ديون قديمة بينهما منها نصيبها من فلوس الانتخابات التي فاز فيها الدمام. أخبرته أنه تم تسليب رجاله بالحبال ولن يسمح له أو لهم بالمغادرة قبل دفع الدين كاملا. اعتقد أن مسأا أصابها قبل الموت، وأن أية محاولة للتملص قد تأتي على رقبته. حاول المُماظلة طالبا مدة لتدبير المبلغ، وعندما قرأ إصرارا في

نيرتها الواهنة، أرسل راضي إلى زوجته "كبر" في بيت المفارق "بأمارة"، طالبا منها إعطائه كل المال المحفوظ في مكان سري داخل غرفته، وهو يجز على أسنانه أنه لن يترك رجالها يفلتون بفعلتهم حتى بعد موتها.

وماتت جاهدة بعد انصرافه بساعات. أقاموا صوانا مهولا أغلقوا به شوارع منطقة أم نادية، وتسربت إلى خير الله أنباء موتها في قصص بعضها يضرب بعضا. قيل إنها دُفِنَتْ في مقابر البساتين وأوصت ألا يعرف أحد قبرها حتى تستريح دون ضوضاء أو إزعاج، واختفى ابنها راضي أربعين يوما كاملة. وفي اليوم الأول بعد الأربعين وفدت جحافل من الغرباء إلى بيتها حاملين خياما وأواني وزيارات. وأقيم شاهدٌ برأس كبير مغلف بأقمشة بيضاء نظيفة، قام راضي على سدائته. وأقيم احتفال حول البيت بدأ بحلقة ذكر وربع من سورة البقرة وتواشيح، ثم صار "مولدا" يحجّه الزوار والمريدين يتبركون حاملين أمانٍ وحاجات عزّ تحقيقها إلى صاحبة الشاهد التي روضت عفاريت الإنس والجان ولما ماتت طار نعشها إلى السماء فلم يعد لجثتها من أثر.

\*\*\*





12

ما بني على باطل فهو باطل

ويخرج بعدها من ذاكرة العربة



أيام قليلة، ثم نزلت الحكومة بسياراتها المميزة بالصندوق الأزرق تمسّط المنطقة عن طريق كمانن في مداخلها ومخارجها. قبضوا على كثيرين، وأطلقوهم على فترات متباعدة. تجار صغار ومدمني شَمّ الروائح النفاذة كصُيغ السيارات، وصمغ الأحذية ومشتقات البنزين، ومدمني الحشيش والبانجو والأقراص المخدرة وأدوية المنومات وغيرها. ورابط السجيلي رئيس المباحث بسيارة الشرطة لدى مفترق شارعين عموميين لاصطياد قضية بطلها زانغ العينين مشتت الذهن ثقيل اللسان وربما يسير كبهلوان فوق جبل مشدود. يكمره أحد أفراد القوة من حزام بنطاله ويحشره داخل السيارة إلى غرفة تحقيقات تحتية في قسم البوليس حيث الشرطة في خدمة الشعب. يُنفض هناك نفضة أو اثنتين تتبخر على إثرها سرانره ويفرغ محتواها كاملا فإن كان خيرا فخير أو شرا فشر.

كثيرون اضطروا للوشاية بأصدقاء وجيران لم يرتكبوا جناحة أو جريمة، فقط لإبداء حسن النوايا للحكومة، وهربا من عملية نفخ أليمة تملأ المعدة بهواء نتن وتفرغه على دفعات طويلة متصلة

وتترك أثرها بأسورا في فتحة الشرج وإحساسا بالميوعة والهفتان يستمر لأيام.

عملية تعرّض لها سعيد ابن سيد العسكري عندما التقطوه بسيجارة بانجو يضعها بأريحية في أحد جيوب بنطاله. حملوه إلى القسم مع آخرين رغم قسمه بشرف أمّه أن أباه مساعد شرطة. نال ما ناله الآخرون، واضطر لأن يفرغ ذاكرته من أسماء ووجوه بعضها غادر خيرالله قبل زمن. قال أن كل من هم في سنه يتعاطون عدا واحدا اسمه علي لأنه في الجامعة، وعدا أخيه ناجي لأنه في جامعتين. لكنه استدرك حتى لا يفوت معلومة قد تمثل أهمية للحكومة أن علي لم يرفض أن يشاهد معهم فيلم "سيكس" بواسطة فيديو استأجروه مشاركة في وقفة العيد الكبير. في الصباح فتح الحارس باب الزنزانة وسأله:

"انت اللي أبوك مساعد عفريت؟" هز رأسه موافقا، فقال

الحارس:

"طب اطلع ياخويا.. أهو جالك عند الظابط النبطشي".

وخرج سعيد باكيا يقص تفاصيل ليلته الغامقة على أبيه الذي يظل يقصها بدوره على كل من رآه في خيرالله لأيام متتالية، حكى عن غرفة التحقيقات، وأهوال التعذيب التي ذاقها ابنه ومن معه، وأصوات الصراخ التي كانت تفرع أذانهم طوال الليل. وبعد عامين

استطاع العسكري إلحاقه بمعهد أمناء الشرطة، ليصبح أول عزباوي يصل إلى هذه الرتبة الرفيعة، بعد جهود مضيئة بذلها لتوسيط رتبة كبيرة. وعندما حصل سعيد على إجازته الأولى من مركز التدريب وجاء العزبة حاملا حقيبة ملابسه السوداء، مرتديا الزي الميري، جاء الضبع وعدد من رجاله لتهنئة العسكري وإعلان انضمامه إلى طبقتهم. ثم صار العسكري بعدها واحدا من أرباب طبقة الضبع وعبدالجواد وكبار معلمي العزبة، وأول ما فعل، كان انقطاعه عن جلسات الشارع البحري تماما.

كثيرون تستوقفهم بوكسات الشرطة وتخضع بعضا منهم للتفتيش الذاتي، لكن امرأة لم يتم توقيفها في الشارع أو اعتراض سبيلها، إلا إن كان احتجازها على سبيل الرهن المؤقت لحين تسليم أحد أقاربها نفسه إن كان مطلوبا. واستطاعت صالحين أن تحدّ من خروج إخوتها ليلا إلى أدنى ما كان ممكنا. واستطاع ناجي تدريب عليّ ومصطفى على أفضل الطرق لاجتياز كمين شرطة، قال إن على كل منهما أن يثق في نفسه ثقة حقيقية غير مفتعلة، لأن افتعال الثقة بالنفس لصرف الأنظار سوف يلفتها، أن يتعامل ببساطة دون خوف، وألا يتردد في الإجابة عن أي سؤال، حتى وإن كان بالإجابة ما قد يوحي بارتكاب مخالفة، فطالما كانت المخالفة بعيدة عن الجماعات والمخدرات سيتركونك، على الموقوف أن يبادر بإعطاء إجابة واضحة من المرة الأولى، وأن يحاول أن يرسم

ابتسامة خفيفة فوق شففتيه، وحبذا لو يسارع عند توقيفه بإخبارهم أنه طالب جامعة. وأن يحاول أن يجري حديثا وديا قصيرا يبلغهم من خلاله أنه يقدر تعبهم ويدعو لهم بالتوفيق على أولاد الحرام والمجرمين الذين امتلأت بهم الدنيا.

لكن جملة قصيرة خرجت قبل زمن على لسان الشيخ صابر كانت تقفز من ذهن علي ليرتدّد صداها في أذنيه كلما رأى كميناً أو زي شرطة. يوم قال الشيخ صابر "ليه يابني ده جهاز فاسد". لكنه لم يقع يوماً في قبضة كمين من الأكمنة التي بدأت تنتشر في خيرالله، بل حدث أن استوقف أفراد الكمين من يسرون معه وصرّفوه هو من بينهم دون سؤال.

\*\*\*

قضت المحكمة وصدر الحكم. وحصل الأستاذ مجدي السلاموني على صورة ضوئية منه ممهورة بخاتم "طبق الأصل" دسها في حقيبته السامسونايث السوداء ذات الأرقام السرية، ووضع الحقيبة تحت إبطه الأيسر، بينما "روب" المحاماة اللامع، الذي لم يستخدمه من قبل، على زنده الأيمن، وقذف بنفسه في أول ميني باص نقل عام مرّ أمام المحكمة. بعد ساعة كان يستقل سيارة الأنفاز المكشوفة من أسفل مطلع الزهراء إلى أعلاه، مرتدياً "الروب"، وعند موقف

المفارق أمر سائق السيارة بتوصيله منفردا على غير عادته إلى مكتبه في الشارع البحري لدى بيت صالحين. وما أن وضعت السيارة عجلتيها الأماميتين في ناصية الشارع حتى التف حولها من تصادف وجودهم، وقد أيقنوا أن أمرا جللا وراء مجيء السلاموني في سيارة أنفار خاصة سيدفع لسائقها جنيهين دفعة واحدة.

نزل السلاموني بوجه صارم يخطر في زيه الأسود بخطوات ضيقة بطيئة، تأكله نظرات الفضول الشغوفة. سارع الشيخ يونس ليحمل عنه الحقيبة فناوله إياها وقال ممازحا:

**"بس خد بالك دي فيها حاجة غالية قوي يا شيخ يونس؟"**

يكركر الشيخ يونس كركرته المتصلة ضاحكا ويرد وهو يتحسس الحقيبة ممعنا النظر عله يستطيع النفاذ إلى داخلها:

**مفيش أغلى منك يا محامي السلاموني.**

يلقي السلاموني بسلسلة مفاتيح مكتظة إلى أقرب الواقفين بثقة  
مبالغة: **افتح الباب يا واد!**

يتناول الواد سلسلة المفاتيح ويختبر بعضها حتى يتمكن من فتح القفل بأحدها ويرفع الباب الحديدي لأعلى. يشير السلاموني لمقعد خيرزان بالداخل فيجلبوه له سريعا، يضعه أمام بيت بطرسة المقابل لمكتبه حيث مساحة من الظل ممتدة أسفل الجدار. يلتف

حوله سكان الشارع ينتظرون حاور سيخرج أربنا من أurdانه وكرة من أنفه وشعلة نار من فمه. وبلا مقدمات طويلة يصعد السلاموني فوق المقعد الخيزراني مستندا بيده على كتف أحدهم، ودون أن يخلع "الروب" الأسود رغم حرارة الجو المتقدة، والشمس اللافتحة، وشلال من العرق يتدفق من مساماته، يصرخ عاليا:

"يا أهل خير الله الكرام، الحاضر يعلّم الغائب، كسبنا القضية واتملكنا الأرض.. وصدر الحكم بمشيئة ربنا. مبروووك يا أهل خير الله".

يلقي الشيخ يونس الحقيبة من يده ويسارع لفتح ماكينة الإذاعة بمسجد الغلام والراهب، معلنا الخبر. تلتقطه بقية المساجد والزوايا ففتتح الميكروفونات وتعيد بث الخبر. يتوافد السكان على الشارع البحري كما لم يفعلوا حتى حين بدأت المنظمة عملها بتوزيع المنح، يأتي الضبع ويضع السلاموني في جواره.

يقول السلاموني أنه كمحامي قديم متمرس، داس محاكم مصر طولا وعرضا كان يعرف خدعة الخصوم، فأعد مذكرة "فشر السنهوري باشا" المذكرة التي قرأ منها أستاذة المحامي الكبير الذي يعمل لديه، وما كان لقاضي أن يقرأ المذكرة دون أن يصدر الحكم لصالح من كتبها.

شرح السلاموني أن الخصوم، عليهم لعنة الله، ادعوا أن الأرض



ليست ملك الحكومة حتى يسري عليها ما يسري على الأراضي التي يسكنها أصحابها بوضع اليد، وبالتالي لا يحق لسكانها البقاء بها، ولأنه محامي عُقِرَ وعتيق، دماغه شغاله، استطاع أن يقنع المحكمة بمذكرته، أن وَضَعَ اليد سبق تاريخ تخصيص الأرض للشركة وبالتالي فإن التخصيص جاء تألياً فهو باطل، وما بني على باطل فهو باطل.

واعتبرت العزبة هذه الجملة مفتاح النصر، يرددها الجميع في كل مناسبة، حتى الصبية في لعبهم الكرة أمام البيوت استبدلوا كلمة باطل بكلمة "فاول وهاندز وكورنر" وغيرها، ودخلت الجملة قاموس خليل والشيخ يونس وأبوياسين ولم تخرج، إلى أن صارت على ألسنتهم في غير محلها، فجأة وبلا مقدمة مناسبة أو سبب ما يقول أحدهم:

**"ما بني على باطل فهو باطل".**

وشيناً فشينياً سقط لقب السلاموني من اسم الأستاذ المحامي ليصير مجدي باطل. نال العطايا ومُنِحَ الهدايا، وترك له الضبع قطعة أرض مربعة كان يحظر بنائها مجاورة لطاحونة المجذوب. لكن حال السلاموني لم يتغير. ظلَّ بنطاله واسعا يتدلى كاشفاً عن نصف مؤخرته. حقيبته تحت إبطه قابضاً عليها بكلتا يديه كأنها آخر ما يملك، نفس ذات الحقيبة الجلدية ذات اللون الغامض.

وما زال بمكتب المحاماة يساعد في كتابة المذكرات وطلبات التأجيل والمرافعات. وظلت ذكرى قضية خير الله مجدا يتجدد في ذاكرته ولا يبلى، يحرص على إيقاده في أذهان الناس كلما شعر أن جذوته تنطفئ وانتصاره يُنسى.

ثم تمر الأيام وينمحي مجدي السلاموني من ذاكرة العزبة، ويختفي لقبه مجدي باطل ويظهر لقب جديد هو "مجدي بطاطا" تزامنا مع بدء عرض مسلسل "حسن أرابيسك" وبزوغ نجم الأستاذ مصطفى بطاطا في حلقات المسلسل، فقد كان السلاموني أقرب شيها وسلوكا وحجما بالمحامي الطيب.

كان خبر انتهاء القضية وامتلاك الأرض شرارة بدء جديدة انطلق بعدها الهدم والبناء في خير الله. وأخذت البيوت ذات الطوابق المتعددة بالعواميد الخرسانية والشرفات العريضة في الظهور. شوارع تغيرت، وتعديلت مسارات، وانتفتت أخرى. اختفت المساحات التي ظلت تفصل بين البيوت منذ اعتمرت العزبة. لم يعد هناك بيت مهجور أو غير مكتمل البناء. وظلت خير الله تستقبل الوافدين الجدد وتصهرهم في بوتقتها بعد أن ظنّ ساكنوها أنها اكتفت بما وسعت. فُتحت دكاكين التهمت دكانة خليل. وانتشرت

محال ملابس وأحذية وخياطة ومكوجية ومطاعم. ونمت الزوايا والمساجد الصغيرة. وأقْرَت قواعد بناء جديدة لم يقرها أحد، فصار لأي صاحب بيتين متقابلين في أي شارع أن يصل بين بيتيه من الطابق الثاني تاركا ممرا سفليا للمشاة والعربات الصغيرة. وجاورت البيوت الجديدة العالية ذات البوابات الحديدية الكبيرة والشرفات الجبسية المنمقة البيوت القديمة ذات النصف طابق المسقوفة باليوص والخشب.

ولم تكن بيوت الشارع البحري بمنأى عن تقلبات خير الله. تجزأت بيوت الشارع مرة بعد مرة، وبيعت مساحات صغيرة للسكان الجدد. فلم يكن أمام صاحب البيت لكي يتمكن من بناء غرف جديدة لابن مقبل على الزواج، أو لبنات كبرن ولم يعد يصح نومهن بينهم، سوى أن يبيع جزء من البيت، ليبنى بثمنه الجزء الآخر. جميعهم فعلوا. جميعهم إلا صالحين. هي فقط لم تبغ من بيتها شبرا بعد بيع مكتب السلاموني، بل تمكنت وإخوتها من بناء غرفة ثالثة بما توفر من عمل ناجي وعلي وصالحين. خصصت الغرفة الجديدة لناجي ومحمد، بينما بقي علي ومصطفى في الغرفة القديمة. وصالحين سعيدة تضحك، وقد صارت قائمة على بيت به طالبان في جامعة وثالث في الثانوية ينظر إليها الجميع كعجيبة من العجائب، ولم تعد كما كانت "عندها دقة عبط" الجميع يحمدها لها دأبها، إلا صاحبات السرائر السوداء اللواتي استعرن حقد الشياطين

وأخلاق الأبالسة، كتلك الجارة المربربة التي جاءت مع زوجها تاجر الدجاج وسبعة أبناء ليسكنوا قطاعا في بيت الشيخ يونس. كانت جارة بدينة كبقرة ذلول تسقي الحرث. وزنانة كحشرة صيف لا تترك أحدا لحاله.

في آخر أيام رمضان طرقت باب صالحين ودخلت في ضوضائها لتقول إنها قررت أن تمنحها زكاة الفطر لأنها تربي أيتاما تجوز عليهم الزكاة. أخرجت ثمانية عشر جنيها قالت إنها حسبتهم وفقا لما أعلنت دار الإفتاء جنيهان عن كل رأس من رؤوس أولادها وزوجها أرغت وأربدت وحركت، كثيرا، يديها المسورتين بغوايش ذهبية بلا ذوق. جربانة، عمياء البصيرة، تقدر الإنسان بحافظة نفوده. أنجبت سبعة أجلاف هم العار الذي يتبرأ منه صاحب العقل الراجح. لا تراعي حرمة صوم، ولا فضل شهر كريم وأيام مفترجة يتقرب فيها العباد إلى رب العباد ليتقبل صالح الأعمال ويرزقهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

وأمسكت صالحين دموعها، لتقول بصوت مختنق إنها لا يجوز عليها زكاة لأن أخويها في الجامعة، أحدهما سيصير صحفيا والآخر محام أو قاضي، والصغيران أحدهما في ثانوي والآخر إعدادي، وقد يصيران طبيبين أو باشمهندسين. وأردفت بالسؤال عن حال أبنائها، وعن الكبير الذي يقضي فترة تجنيده جنديا بالأمن المركزي لثلاث سنوات، مؤكدة أنه لو كان متعلما لقضى سنة واحدة. تقول

إن إخوتها سيدخلون الجيش سنة واحدة، أو ثلاث سنوات لو دخلوا ضباطاً. تخرج البقرة الحرون غاضبة بسباب فاجر لم تسمعه صالحين في حقها عندما كانت عيلة ابنة خمسة عشر تجر أربعة صبيان قاصرين خلفها بلا حول ولا سند.

يسارع الجيران لفض الاشتباك ذي الطرف الأوحد. تحاول زوجة خليل وأم ياسين وبطرسه وحتى زوجة الشيخ رمضان. رمضان في محل البلياردو منع أجلافها الذين تكتلوا للفتك بصالحين دون أن يعرفوا سبب عراكها. وصالحين مذعورة، تتساءل لو أن واحداً، ناجي كان أو علي، حضر فاشتبك مع هؤلاء العجرا! عن كرامة ناجي إن تكاثروا عليه وأهانوه، عن مصير علي إن ألقى أحدهم في وجهه زجاجة مية نار أحالت وجهه قطعة لحم مهترنة. لن يقف معهما أحد ولن يرد عنهما سهماً. الجميع جبناء، كل بقدر.

أسمعتها جارتها البقرة كلاماً عيباً، عيباً جداً، خدشاً لحياء المومس وطعناً في شرف الخائن. وبطرسه المحبة تبكي بحرقة عاجزة عن صد الشتيمة، تحبسها في باب منزلها الحديدي بمؤخرتها العريضة، لكن ابناً من أبناء البقرة يتمكن من دفعها والوصول إلى صالحين في مدخل منزلها وينزع عنها طرحتها فينسدل شلالاً أسود لامع إلى أسفل سلسلة ظهرها، كدفقة مياه اندفعت بعد انهيار القناطر. تنفض الهوجة فجأة كما بدأت بعد مجيء صاحب البيت واعتذاره عن فعال البقرة وأبنائها.

وبعد صوم مقبول وإفطار مُر علقم، تقسم صالحين على المصحف الشريف، إن ناجي فعلها لأحرقت نفسها. تأخذ عليه عهدا بتجاهل ما وقع ونسيانه، طالما أن الرجل كان طيبا وحاسب زوجته وسب أبنائه. وتُشهد عليه حسن الكتبي الذي تعرف أن له مقدارا في قلبه. يعود ناجي بعد صلاة تراويح سريعة خلف الشيخ الضابط. يجلس خلف نافذة غرفته متربصا باب البيت المقابل، يراقب أقباص الدجاج المرصوصة حتى منتصف الشارع تعيق حركة الجميع، والروائح العطنة وزغب الريش المتطاير في كل اتجاه، وصالحين متوثبة على أطراف أصابعها تعرف تلك النظرة الشاردة المتحفزة في عينيه، وحسن الكتبي يذاكر درسا تاريخيا لمحمد. وما أن يرى ناجي ابن البقرة الذي نزع عن صالحين طرحتها يدخل بيته حتى يسارع بالخروج وإغلاق باب منزله بسلسلة حديدية حتى لا يتمكن أيهم من الخروج خلفه.

وظلّ ابن تاجر الدجاج يفرفر تحت ناجي طائرا مذبوحا، بعد أن انتشله من بين عائلته كفرخ دجاج شركسي هزيل وخرج به إلى بحر الشارع وأرقدته على بطنه وجلس فوقه. ولم تفلح محاولات البقرة وناسها في نزع ابنها من بين يدي ناجي حتى كاد يلفظ آخر أنفاسه. وبينما خرج أحدهم عار الصدر يزمرجر، حاملا سيفا يقصد جَزَّ رقبة ناجي وتخليص أخيه، وخرج سنية زاوية الشيخ عدوي لكن أحدا منهم لم يتدخل لفض المعركة، فجأة يجتاح الشارع،

عشرات يهرولون باتجاه العرّكة، أغلبهم غرباء وبعضهم مدمنون معروفون ومسجلون وجامعو قمامة وروبايكيا. يحملون السنج والمُدَى والشوم ومسدسات الصوت، يقودهم مصطفى. مصطفى الذي كان قبل سنوات قليلة يحصر بوله خائفا من دخول دورة المياه وحده ليلا، فتضطر صالحين لإرسال علي ليقف إلى جواره متأففا حتى ينتهي. مصطفى هو من استدعى هؤلاء ليجتاحوا الشارع البحري ويغلقوا مدخله على من فيه حتى لا يتمكن واحد من معارف البقرة وزوجها من دخوله. وحُسمت المعركة خلال دقائق، ولكي تنتهي تماما اضطرت البقرة لضرب ابنها بالشبشب أمام الجميع، واضطر زوجها لرفع أقفاص الدجاج من الشارع إلى داخل منزله الصغير لكف أذى رانحتها عن جيرانه. ثم رحل عن الشارع البحري وخير الله إلى منطقة السبع بنات.

هنالك علمت صالحين بخبر مصطفى، صغيرها الذي لم يصل بعد إلى الرابعة عشر. كانت تعلم أنه ليس كأخويه، كان عزباويا بحق، أكسبه دكان الأتاري الذي افتتحه سيد عظمة بمساعدة المنظمة ومحل البلياردو الذي فتحه الشيخ رمضان، معارف وأصدقاء وعلاقات خرجت عن شارعهم البحري الصغير إلى كل شارع بحري وقبلي في خير الله. صار واحدا منهم فاقدا، باستثناء أن أخويه أساتذة، وأنه ابن مدارس يتغيب عنها كثيرا ليشاركهم فعلا لو علمت بها صالحين لدفتته حيا.

\*\*\*

تنتهي توابع الزلزال ويجتاز مصطفى الإعدادية وتعود صالحين إلى  
غرفتها الصغيرة لتتابع في سلام وسكينة تلفازها الصغير وبرامجها  
المختارة. اخترنا لك، ونادي السينما، وعالم البحار، وعزيزتي حواء،  
وزووم. لكن زلزالا جديدا سرعان ما يضرب خير الله، زلزال قادم  
فوق بحر النيل من المنيب كالقضاء المستعجل.

\*\*\*



13

أبالسة تخاف الله

"يغضبون لله حتى لا يغضب الله عليهم"



حرق الأبالسة بيت الكتبي، والتهمت كُتْبُه شرارة نار غبية، مُفْرِغَةً  
طاقةً عضوية اختزنتها لقرون سحيقة لتصدرها طَقطقةً وفحياً  
وسحابة دخان داكنة أخرجت سكان الشارع البحري مذعورين  
بملايس نومهم. ولم يفلح خرطوم خليل الذي يستخدمه لرش المياه  
أمام دكانه، وجرادل ناجي وعجمي والشيخ يونس وأبوتيتو والشيخ  
رمضان وغيرهم في تهدئة النيران المتلهفة للورق الأصفر. بالكاد  
أخرجوا حسن الكتبي مختنفاً بكنزه ينازع من أجل حفنة أوراق اعتقد  
يوماً أنها ستؤرخ لعالم جديد.

لماذا لم تستجب يا عم حسن لنداءات السُنِّيَّة وتكف عن صلاة  
الأرضة واستقبال أصحاب البدع أيام الموالد، وقراءة مصحف  
فاطمة؟ الشباب غَضِبَ للدين، فلا تلوّمه. من لم يغضب لله غضب  
الله عليه، وأنت لا يرضيك أن يبتلينا الله بجهنم وبئس المصير،  
جهنم يا عم حسن نارها سبعون ضعف نار الدنيا، لها سبعون ألف  
زام، وعلى كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها.

"استهدى بالله يا عم حسن وطلع وساوس الشياطين من دماغك.. تب إلى الله الغفور الرحيم!" وادع لنا يا عم بالمغفرة وحسن الخوايتيم، فإنك ستكون أكثر منا حسنات وقبولا عند الله، بعد أن يحيل سيناتك حسنات.

لكن الشيطان يمسك بلسان الكتبي ويغلق قلبه عن إيمان الشيخ عدوي وعربي وحربي وأصحابهم، فيغلق قلبه ويمتنع عن التوبة النصوح. يقول إنه عايز كتبه التي صارت رمادا. كتبه غالية لا تثمن بمال. يقول إن منها ما لم يتبق من نسخه الأصلية إلا تلك التي أحرقوها. ويغالي فيقول إنه يعرف الدين أكثر منهم، يعرف جوهره وليبابه، لا قشرته وغطائه، إنه يستغفر الله ويغفر له لأنه متصل به متوحد، يقول إنه أحد أربعة أوتاد حافظين لجهات الأرض، وأحد سبعة نجباء حافظين للأقاليم السبعة، بل هو واحد من أربعين أبدال ساعين في قضاء حوائج الناس. يحذره أنه سيحتكم للميزان يوم الوزن، يتركونه وقد ظنوا أن الرجل انخبل. يتحولون داعين له بالشفاء والهداية.

\*\*\*

ثم نزلت المباحث وأخذت الشيخ عدوي ثم تركته. أخذت، عربي، الشيخ عربي، والشيخ حربي الحرامى، ثم أطلقتهم. وبدا عليهم بعد خروجهم آثار علفة ساخنة وحفلة تعذيب ثرية، قيل إنهم

خرجوا لأنه لا أثر لوجود أدلة ولا شهود، عادوا لزيارة الكتبي بعد تدهور صحته. زاروه في منزله المحترق واستسمحوه. قالوا إنهم غلطانون في حقه وأنهم سيعوضونه. قالوا إنهم لم يكونوا جميعا على رأي واحد، وأن الاختلاف نعمة وفضل، وأن الشيخ عدوي أراد أن ينصحه بالحكمة والموعظة الحسنة، لكن الشباب أخذته الحماسة وأقدموا على حرق منزله برعونة، لكنهم حرصوا على ألا يكون بداخله حي يُحاسبون على روحه في الآخرة.

وظل الكتبي طريح فراشه أشهر عديدة إلى أن انخرس تماما، لم يعد ينطق، وصار هيكلا عظيما ذا لون شاحب. وأخفت صالحين الخبر عن ناجي حتى لا تضطرب حياته هناك في بلاد الصين البعيدة وهي تعلم قدر الكتبي لدى أخيها البكر، هو في الصين يقضي سنته الدراسية الثالثة بكلية الألسن، وهناك ناسهم قصار، وعيونهم ضيقة لكن شعورهم منسدلة وناعمة ولا معة، ولا تريد أن تشغله بالمزيد. وأوصت إخوتها ألا يخبروه أيضا، مصطفى ومحمد وعلي. وكان عليّ يقضي أياما باكيا خرس الكتبي الذي لم يكف يوما عن تلقينه أسماء المؤلفات والمؤلفين وكتاب التراث، حتى صار عليّ نجما.

\*\*\*



14

اللي فينا فينا

سيد العبيط.. كل يوم يبيض





لم تنقض سنته الأولى بالجامعة حتى صار عليّ نجماً، ينادونه زملاؤه بـ"علوة"، تماماً كما فعل زملاء المطعم ومحل العصير من قبل. حاول اقتصار صداقاته في عدد محدود، وقيد سلوكه بالأصدقاء بما لا يؤدي في النهاية إلى زيارات منزلية متبادلة وتعارف عن قرب. بادل رباب عبيد إبراهيم نظرات باسمة وكلمات تقليدية خجلى خرجت راقصة على أحبال صوتية مضطربة، وبما لا يؤدي في النهاية إلى تصريح علني بحب قد يستلزم في مرحلة ما "عزومة" على علبة "بيبيسي كان" أو قالب شيكولاتة "جيرسي" لا يفارق أصابعها الناعمة. خاصة بعد أن انقطعت خطابات ذلك الرجل الأشقر "سوتشيك" الشهرية التي ظلت تأتيه مصحوبة بورقة خضراء من فصيلة الدولار، دون أية أنباء عن صاحبها. بالكاد أصبح يستطيع تدبير طقم ملابس مناسبة يتبادلها مع تيتو الذي كان قد التحق بالجامعة في نفس سنته. إلى أن تعرّف بابن حلاق جديد يسكن شارعاً قريباً ويملك ثلاثة قمصان أحدها لاكوست مقلد يناسب عليّ تماماً، يبدو فيه عليّ رياضياً وسيما من أبطال مسلسلات القناة

الثانية التي تحرص صالحين على متابعتها، قمصان جديدة يشتريها له أبوه الحلاق على مدار العام، كانت دفنا أذاب جليد علاقة علي وتيتو به وقربته إليهما، وقد ابتعدا عنه فزعا من شعر جسده الذي يتدلى من أردانه وياقة قميصه، كرجل بالغ مشعر، وعرقه المتصبب صيفا وشتاء. بينما حال طول قامة ناجي دون استعارة علي لقميص كارتيه كاروهات اشتراه ناجي من سوق الجمعة "سكاند هاند" مع حذاء أديداس يوحيان أن صاحبهما ابن ناس.

وعندما أجرت الجامعة مسابقة للقصة لشارك علي بقصته القصيرة "جرو صغير في الحديقة الخلفية" لتفوز بجائزة أولى، وتشارك بها الجامعة لتنال أيضا جائزة أولى بين الجامعات كافة وتقوم بتكريمه، فيصير نجما وضاء في جامعته، تطلب وده البنات، واحدة ترغب في تعليمها الكتابة، وأخرى تطلب رأيه في خواطر تقوم بتدوينها، وثالثة تطلب حوارا صحفيا لنشره في مطبوعة الجامعة، وأخرى تكتفي بتسبيل جفنيها كلما اعترضت عينها مسار نظره.

بمرور الوقت يسير في ثلة من أصدقائه بعد انتهاء المحاضرات عبر كوبري الجامعة إلى القصر العيني إلى مترو السيدة، وفي إحدى المرات يرى علي سيد العبيط، أحد سكان العزبة، متسولا لدى القصر العيني "الفرنساوي" ويراه الأخير فيعدو خلفه مناديا "ناكي.. يا ناكي" فتصيب علي حالة دعر لا يعرف سببها، لكنه يحمده الله

أنها جاءت في سيد العبيط الذي ناداه باسم أخيه فلم يلتفت أي من زملائه لنداءات العبيط، وانسترت الفضيحة. لكن علي يتذكر عندما دفع عن سيد العبيط يوما صغار الشارع البحري وهم يعدون خلفه يغنون:

"سيد العبيط.. كل يوم يبيض.. يدي البيضة لأمه.. عمله أرنيط"

ليته تركهم يقذفونه بحجر يفتح نافوخه ويعجل بأجله فلا يعترض طريق جامعته. ليس إلا عبيط لا يعرفون عنه سوى عمله مسحراتي في رمضان يدور على بيوتهم وينادي أسماء السكان واحدا واحدا قبل أن ينتصف الليل. ولا يمضي قبل أن يؤكد له المُنادي أنه قد استيقظ والحمد لله.

بعد يومين تتكرر مأساته. هذه المرة جارتهم "أم صابر"، غلبانة، حبسوا ابنها جراء مشاجرة في موقف سيارات الأنفار عند مطلع الزهراء، وما زالت تخدم في بيوت دار السلام تمسح سُلمًا، أو تغسل سجادًا، أو تقضي مصلحة لأحدهم. تراه وسط زملائه عند سور "قصر محمد علي" في المنيل، فتتسمر محدقة كمن التقت غائبا من بقية أهلها عائدا من بلاد برة "إزيك يا علييي.. سلملي على صالحين".

"الله لا يسلمك يا شيخة" أنتِ ترينها كل صباح ولا تلقين عليها سلاما ولو فاترا، فلماذا أوحشتك الآن؟ وعندما يسأل زملاؤه

وقد استشعروا خجلا في ملامحه عن هذه المرأة التي تعرفه وتعرف صالحين التي لا يعرفونها، يقول إنها جارتهم، وأن المنطقة التي يسكنها "شعبية" سيئة، وأن صالحين أخته التي لا تخالط هؤلاء. يقرر تغيير مسار عودته، سيتجه إلى ميدان الجيزة سيرا ليستقل "ميكروباص" بخمسين قرشا إلى كوبري دار السلام ومنه إلى العزبة عبر مطلع إسطنبول عنتري. لكنه سرعان ما يندم، فلم يكن ماسحو الأحذية وباعة المناديل ومناشف السيارات في الميدان وأسفل كوبري الجيزة سوى من مناطق أربع، مصر القديمة، المنشية، الجيارة، خير الله. والذي نادى اسمه هذه المرة كان طفلا في السادسة لم يكن علي يعرفه، كان "باجيو" ابن سردوح سريح نظرة. ارتدى قبعة رياضية ونظارة شمسية وسار متخفيا.

وعندما شاهدته رباب عبيد إبراهيم عند فرشة الكتب، ليعود باكيا في حجر صالحين، ذهبت إليه في اليوم التالي باسمه الثغر متلألئة كشعاع نيون ذي ألوان، قالت، وكانت تلك أول محادثة بينهما:

"إزيك يا علي.. أنا زعلانة منك.. من ساعة ماخذت الجائزة واحنا مش بنشوفك في المحاضرات.."

وحملته أرجوحة عالية فرأى مدينة نور كبيرة زاهية مزدانة بألوان وروائح أزهار ونباتات ومذاق شيكولاتة "جيرسي" فوق طرف لسانه وصوت منير يغني "يا بنت يأم المريلة كحلي" وكتب

علي شعرا، كتب قصيدةً عنوانها "بكل هدوء.. أحبك".

\*\*\*

"البروفيسور زينج ياو" يقول لناجي إنه ذكي جدا وسيكون متفوقا، فقط إن واطب على دراسته وكف عن التغيب عن محاضراته لمصاحبة البنات. قالها بالصينية وفهمها ناجي. ووعده ناجي بالصينية أيضا أن يحاول، بينما كان قليل من زملائه غير مصدقين وعده، يعلمون أنه "مش بتاع بنات" وأنه كثير التغيب لأنه ينتسب إلى كلية أخرى في جامعة أخرى يصر أن يحصل على شهادتها، لو عد قطعته لأخته صالحين.

ولم يكشف ناجي للبروفيسور "ياو" عن سبب تكرار غيابه. كان التسجيل في جامعتين بشهادتي ثانوية يعتبر مخالفة. وكان ناجي طالبا زائرا لكلية الحقوق، كما كان زائرا لمدرسته في مرحلتيه الأساسية والثانوية. لا يحضر محاضرات سوى تلك التي تُقيد في كشوف الحضور كجزء من تقييم أعمال السنة، ولم يعان سوى في عدم تمكنه من الحصول على الكتب والملازم التي يعلن عنها الأساتذة، لم يكن يحتاج، في الحقيقة، لكي يجتاز امتحانا سوى ثلاثة أيام متواصلة يستذكر خلالها المنهج كاملا.

لم يكن ذا ذاكرة قوية كأخيه علي ليختار دراسة لغة خاصة كذلك اللغة الآسيوية المعقدة التي ينطقها أصحابها بطرق مختلفة رغم

وحدة معانيها. الصينية 汉语/漢語 لغة مقاطع رموز وكلمات بلا أبجدية، لا تميز نهايات كلماتها بين أزمنة الفعل أو تميز بين المؤنث والمذكر أو المفرد والجمع. سيضطر لكتابتها من أعلى لأسفل أو من اليسار لليمين. أخبر صالحين قبل أن يلتحق بقسم الصينية أن المتحدثين بهذه اللغة ربع سكان العالم، مليار ونصف، وأن بلادهم صارت تينياً يستدين منه ربع العالم، بينما النصف الأخير يهرول للحاق بها.

وكان دافعه الأول للالتحاق بهذا القسم، رغم نوبة الضحك التي انتابت صالحين عندما أخبرها بقراره، أنه القسم الوحيد الذي يبتعث طلابه في الفرقة الثالثة إلى بكين، وخلال فترة الابتعاث يحصل كل منهم على 300 دولار شهرياً كمنحة دراسية، وبضربهم في ثلاثة وستين قرشاً سيتجاوز الناتج ألف جنيه. ألف جنيه شهرياً قد تغير مسار حياتهم فصلياً، تماماً كما حدث يوم باعوا غرفة مطلة على بيت بطرسة للأستاذ مجدي السلاموني الشهير بمجدي بطاطا. تلك الفترة التي عاشوا خلالها مطمئنين إلى لقمة العيش وأكلوا موزاً وأوراك دجاج أياماً متتالية. سيعود ناجي حينئذ ناجحاً، متحدثاً اللهجة المندارينية الصينية بطلاقة.

\*\*\*

الدراسة في جامعتين، والعمل في ورش الرخام يقتاتان من ذهنه وجسده، لكن ناجي طويل القامة يعود ليلاً بحقيبة بلاستيكية سوداء بها خبز بلدي أو كيس لبن أو أرغفة فينو بالسّمسم كرباً

أسرة يعمل بمصلحة حكومية. يرفع كفه ليوزع التحيات في طريق عودته إلى البيت، ولا تشكو له صالحين عصيان محمد الذي تدلل على يدها حتى نطق ولم يسكت، ومصطفى الذي استلبته كرة القدم في فريق العزبة بديلا لعلي وتيتو بعد انشغالهما بالجامعة. وكلاهما - محمد ومصطفى - يستدعيهما سيد عضمة والشيخ رمضان عدة ساعات يوميا للعمل منافسين في لعبتي البلياردو والأتاري للاعبين آخرين، باعتبارهما وحدهما القادرين على هزيمة اللاعبين الآخرين والزامهم بدفع ساعات اللعب مقابل نسبة صغيرة يحصلان عليها. لم تشك صالحين لناجي أخويها كما لم ترغب في ضربهما وقد خط زغب أسود صغير خطين صغيرين تحت أنفيهما يعلنان عن رجولة بازغة. وناجي لم يسبق أن ضرب أخا أو سبه، فقط يظهر غضبا مكبوتا، وتغمق بشرته وتشتعل أذناه احمرارا وترمي عيناه بشرر، إلى أن يفلح أحدهم في تحويل غضبته لضحكة يحاول كبتها فلا يستطيع فتخرج مجلجلة ترج سماواتهم الخفيضة بلون لبني رائق، فنقول صالحين:

"جاك خيبة.. بيضحكوك ويضحكو عليك..؟ الواحد فيهم عايز يتلب وانت أولهم". حتى عندما يعود من بلاد القصار ذوي العيون الضيقة، تقول ضاحكة وقد انتظرت عودته أجنيا يتحدث بلكنة لا يفهمونها:

"اللي فينا فينا.. ولو حجينا وجينا".

\*\*\*





15

ولو ألواح خشب..

صبي ظلت تطارده بفردة شبيشها حتى صار أستاذًا



"واد يا سييين.. اطلع شوف، بيقلو بتوع الكوبري عند قهوة  
مجاهد". أم يا سين

"أجفاان.. بتوع الكوبري علّمو على بيوت النجار وأبوهاشم  
والبت صباح بتاعت العفشة" زوجة عظمة.

"تعا يا صالحين نتفرج ع الكوبري عند الساحل" هدى.

"والله ما هايطلع العزبة.. غلباان" الشيخ يونس.

"مسيرها توصل لبر.. ولو ألواح خشب" صالحين

\*\*\*

لم يكن أقل من زلزال، كذلك الذي ضرب البلاد في بداية  
التسعينات لكنه لم يوقع عشة فراخ واحدة في خيرالله. هذه  
المرّة سيكون زلزالا سيوقع آلاف البيوت صرعى تحت عجلات  
بلدوزر

\*\*\*

فجأة، عبر الدائري نيل الساحل، عريضا كشاطئ بحر مرتفع. عريض جدا، ليس كالطرق التي يعرفونها، قادم من المنيب إلى شارع البحر الأعظم إلى كورنيش المعادي إلى أثر النبي ليتوقف زحفه قبل عبور خط المترو. تنتصب عواميد خرسانية ضخمة مرتفعة قريبا من موقف باصات "أثر النبي" كمخالب حادة تتحفز لاصطياد فريسة. لم يفصل بينها وبين صخرة العزبة الشاهقة سوى شريط مترو الزهراء وعدة بيوت تستدفئ بحضن الصخور. يراها العابرون من سكان العزبة فيطيلون النظر. يتساءلون حول مساره المحتمل. ويصير المسار شاغلهم في جلساتهم المسائية أمام العتبات وفي غرفهم المغلقة داخل البيوت. كيف يمكن لهذا الجسر أن يصعد إلى خيرالله بزاوية حادة إلى أعلى دون أن ينزلق السائرون على ظهره راكبين كانوا أو مترجلين.

احتمال أن يحفروا له مسارا في بطن الصخر ضئيلة، سيحتاجون إلى آلاف الحجارين كناجتي، وسنوات لاجتياز خيرالله عبورا إلى الجهة الأخرى.

ويفتى الشيخ يونس أن الدائري لن يصعد خيرالله، أبدا، والله العظيم، سيقفّرع شمالا ويمينا عند أثر النبي ليذهب إلى مصر القديمة يسارا وشارع مصر حلوان الزراعي يمينا.

"إزاي يا شيخ يونس.. ده يادوبك واقف مفرشح على صخرة

الزهراء" يقول خليل. "أمال اللي دايرين يعلموا على البيوت ويكتبوا أسماينا دول مين؟"

يرجح الشيخ يونس أن من يدورون على البيوت بفرشاة ملونة يسجلون بها فوق الأبواب أرقاما ورموزا لا يتبعون الحكومة ولا علاقة لهم بالدائري، بل هم تابعون للمنظمة، لكن الأستاذ عجمي ينفي، مؤكدا أنهم تابعون للحكومة ولا غيرها. يجهرون بالدعاء أن يقيهم الله شر الدائري والحكومة والبنطوزر وفي سرائرهم دعوات مكبوتة أن يعبر الدائري خيرالله واسعا مفلطحا من أمام منزله دون أن يمسه بهدم أو تكسير، يُمنون أنفسهم بإطالة جديدة لبيوتهم على طريق يرى العالم، ويراهم منه العالم.

فقط الضبع هو من كان لديه الخبر. ومفاده أن الدائري سيقسم خيرالله من منتصفها في خط مستقيم، أما الشوارع والبيوت التي ستختفي تحت شريطه فلم يكن له أو لغيره بها علم. أخبره الدمام، عضو مجلس الشعب، أنه سيعبر من أثر النبي إلى القطامية والقاهرة الجديدة عبر خيرالله، فاشترى الضبع عدة بيوت تطل على شارع الصيانة

وعندما بدأت جرّافات عملاقة تأكل طرف العزبة المطل على شريط المترو والمقابل للكوبري صخورا جبيرية أرهقتها مياه الصرف المتسرّبة من الطرنشات ودورات المياه، فتفتتت سريعا ككتلة ملح

جافة دهستها عجلات مطحنة، أدرك العزباوية أن "البنطوزر" هذه المرة لا مفر داخل العزبة داخلها، ولو على أجسادهم واحدا واحدا. ليس كما فعل من قبل حين انسحب أمامهم بعدما خرجوا جميعا مدافعين عن مأواهم بأنابيب الغاز والشوم وأدوات الطبخ، فردوا الغزو، وعاشوا عاليا، قريبا من سماء القاهرة.

هذه المرة، تهيأ العزباوية لبلدوزرات ستدك بيوتهم تحت روافعها وعجلات جرافات عملاقة ستكمل طريقها ولو تخضبت في سبيل ذلك بدمانهم. هذه المرة هم قليلون، قليلون جدا، هم فقط قاطنو شارع الصيانة وأجزاء من شوارع أخرى تتفرع عنه مثل الشارع البحري.

مهندسون وعمال وسائقو مركبات ثقيلة بمعدات المسح والخوذات البلاستيكية يعتلون الأسطح ويجوبون الشوارع بثقة، ينصبون معداتهم كيفما اتفق، دون أن يجيب أحدهم بكلمة تطفئ حرقه المحرقين انتظارا. موظفون حكوميون يبدؤون بطرق المنازل للسؤال عن سكانها وتدوين أسمائهم في دفاترهم. دون أن يعترضهم أي من رجال الضبع. ينتهون في أيام معدودة من ترقية آلاف المنازل والبيوت حتى يصلوا إلى الشارع البحري، ولا يستجيب أي منهم لتوسلات الأهالي بتفسير تلك العلامات التي يطبعونها واضحة فوق جدران بيوتهم كمساكن الموبوتيين بداء الكوليرا.

وتسأل صالحين عليّ "أمال دخلتلك كلية الإعلام ليه؟" وتدفعه

لأن يقوم بدوره كصحفي مستقبلي لا ينتظر حتى يأتيه الخبر وإنما يطارده حتى يحصل عليه، تماما كعبد الحليم والنايلسي في فيلمها المفضل "يوم من عمري" يحمل عليّ دفترا ورقيا صغيرا وقلما وحقيبة كتف جلدية، ويقرّر أن يلعب دوره كما ينبغي، صحفيا لم يبرح بعد سنته الأولى في كلية الإعلام. يجري مقابلات بالمهندسين بالموقع فيُشرِّعون أوراق دفاترهم أمامه ويُملون عليه أسمائهم كاملة ويمدونه بصور شخصية حديثة لتزين صفحات جريدة وهمية يحررها عليّ في خياله البراح.

وأعد تقريرا ذكر فيه عدد العمال المشاركين والتكلفة الإجمالية لهذه المرحلة من المشروع، والشركات المنفذة والمساحات وخط السير وهامش الطريق على الجانبين، أول ما ذكره أنه لن يكون جسرا كما يطلق عليه الجميع، بل طريقا مرتفعا، سيزيد ارتفاعه في بعض القطاعات عن خمسة عشر مترا، وهو ما سيجعل بيوت العزبة المطلّة على جانبيه تواجه جدارا جرسانيا مصمتا، وليس على بحر الطريق ذاته، عدا الطابق الثالث أو الرابع فما فوقه، هذه سيمكنها أن ترى سيارات الملاكي والنقل المسرعة على الطريق في كلا الاتجاهين. وقال عليّ لهؤلاء الذين تجمعوا أمام منزله وبينهم رجال بشوارب كثة تصلح أعشاشا للعصافير، إن البيوت التي تحمل علامات زرقاء سيتم هدمها بالكامل أما بيوت العلامات الصفراء فإن أجزاء منها هي التي ستزال. بيوت ستصبح على

شكل ثلاثي أضلاع وأخرى مربعات غير منتظمة. نعم، الحكومة تعترف بامتلاكهم الأرض بموجب حكم قضائي أصدرته المحكمة وأعطاهم السلاموني نسخة منه، لكن القانون يتيح لها أيضا نزع ملكيتهم للمنفعة العامة، مقابل تعويضات، وهي وحدها من ستحدد قيمتها.

يُسال علي:

**"هايدفعوا كام يا أستاذ علي؟"**

تجهش صالحين بالبكاء للمرة أولى منذ زمن لا تذكر تاريخه، تنتحي إلى داخل غرفتها وتترك دموعا رائقة تنهمر كجدول ينبع من عين فياضة. تبكي وقد صار علي أستاذا. فوجئت. لكن أحدا غيرها لم يفاجئه اللقب الجديد لعلي الأستاذ، هنالك اندفع الزمن وتكوم في حجرها مشاهد متوالية لصبي شقي ظلت تطارده بفردة حدانها لتحذ خريطة انتشاره في شوارع خير الله وحواريها، أملا أن يصير يوما أستاذا. وقد صار. وهي سيتدود إليها الناس، كل الناس، خاصة أولئك الذين تأنسهم بنات في سن الزواج يبحثن عن أبناء الحلال. ومن لن يتودد فإنه سيحمل لها احتراما كأخت كبرى لأساتذة لم تنجب كمثلهم خير الله.

يجيب علي عن سؤال التعويض فيقول إن ألف جنيه ستصرف عن كل غرفة من غرف البيت المكتملة، سيصرفها صاحب البيت



أو المستأجر الذي يثبت أنه يقيم لديه. وستصرف كل أسرة صغيرة ألفي جنيه كاملة. سواء كان لديها أطفال أم لا.

بحسبونها سريعا فيرون أنها "مش جايبة همها". يهيج السكان لضالة المبلغ، ويهددون، مَنْ سيتقدم شبرا في خير الله سيردمونه في تربتها الجافة حيا بعينين مفتوحتين، ولو كان وزير الشركة ذات نفسه. تُسرق معدات ثقيلة جلبتها شركة المقاولات بعد تثبيت خفراء عينتهم نفس الشركة على حراستها في مناوبات متواصلة وأعطتهم أسلحة بلا ذخيرة لا يجيدون استخدامها. سرقت الأسلحة أيضا. وحُرقت معدات أخرى استعصت على السرقة. وتكرّر نزول بوكس الشرطة لجمع عدة رؤوس وحشرها في صندوق السيارة الخلفي لإغلاق القضايا سريعا سريعا.

وتحرّر الشركة محضر انتحال شخصية ضد واحد من سكان العزبة، شاب انتحل شخصية صحفي بإحدى الجرائد الحكومية، شاب صغير أسمر نحيل أتقن الدور، وكان يحمل دفترًا وقلمًا وكاميرا صغيرة. هو من تسبّب في ثورة سكان البيوت المرقمة بالعلامات الصفراء والزرقاء بإشاعة أخبار كاذبة، تحرر الشركة محضرا رسميا وتطالب بالتعويض عما لحقها من أضرار ويدلي محاموها بأوصاف المتهم، لكن اسمه يظل مجهولا.

ثم يمر يومان فقط ليجلب عليّ جريدة تابعة لحزب يساري

معارض تحمل صفتان منها تحقيقا يتوسطه مربع صغير بداخله اسم الكاتب. ويتم حفظ المحضر بعد ليالي سوداء قضتها صالحين تلطم صدغيها.

من جديد، يدخل مجدي السلاموني مسجد الغلام والراهب بعد صلاة جمعة، هذه المرة بكرش متدلي خارج حزام بنطلونه، وصلح يضرب مقدمة رأسه. يُسمي الله ويصلي على النبي، وأما بعد، فإنه قرّر رفع قضية على الحكومة لرفع قيمة التعويضات حيث أن القانون يقول ذلك. مؤكدا أن قرار الحكومة بدفع ألف جنيه تعويضا عن الغرفة الواحدة هو قرار باطل، وما بني على باطل فهو باطل. فتنتطق الزغاريد والتكبيرات استبشارا بكلمات النصر!

في اليوم التالي يُبلّغ السكان المتضررون رسميا برفع قيمة التعويضات إلى خمسة آلاف عن كل غرفة وثلاثة إضافية لكل أسرة من سكان كل منزل. ويعاود المهندسون عملهم، والموظفون يجوبون البيوت يدونون سكان المنازل ومساحاتها ويرسمون في أوراق شفافة التقسيم الداخلي لكل منها.

وحين يمرون ببيت بطرسة، وبعد دقائق قليلة يخرجون هرولة ويغيبون جميعا عن الشارع البحري ليفاجئ سكانه بعد ساعات قليلة بسيارة بوكس شرطة وأفراد يرتدون زيا مدنيا مدججين بالسلاح، يقبضون على بطرسة وابنها صلاح ويضعون شمعا أحمر فوق بابها

ويحذرون الجيران من فضّه. وتغيب بطرسة ولا تجدي محاولات صالحين وبعض الجيران في العثور عليها في الاقسام والمديريات حتى تعود بعد أيام لتفرض شمع بيّتها، وتشكو لصالحين وجع نومها على بلاط الحبس أياما لم يدخل جوفها زاد، واستجوابات طويلة، وتهديد بقطع الرقبة إن عاودت الحفر هي أو أبنائها، أو إن هي أخبرت أحدا بما عثرت عليه تحت الأرض. وعندما تسأل صالحين عن صلاح الذي أخذوه معها ورجعت بدونه، تقول بطرسة: "أخذه!"

ثم يخرج صلاح مخطوفا من ذاكرة خيرالله بعد سنين طويلة ظل حبيسا خلالها تحت ترابها باحثا عن خبيثة أرشده إليها "معزم" من البدرشين كان قد جلبه لهذا الغرض. وحين عثر أخيرا على الخبيثة تصبح سببا في تغييبه لسنوات أخرى خلف أسوار عالية يحرسها جنود ذوو أسلحة رشاشة، لا يسمح لأحد بزيارته. ذلك أنّ أحدا لا يريد أن تصبح خيرالله مزارا تاريخيا من أجل حفنة تراب وجدارين قديمين بناهما ميت من مئات السنين دون أن يعلم أن أرضه ستكون معبرا لطريق دولي سيربط شرق العاصمة بغربها مختصرا المسافات نحو مستقبل مزدهر، ولم يعلم بأنها ستكون موطننا لآلاف البشر الذين يستلزم تهجيرهم، لحراسة بقاياها السخيفة، تعويضات لا تستطيع البلاد تحمّلها في الوقت الراهن.

يقترّب موظفو التسجيلات من طاحونة المجدوب بعد أن ينتهوا من بيوت الشارع البحري والشوارع المجاورة. يحاولون دخولها، فيقف المجدوب في وجوههم متصدّيا برائحة مميتة لجثة لم تستحم من عشرات السنين، متكنا على عصاه الطويلة المغروسة بالأرض كعمود خيمة مكين، مهّدا بشج رأس من سيتجرأ على اقتحامها. يتراجعون تحت إلحاح الجيران الذين يحثونهم على الابتعاد عن الطاحونة المسكونة منذ خلقت الخليقة، ينصحونهم صادقين أن المجدوب لعين لا يقف أمامه إنسي إلا أصابه المس. فيما يقول الموظفون بأن الطاحونة ستدخل كردون الهدم، وتصير ركاما على رأس من يسكنها ولو جنيا من نار ونور.

ينصرفون، وبعد انصرافهم يقسم الشيخ يونس أنه رأى جنّا يسقط من السماء فوق طاحونة المجدوب، في أحد الرمضانات الصيفية عند سكنه العزبة قبل سنين طويلة، كان الجن سهما شق الغمام ثم انطفاً عند وصوله، قال إنه الجن الذي يصعد فوق إخوانه ليتصنّت على ما يمليه الله تعالى على الملائكة بشأن أقدار العباد، حتى يستطيع إبلاغ المستقبل إلى أوليائه من العرافين والكهنة والشعراء وقارئي الطالع.

لم يكن الشيخ يونس كاذبا. رأى الرجل شهابا متقدّا في سماء داكنة يختفي حين يقترّب من الأرض، لكنه لم يكن جنيا، كان حجرا أو نيزكا جاتلا في الفضاء بلا هدى، عندما اخترق الغلاف الجوي

المحمل بالأوكسجين اشتعل وظل يتجه للأرض بقانون الجاذبية ولم يصل للأرض كغيره من الأحجار التي قطعت نفس الرحلة منذ ملايين السنين.

\*\*\*

في جوف الليل تصاعد أسنة لهب ودخان كثيف يغطي دائرة واسعة من سماء المفارق والشوارع القريبة، عواميد دخان متصلة تخرج من فوهة طاحونة المجذوب، ورائحة نفاذة استطاع بعضهم تمييزها بسهولة، رائحة عبقت الأرجاء. يتداعى الناس إلى الطاحونة من كافة الجهات، لكن أحدا منهم لا يحاول المبادرة إلى إطفاء الحريق المشتعل داخلها. يقول أبو ياسين إنها أمور غيبية لا يصح لهم أن يباشروها أو يتدخلوا في تفاصيلها. بينما يقول الشيخ يونس أن الروائح التي تسللت إلى أنوفهم وأصابت بعضهم بالسعال هي رائحة احتراق جان. مؤكدا أن الجنى الذي يسخره أمين هو جنى عاص ومن حق المجذوب أن يعاقبه بالحرق ليجبره على الطاعة ليكون عبرة لغيره.

بينما كان زكريا وحري و عماد عضمة وسردوح وغيرهم يزحفون على أربع متتبعين مصدر الرائحة كبرادة حديد تتطاير باتجاه مغناطيس كهربائي هائل.

أخذت الرائحة تسري في شرايينهم مجرى الدم، وبعد أن أصابت بعضهم صغارا وكبارا بالسعال الحاد والقيء صاروا يستنشقونها بإمعان وتلذذ. وسقط بعضهم يتصببون عرقا، ولم تقوَ أقدام آخرين على الوقوف حاملة أجسادهم مستقيمة فساروا يتساندوا كقروء مسنة، وضحكات هيسيرية تملأ أصداقهم، يهزون بأحاديث غير مفهومة كمرضى في مرحلة إفاقة بعد عملية جراحية استوجبت تخديرا كليا. يمضى الشيخ يونس إلى المسجد لرفع أذان ما بين العشاء والفجر، يجد الشيخ الضابط فيسأله مقهقهما بضحكته المعروفة "إزيك يا حاصل؟" قالها الشيخ يونس قبل أن يدير له ظهره متجها إلى ماكينة الميكروفون ليرفع أذانا مختصرا في ندائين، أيقظ بقية النائمين في سبات سحيق.

يهتاج الشيخ الضابط ويعدو خلف الشيخ يونس محاولا الفتك به بينما يعدو أمامه الأخير متقافزا داخل المسجد كطفل غرّ، دون أن يتوقف ضحكه المكرر، يتبادلان سبابا فاحشا يتيقن من خلاله الشيخ الضابط أن خير الله تعلم منذ سنوات إنه "لا ظابط ولا يحزنون"، وأنهم "سايبينه يفسي على كيفه" كما قال يونس.

ودخل الشيخ عربي عضمة والشيخ حربي الحرامي وبعض السنية لأداء صلاة ما دون إقامة وربما بلا وضوء يترنحون كالسكارى. بينما كان الشارع البحري والشوارع القريبة من طاحونة المجذوب

تعج بمشاهد عبثية لم يتذكر أي من أبطالها تفاصيلها في اليوم التالي، لكن أبرزها كان خروج زوجة سردوح السريع مولولة إلى شونة نظرة وقد ضبطت زوجها عاريا مع أجفان. بينما كان زوج الأخيرة يحاول الفصل بينهما في شهامة.

انسطل السكان تحت تأثير كميات مهولة من الحشيش المحترق عمدا داخل الطاحونة.

وفي ساعات النهار الأولى جاء مهندسو المسح تصحبهم قوة شرطية مسلحة لاقتحامها ولم يكن بها أثر لا للمجذوب أو لصناديقه المغلقة فقط بقايا حريق ليلي خلف سحبًا كثيفة ثقيلة على الرياح، الحريق الذي أشعل أدمغتهم منذ أمس بكيف أصلى استوطن خياشيمهم.

كانت جدران الطاحونة سوداء قاتمة وأكداس من الرماد الناعم تملأ الأرضية. ولم يعثر للمجذوب بعدها على أثر، أي أثر. ولم يكن هناك من يهتم بالبحث عنه، وسارع كل واحد منهم بنسج حكاية تليق بحياة الرجل. بينما كان رجال الضبع منشغلين بحشو جثته بأكياس المخدرات التي لم يحرقوها، بعد أن أخرجوا أحشائه كاملةً وغسلوا جدران بطنه الداخلية، واستبدلوا ما بداخلها بأكياس البودرة وأعادوا إغلاقها بسلك طبي لتبدو عملية جراحية فاشلة، إلى أن جاءت سيارة تحمل لوحة "تحت الطلب" حشروا بداخلها

صندوق الميت ونقلوا الجثة إلى المرج. الحيلة التي ابتكرها الضبع الكبير ولجأ إليها ابنه عظيم في كل مرة كان يغيب فيها عن خير الله لتشجيع ميت في إحدى المحافظات شمالاً أو جنوباً.

\*\*\*

يكتب عماد عضمة على بنت جالامون الفرارجي، ويكتب أشرف الكهربائي على هدى. وتعود ضُحى بنت أحمد الفران، صاحبة البحة المتطلبة من سكنها بعزبة النخل لتدخل في ذمة ابن أبوشعراوي صاحب الفران، ويتفق أبوياسين على تزويج ابنه بابنة أوتيتو ثم يتراجعان بعد تهديد البنت بحرق نفسها. كانت تحب ناجي وتنتظره طويلاً حتى يعود من بلاد القصار.

زيجات أخرى سريعة انعقدت سوريا لنيل التعويض الذي خصصته الحكومة للأسر المتضررة بالدائري، بعضها استمر وأغلبها خرج بالمعروف أو بالفضيحة الحية، كزيجة عماد عضمة ببنت جالامون الفرارجي، بعد أن أصرّ الفرارجي على اقتسام مبلغ الثلاثة آلاف جنيه بحسب الاتفاق، بينما أراد عماد عضمة تحقيق حلم تعبئة شريطه الغنائي الأول بالمبلغ كاملاً، وانهار الحلم من جديد. بينما تخرج زوجته لتعلن أنها مازالت بقشرتها، عذراء،

لم يمسهام مومع، بعدما



## "البانجو هد حيله".

\*\*\*

ثم سار عوا جميعا باستكمال بناء بيوتهم رهينة الهدم. المساحات الخالية أقاموا بها غرفا جديدة ذات مساحات ضيقة لا تكفي كنبه من الخشب، والبيوت التي لم يكن بها مساحات خالية اكتفى أصحابها بتقسيم الغرف القديمة بقواطع أسمنتية أو خشبية أو من الصفيح. وعندما بدأ المندوبون فحص المنازل لاحتساب قيمة التعويض بحسب عدد الغرف، فوجئوا بما فعله أصحابها، فتشكلت لجنة لفرز الأبنية قديمها وجديدها.

\*\*\*



16

يا قلة الصبر...

"كل بحر له شاطئ"



فشلت حيلة عماد عضمة في الحصول على المبلغ بزيجة سريعة لزوم التعويض، وخدمت آمال الشهرة والنجومية مرة جديدة كما فعلت مرات ومرات، إلى أن اشتعلت مجدداً مع جمرتين ملتهبتين فوق حجر شيشة "قص" مخلوط بقرش حشيش أخرج زكريا متباهيا في جلسة سطل بأحد الأختان التي اعتادوا التردد عليها للمزاج ومشاهدة أفلام "السيكس" أفلام السيكس التي بدأت تغزو بيوت بعضهم بوصلات الدش التي أمدهم بها أشرف الكهربائي، بعد أن فارق زاوية الشيخ عدوي والجلباب الأبيض وأنشأ شبكته الفضائية فوق أسطح خير الله.

كانت تلك المرة الأولى التي يساهم فيها زكريا بقطعة حشيش خام يتجاوز ثمنها أربعين جنيها، وكان في العادة يشاركهم الأنفاس بخدمته للماشة والوجاء وأحجار المعسل. لم يكن سوى محصل إيجار لأربع غرف صغيرة في منزل ورثه عن أبيه، ولم يكن هذا الإيجار يكف غموس عدة أيام. لا وظيفة ولا صنعة،

ويعول زوجة وثلاثة أطفال قبل أن يتجاوز عمره عشرين عاما.  
وعندما سأله حربي عن مصدر قرش الحشيش قائلا: "لطشتها  
منين بنت الناس دي؟" أخرج رزمة مالية منتفخة ملوِّحا بها أمامهم  
كأوراق اللعب "من حُرّ مالي وحتة من جسمي يا شقيق".

باع سيد زكريا كليته اليسرى بخمسة آلاف جنيه صرفها، على  
مزاجه، في عدة أسابيع، دون أن يشترى "الفيسا" التي باع من  
أجلها غالٍ من جسمه. ثم صار يعمل سمسارَ أعضاءٍ لمستشفى  
خاص في منطقة راقية بها أشجار ومواقف سيارات ومحال تبيع  
غاليا، ربما كانت منطقة المهندسين. استقطب عشرات ممن بدوا  
أشياء وصحتهم بحالها على فقرهم المدقع. منهم من أثبتت التحاليل  
أن أعضائه نفسها تالفة وتحتاج "عمرة" أو استبدال أو استئصال،  
ومنهم من وفَّقه المولى تعالى ليتمكّن من قطع جزءٍ عاملٍ من جسده  
لمساعدة غني يعاني أو يحتضر مقابل عدة رزم مالية. وكان أولهم  
عماد عظمة.

لم يكذب عماد خبر زكريا، فاصطحبه الأخير في اليوم التالي  
لقعدة "السلطنة" وعرفه بالطبيب الذي يتعامل معهم بالمستشفى.  
هناك عَرَفَ أن كليته ستركب طائرة وتساغر إلى دبي بعد تركيبها  
في جسد خليجي بعقال ودشداشة وظفته حكومة بلده ضمن نسبة

التوطين التي تفرضها على شركات الاتصالات المحلية، هؤلاء الذين يفضلون بلدنا لتقدّمها في هذا النوع من الجراحات الطبية الخطيرة جدا، حيث لا قوائم انتظار طويلة لنقل الأعضاء ولا دفع بالعملة الصعبة. وعرف عماد أيضا أنه سيرقد على جانبه السليم خمسة أيام متتالية يستطيع بعدها أن يرمح كالحصان، وعرف أن المستشفى ستشرع له أبوابها دوما بالمجان إن شعر بالتعب طوال حياته المدينة، سياخذ عربونا صغيرا مقابل إيصال أمانة، وبقية المبلغ يتسلمه بعد نجاح العملية، إن نجحت.

باع عظمة كليته بستة آلاف "جُندي" حصل منها زكريا بحسب الاتفاق على ألف كاملة. واستطاع عماد أخيرا تعبئة شريط كاسيت في استديو صوتي خلف مسجد مصطفى محمود بالمهندسين، قريبا من المستشفى التي أجرت له الجراحة. نهض من نومته بالمستشفى كالجنّ العفّي، لا أثر لتعب ولا وجع، فقط آثار الجرح والخياطة التي داواها انشغاله بتعبئة ثمان أغان قام بتلحين وتأليف كلمات معظمها، وخلال أسابيع قليلة تسلّم شرائط الكاسيت في صناديق كرتونية تحمل بوسترات عليها صورته جالسا وقد وضع قدما فوق أخرى وأطال النظر إلى براح غير مرئي، وجميلتان عاريتا السيقان والأذرع تقفان خلفه في دلال، وكل منهما تضع كفها فوق كتفه.

ثلاثون كرتونة مغلقة بإحكام. أخرج محتواها ونثره فوق فراشه

وفي أنحاء غرفته دون أن يفكر في الخطوة التالية. ثلاثة آلاف شريط في عُلب شفاقة تحمل صورته وأسماء الأغاني ومؤلفها. لم يكن هناك ثمة اتفاق بشأن التوزيع. فقط حصل على أغانيه مسجلة من الاستديو إلى ورشة لطباعة الشرائط في حلوان.

قيل له أن "يعمل بُنْطَة" على أكشاك ومحال الكاسيت في شارع الفيوم ومصر القديمة والمعادي لتوزيع شريطه، لكنه رفض. قال إنه كنجم لا يجوز له أن يتعامل مباشرة مع منافذ البيع، نسبة المبيعات يجب أن تصله في بيته. وذات صباح شوهد الفنان مهزولا ممصوصا كعود قصب نخره السوس، بالكاد يسير متساندا على جدران المنازل ولا يقوى على رفع يده لرد سلام. ويصير صوته كصوت احتكاك مفصلات صدئة في باب قديم. ظنّوه شامًا، لكن ذبوله يوما بعد يوم أوشى بمرض عضال. راجع المستشفى فأوصدت في وجهه أبوابها. وبعد أيام قليلة... مات.

حبيبي يا أبيض يا ناسيني

الدمعة فرّت من عيني

إن كنت فعلا هاتبغني

الديني حقي ومشيني.. آه مشيني.. آه مشيني



سريعا ترددت كلمات رائعته الطربية، التي انتقلت من تسجيل قهوة محمود مجاهد إلى سائقي سيارات الأنفار بمطلع الزهراء وركابهم، ولم تمر أشهر قليلة على وفاة مطربها ومؤلفها وملحنها حتى يأتي أحدهم في سيارة سوداء عالية كسيارات الإسعاف ليسأل عن بيت المرحوم. وهناك يوقع عقدا جديدا مع صاحب دكان الأتاري سيد عضمة يجيز له إعادة توزيع شريط ابنه مقابل مبلغ مالي كبير. مبلغ كاف لأن يتمكن سيد عضمة من الزواج بفتاة تصغر ابنته هدى بخمس سنوات وبناء طابق ثان في بيته الذي سينجو من جرافات الدائري.

وظلّ زكريا طوّافا على مقاهي خيرالله ومنازلها باحثا عن أعضاء آدمية في جسد جائع. كان يعلم بأحوال السكان وحاجاتهم التي قد تدفع بعضهم للبيع. أقساط متأخرة من ثمن ثلاجة، أو تليفزيون ملون أو غسالة اشتراها من محل كهربائيات أبو عصام شريك الضبع. أو تجديد وتجهيز ابنته لزواج قريب أو دفع مصاريف دراسة أولاد أو غيرها من بنود الإنفاق التي لا تنتهي. إلى أن يطفش زكريا لأسباب غير معلومة تاركاً زوجة شابة وثلاثة أحداث صغار يلتحقون بأبناء سريحة نظرة، للتكسب أسفل كوبري الملك الصالح وفي إشارات مرور الكورنيش والميادين القريبة.

\*\*\*

شريط بعرض أربعين مترا يقطع خير الله طوليا سيقيمون فوقه طريقهم الدائري ذا الاتجاهين، لترتفع البيوت الناجية من الهدم على جانبي الطريق عالية، تُطلّ متفاخرة على براح واسع من الأسفلت الأسود، البراح الذي شهّد سنوات طويلةً من شقاء مشترك، اقتسموا خلالها أرغفة الخبز وعبوات الزيت وأكياس السكر وأواني الطعام وأوجاع الفقر والفقد، واصطف خلالها الجار إلى جانب جاره يتقبل معه العزاء في ميت له رحل، أو متلقيا للتبريكات في فرح هل، ووقف على ساعده وفي كتفه ووراء ظهره. سنوات استقبلت خلالها الجارة جاريتها الغضبانة من زوجها حتى يعود لصوابه ويطلب استعادتها، وكان الجار لجاره أقرب من أقرباء الرحم. سيقطعها - إذن - طريق عريض تعبّره سيارات مسرعة داخلها غرباء يسكنون بعيدا، ولا يتوقفون لالتقاط صورة في هذا المكان.

يمرّ الدائري من وسط العزبة كما يمرّ مسار جوي فوق سحبها، جسرا عاليا مسورا لا يصلها بالعالم بنزلة أسفلتية تسمح لسيارات العزبة باستخدام الطريق. ولا حتى سلالم تسمح للمشاة بالصعود لاستيقاف سيارة عابرة.

انقطعت آمالهم في خط موصلات يمر بمنطقتهم يكفيهم وأبناءهم مشقة السير نحتا في تراب الجبل إلى أقرب وسيلة انتقال، وظلّت سيارات الدائري كتلك الطائرات التي تمرق في السماء لا ينالهم منها سوى هدير لا ينقطع، وأرتال من القمامة والردش تقذف بها عربات

نقل مسرعة وتهرب في كلا الاتجاهين مطمئنة أن لا أحد من سكان هذا المكان سيستطيع اللحاق بها، بل ربما سيسارع أغلبهم للتنقيب في خبائث ما ألقَتْ، بحثًا عن قطعة حديد أو زجاجة بلاستيك أو غرض قديم يمكن استخدامه. وعندما تتكدس تلك الأرتال وتطاول أكثر البيوت ارتفاعا يخرج السكان لإزاحتها إلى بحر الطريق حتى تنشأ حركة السيارات فوق الدائري فترسل المحافظة سياراتها لرفعها، وتحرص تاليا على رفعها كل عدة أيام.

\*\*\*

حمل بيت صالحين علامة زرقاء كي تستعد لهدم نصفه المطل على الشارع البحري، ليظل النصف المتبقي على جدار الدائري. ودخل بيت الشيخ يونس ضمن بيوت العلامات الصفراء التي سيأكلها الدائري حتى آخرها، وبيت أبو ياسين أيضا. بينما بيت العسكري سيبقى منه زاوية صغيرة تصلح -ربما- غرفة دون منافع، وكذلك صار بيت خليل غرفة واحدة تتسع لدكانته في حجمها القديم. وأكلت العلامة الصفراء كذلك كل البيوت والشوارع التي توسطت المنطقة بين الشارع البحري ومنطقة السوق الذي باعت فيه صالحين يوما خضرة وخضارا. ويصير الشارع البحري عدة بيوت متراسة مقابلة لسور الطريق المرتفع.

أعطوا الشيخ يونس مظروفا منتفخا بأوراق نقدية كبيرة، مقابل بيته المنهدم، لكنه ظلّ طوفا في الشارع البحري وما حوله يتسكّع أمام البيوت والزوايا والمساجد والدكاكين. وعندما حاولت صالحين استبقائه في منزلها رفض، تاركاً لها نصيب من ماله قال إنه الثمن الذي دفعوه يوماً لشراء عدة نقلات من التراب الجيري الأبيض لردم منحدر الشارع البحري الذي كان يفصل بين بيتهم وبيته بعد أن زاد نشعه بزيت غامق ذي رائحة نفاذه، خشوا وقتها أن يجلب الحكومة لمصادرة الأرض التي ترشح بالبتروول. ها هي السنون تمر لتصادر الحكومة الأرض من أجل طريق سريع.

ونجا الشيخ عدوي ببيته وزاويته وسُنَيْتَه ليوصل الدعوة هاربا من ملاحقات أمنية طويلة وممتدة، واستطاع - بفضل الله - إرسال العديد ممن أراد الله بهم خيرا إلى الجهاد، هو نفسه سافر طائرا للجهاد يوماً في بنجلاديش مرورا بأبوظبي - ترانزيت - وعاد ليحكي عن جهل المسلمين بالإسلام في بلاد المسلمين.

ونجا الأستاذ عجمي ببيته ومنظّمته، وأنجب أولادا في حلاوة أهمهم وعقلها. واشترى خليل بيتاً جديداً بعيداً بعد أن أخرج "تحويشة" العمر، وصبّ بيتاً بالخرسانة، بينما أبقى على دكانته بالشارع الذي لم يعد بحرياً، مفتوحة على جدار الدائري حتى أغلقها بعد أن "خفت الرجل" وانتشرت دكاكين أكبر وذهبت الصحة.

وخرجت الكنيسة من زمام الدائري، لكن آباءها فشلوا في إيجاد واسطة لإقامة مخرج من الدائري إلى تل الطواحين ليفتح للكنيسة طريقا لا يمر بمطلع خيرالله، وظل دياكون يحقّر جيرانه مبشرا بالهداية والمحبة. ونسفت البيوت المجاورة لبيت الضبع في المفارق نسفاً، بينما ظل بيته دون أن يمس بطرف مطرقة، أما الضبع نفسه فكفصّ ملح ذاب، اختفى، لا مسّ ولا خبر. زوجته كبرّ وفتحية خادمة سريره تعيشان في بيت المفارق كأختين. وبقية رجاله يتنطعون وفي كل واد يهيمون.

وأخذ أبو ياسين بيتا صغيرا قريبا من منطقة "السبع بنات" بعد أن باع ذهب "الولية" وقيراطين كان يحتفظ بهما في بلدته، كان البيت صغيرا لكنه ملك، وقال لزوجته ألا تنتظر لـ"السبع بنات" الآن، تنتظر إليها بعد سنوات، بعد سنوات لن يكون بها موطن لقدم ومن لم يبادر بركوب حنة سيندم.

وأطل بيت صالحين على الطريق بعد أن صار صندوقا مكتنزا. وعاد ناجي من بلاد القصار ذوي العيون الضيقة بدولارات تكفي بناء طابقين يرى العلوي منها سيارات الملاكي المسرعة فوق الدائري، ولافتات إعلانات المسلسلات ومنتجات التنظيف وشركات الاتصالات.

لم يخرج ناجي بعد، ولا علي، تنتظر صالحين عودتهما في

خير الله.. الجبل

---

"بلكونة" ترى أسفلت الطريق وترى البيوت التي تطل على  
الطريق من الجانب الآخر، تقضي مساءاتها تتطلع إلى خير الله.  
تقول:

"لو تفناها فوق تنزل ع الوش.. ولو تفناها تحت تنزل في  
الع"

\*\*\*







# المؤلف في سطور

علاء فرغلي

- روائي، وشاعر، وسينارست من مواليد ديسمبر 1976.
- درس اللغات الشرقية (العبرية) في كلية الآداب جامعة القاهرة واللغة التشيكية في كلية الألسن بجامعة عين شمس.
- عمل في المجال الصحفي منذ تخرجه في العام 2000، بالعديد من المؤسسات الصحفية المصرية، قبل سفره للعمل في جريدة الإمارات اليوم في إمارة دبي.
- له سيناريو مسلسل درامي طويل قيد الإنتاج.

البريد الإلكتروني:

[alaafarghaly4@yahoo.com](mailto:alaafarghaly4@yahoo.com)

الرواية هي تاريخ للمكان، وهو ليس موطناً لمجتمع متجانس تناوله الأدب وتناولته السينما والدراما كمجتمع القرية والريف شمالاً أو جنوباً، أو المجتمع البدوي الذي تعارف على قوانينه واعتمدها وارتضاها جيلاً بعد آخر، وليس مجتمع المدينة بقوانينه الصارمة، وإنما هو موطن لخليط من كل هؤلاء، الريفي والصعيدي والقاهري والبدوي والغريب والهارب والثائث والحلبي الذي لا أصل له ولا فصل. هؤلاء الذين تجمعهم خيرالله كما تجمعهم كل منطقة عشوائية غيرها فيتحزب فيها الأقارب والمعارف والبلديات وتصير عصابات لا يربط بينها سوى الرغبة في الشعور بالأمان. فترصد الرواية النشأة والمولد منذ بداية الثمانينيات وحتى يشق الدائري قلبها كما يشق مسار جوي سحابها، لا ينال سكانها منه سوى هدير السيارات العابرة من الجيزة إلى القاهرة الجديدة، وسوى أكداش من القمامة يقذف بها سائقو السيارات في عبورهم السريع فوق خيرالله، هي نموذج لحبي عشوائي صار - كآلاف غيره - مفرخاً للخوف والضعف وعيناً ثقيلاً على كاهل مجتمعه الأكبر. وهي تقع في قلب القاهرة القديمة لكنها الأبعد عن مجتمع العاصمة بشوارعها وسكانها ومهنها وطبيعتها.

